السيرة المحمدية

دراسة تحليلية للسيرة المحمدية
على ضوء الكتاب والسنة والتأريخ الصحيح

الإستاذ المحقق
الشيخ جعفر السبحاني

دار الأضواء

شبكة الفكر
alfeker.net

السيرة المحمدية

جميع حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٢ م

دار الأضواء للطباعة والنشر والتوزيع

ت: ٢٧٠٨٧٣ - ٢٧١٧٨٨ - ف: ٢٧١٦٨٥

ص.ب: ٢٥/٤٠ غبيري - بيروت - لبنان

السيرة المحمدية

دراسة تحليلية للسيرة المحمدية
على ضوء الكتاب والسنة والتاريخ الصحيح

الأستاذ المحقق
الشيخ جعفر السبحاني

إعداد وإقتباس
الدكتور يوسف جعفر سعادة

تعريب
الشيخ جعفر الهادي

دار الأضواء

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة المؤلّف

بسم الله الرحمن الرحيم

إنّ أعظم صفحات التاريخ قيمة، هي تلك التي تعكس لنا حياة العظماء، وسيرةالرجال الخالدين، والتي تبحث عنهم بصدق وأمانة وموضوعية، ذلك إنّهم معجزة الخليقة بلا ريب، وحياتهم في الحقيقة ملحمة التاريخ الكبرى، وساحة البطولات الخالدة، ومسرح الحماسات العظمى الحيَّة النابضة على مر العصور.

لقد كان أُولئك العظماء يعيشون على خط الثوارات و التغييرات الاجتماعية، تجد مصداقيّتها في حياتهم، وتتجسّد في مواقفهم،ولهذا كانوا يشكّلون حلقة الاتّصال بين مظاهرالدنيا المختلفة المتناقضة، فكانت حياتهم الحافلة بالأحداث، شاهدةً للألوان والمشاهد المثيرة المتنوعة.

ويأتي على رأس أُولئك الرجال التاريخيين والعظماء الخالدين، رسولُ الإسلام العظيم محمّد ﷺ، إذ أنّه لم تتسم حياة أحد ـ من حيث وفرة الأحداث وعظمة الأمواج ـ كما اتّسمت حياته ﷺ، ولا اتّصفت شخصيةً بمثل ما اتّصف به ذلك النبيُّ العظيم. فلم يستطع أحدٌ سواه، أن يؤثّر في بيئته،ثمّ في جميع أنحاء العالم، وينفذ إلى أعماق الأعماق بمثل السرعة والسعة التي حصلت له ﷺ.

إنّ مطالعة عميقة لسيرة وحياة هذا الإنسان العظيم، قادرة على أن تعلمنا الكثيرَ الكثيرَ، وأن توقفنا على مشاهد متنوعة في غاية النفع ومنتهى الفائدة.

وقد أُلّفت حول حياة رسول الإسلام كتبٌ ورسائل ودراسات كثيرةٌ، بحيث لو

أُتيح لنا أن نجمعها في مكان واحد، لشكّلت مكتبةً ضخمة وعظيمة.

ويمكن القول بأنّه ليس ثمّة من عظيم استقطب اهتمام التاريخ والمؤرّخين والمفكّرين، كما أنّه ليس ثمّة شخصيةً عالمية كتب حولَها المؤلّفون والباحثون، هذا القدرَ الهائلَ من المؤلّفات والمصنّفات والرسائل والكتب، مثل ما حصل للرسول الكريم ﷺ.

إلاّ أنّ أكثر هذه الكتب والمؤلّفات تعاني من أحد إشكالين:

إمّا أنّه جاء على نَسَق التسجيل المجرّد للحوادث، أو النصوص التاريخية دون أن يقوم مؤلّفُه بتحليلها ودراسة خلفيّاتها ونتائجها وإصدار الحكم اللازم بشأنها.

أو عَمَدَ إلى طائفة من الآراء الحدسية والاجتهادات الباطلة العارية عن الدليل، وإثباتها في مؤلّفه على أنّها الحكمُ الحقّ، وخلط هذه الأحكام مع الأحداث، ليخرج كتابه إلى الجمهور المتعطّش إلى تاريخ الإسلام، على أنّه التاريخ المحقَّق.

ويمكن الردُّ على هؤلاء، بأنّ الهدف من التاريخ ليس مجرّد تسجيل للحوادث وضبطها وتدوينها، بل هو تناول أحداثه من المصادر الصحيحة الموثوق بها، وإبراز عللها، وأسبابها وثمارها ونتائجها، وهو بهذا الشكل يصبح أعظم كنز تركه الأقدمون لنا.

لقد تجنّب أكثر كُتّاب السيرة النبوية عن إظهار الرأي في الحوادث، أو القيام بأيّ تحليل للوقائع، بحجّة الحفاظ على أُصول الحوادث ونصوصها، بل إنّ أكثر الحوادث التاريخية في العصر الإسلامي أُدرجت في الكتب من دون دراسة موضوعية وتقييم دقيق.

أمّا هذا الكتاب فإنّه يتميّز بميزتين هامتين:

أوّلها: إنّنا عمدنا فيه إلى تناول الحوادث والوقائع المهمة، ذات الفائدة الكبرى

والعبر ، بالبحث والتحليل مع إبعاد الأحداث الجزئية الصغرىٰ، و قد اتّخذنا تلك الأحداث من المصادر الأصلية و الأوّلية التي دوّنت في القرون الإسلامية المشرقة الأُولى.

وثانيتهما: إنّنا أشرنا خلال الدراسة، إلى الاعتراضات والإشكالات، و إلى مواطن الإساءة التي قدّمها المستشرقون المغرضون، وتناولناها بالإجابة على كلّ تلك الانتقادات غير الصحيحة بأجوبة مقنعة وقاطعة.

ولهذا بادرنا إلى ذكر رأى المؤلّفين الشيعة في المسائل التي اختلف عليها مؤرّخو السنّة والشيعة، مع ذكر المصادر والشواهد التاريخية الواضحة المبرهنة.

وإنّنا إذ نقدّم هذه الدراسة التحليلية لشخصية وحياة خاتم الأنبياء محمّد ﷺ إلى القرّاء الكرام، نأمل أن يهتم بها عامّةُ المسلمين وخاصةً المثقفون والشباب منهم، ليتناولوا هذه السيرة العطرة بالمطالعة المتأنيّة و التأمّل والتدبّر، حتى يمكنهم أن يرسموا خريطة حياتهم وحياة مجتمعهم في ضوء ما يستلهمونه ويتعلّمونه من سيرة وحياة رسول الإسلام ﷺ في هذه الحقبة البالغة الخطورة.

والله وليُّ التوفيق

جعفر السبحاني

قم المقدّسة ـ مؤسّسة الإمام الصادق عليه السلام

الأربعاء ٢٧ محرم ١٤٢٠هـ

١٢/ ٥/ ١٩٩٩م

مقدمة الملخّص

كان لي الشرف العظيم والافتخار أن أتقابل مع الأُستاذ المحقّق و العلاّمة الشيخ جعفر السبحاني في مكتبه بقم المقدسة، حينما جمعتني به الظروفُ والصّدفُ الحسنة الطيبة والمباركة، أدام الله ظلّه وأطال في عمره الشريف، فقد كنتُ في قم المقدّسة بهدف تقييم كتابي:«أهل البيت عليهم السلام وآثارهم في المجتمع الإنساني» الّذي كان يستدعي أنْ أعرضه على عدد من علمائنا الأفاضل ـ أطال الله في أعمارهم وجعلهم أنواراً في الأرض ـ ليقدّموا ما لديهم من مقترحات حول ما جاء فيه من أفكار وآراء قد لا تتناسب مع جزئيات الدين أو المذهب أو المعتقدات الخاصة بالمسلمين عامة و الشيعة خاصة.

وكان الشيخُ الفاضل ممن أُوصيت بالاتّصال به للمساعدة في هذا الجانب، فتشرَّفت بلقائه وتقبّل ما عرضت عليه، فله الشكرُ و التقديرُ والاحترام، إلاّ أنّه في نفس الوقت تقدّم هو الآخر بعرضٍ مماثل، وهو أن أقوم بتلخيص كتابه الكبير : «سيد المرسلين» الذي يتناول فيه سيرة الرسول الكريم محمّد صلى الله عليه وآله، وذلك ليسهل تداوله في الأيدي، فيطّلع عليه شبابنا المثقّف في هذا الزمن الذي امتنع فيه عن قراءة الكتب المطوّلة ذات الأجزاء المتعدّدة، بل بالكاد يطلع على أقلّ الكتب صفحات وموضوعات وأفكار. وكان عرضه في الحقيقة شرفاً كبيراً لي، وتقديراً منه لي أيضاً، في الوقت الذي اندهشت لعرضه، إذ انّني في كتابي« أهل البيت» تناولت ما يتعلّق من أحداث عن الأئمّة الاثني عشر عليهم السلام وأولادهم وأحفادهم، دون التعرّض للنبي صلى الله عليه وآله والسيدة فاطمة الزهراء عليها السلام إلاّ نادراً، فأصبح هذا الكتاب وكأنّه يكمل ولا شكّ ما جاء من وقائع

وأحداث في كتابي أهل البيت ﷺ.

وقد نهج الكاتب العظيم في تأليفه، بأن قسمّ كتابه إلى جزءين: تناول في الأوّل منهما أحداث الإسلام والمسلمين في مكة إلى زمن الهجرة إلى يثرب. وفي الجزء الثاني، قدم شرحاً مفصلاً لأحداث المدينة المنورة سنةً بعد سنةً، إلاّ أنّه لم يتخذ منهج التنظيم، شكلَ الأبواب والفصول، بل نهج في تنظيمه بالأعداد والأرقام.

ولما كنت أميل نحو تنظيم الكتب في مؤلفاتي إلى الأقسام والأبواب والفصول، فإنّي قمت بتقسيمه أوّلاً إلى قسمين: اختص الأوّل بأحداث مكّة المكرّمة.

والثاني: ارتبط بوقائع ومجريات الأُمور في المدينة المنورة.

ثمّ إنّ كلّ قسم اتّخذ عدة فصول بحسب الأحداث و الوقائع وأهميتها. كما أنّي أضفت عدّة فقرات كانت بحاجة إلى تفسير بعض الأحداث أو المواقع أو الشخصيات. ثمّ أعددت قائمة منظمة للمراجع والمصادر التي استفاد منها المؤلّف كما أعددت فصلاً خاصاً تناولت فيه ما جاء من قصص وروايات في كتاب العلاّمة الشيخ تثري المعلومات المقدمة.

وأرجو من الله العلي القدير أن يكون قد وفّقني في عملي المتواضع هذا، وأن يتقبّله الرسول الكريم ﷺ، وأهل بيته الكرام، فيكون شفيعاً لي ولأهلي يوم القيامة، وأن يُرضِيَ به أُستاذنا وشيخنا المحقّق العلاّمة جعفر السبحاني، أطال الله عمره بالصحّة الموفورة، ووفّقه لما فيه الخير والمصلحة للإسلام والمسلمين.

د/ يوسف جعفر سعادة

الكويت

٢١ ربيع الأوّل ١٤٢٠هـ

٤/ ٧ (يوليو)/ ١٩٩٩م

القسم الأوّل

مكّة المكرمة

و فيه فصول:

١. العرب قبل الإسلام

٢. الرسول الأكرم محمّد ﷺ

٣. البعثة النبوية

٤. مواجهة المسلمين للكفّار

الفصل الأوّل

العرب قبل الإسلام

الأحوال الداخلية في شبه الجزيرة العربية

الأحوال السياسية في المنطقة المجاورة

التعريف بأسلاف الرسول ﷺ

١ . الأحوال في جزيرة العرب

لم تكن القبائل العربية الجاهلية المتناحرة، تعيش أيّة حضارة، ولم تكن تمتلك أيّة تعاليم وقوانين وأنظمة وآداب قبل مجيء الإسلام، فقد كانت محرومةً من جميع المقوّمات الاجتماعية التي توجب التقدّمَ والرقي، ولذا فلم يكن من المتوقع أن تصل إلى تلك الذرى الرفيعة من المجد والعظمة، ولا أن تنتقل من نمط الحياة القبلية الضيقة إلى عالم الإنسانية الواسع و أُفق الحضارة الرحيب، بمثل هذه السرعة التي وصلت إليه، والزمن القصير الذي انتقلت فيه.

ويمكننا أن نقف على وصف دقيق لحالة العرب قبل الإسلام، من خلال مصدرين إسلاميين أساسيّين، وهما:

١ . القرآن الكريم، وهو خير مرآة تعكس أحوال العرب وأوضاعهم بالدقّة والشمولية.

٢ . ما صدر عن الإمام علي عليه السلام في نهج البلاغة في وصف الحالة قبل الإسلام.

فقد ورد فيهما تصريحاتٌ ونصوصٌ صريحة تكشف عمّا كان عليه العرب في الجاهلية من سوء أحوال، وأوضاع، وأخلاق في جميع الأبعاد والأصعدة. وبالرغم

من أنّ العرب من ولد عدنان قد اتّصفوا بصفات حسنة، إذ كانوا يكرمون الضيف، وقلّما يخونون الأمانة، ويضحّون في سبيل المعتقد، ويتحلّون بالصراحة الكاملة، إضافة إلى براعتهم في فن الشعر والخطابة، وكونهم يضربُ بهم المثل في الشجاعة والجرأة، إلاّ أنّهم إلى جانب كلّ ذلك، كانوا يعانون من مفاسد أخلاقية تطغى على ما لديهم من كمال وفضيلة.

فالمجتمع العربي وخاصة منطقة الحجاز لم تقم فيها حضارة،أو أنّه لم يبق أي أثر من هذه الحضارات فيها إلى ما قبل بزوغ الإسلام، وقد شاعت فيه أخلاق وعادات كان أبرزها:

ـ الشرك في العبادة، حيث عبدوا الأصنام والأوثان والنجوم.

ـ إنكار المعاد، أي عودة الإنسان إلى الحياة في العالم الآخر.

ـ هيمنة الخرافات، التي كانت تكبّل عقول الناس في المجتمع، حيث تركزت فيها، فكانت سبباً قوياً في تخلّفهم، وسداً منيعاً في طريق تقدّم الدعوة الإسلامية، فيما بعد، ممّا جعل النبي ﷺ يعمل بكلّ طاقاته وجهده في محو وإزالة تلك الآثار الجاهلية، والأفكار والمعتقدات الخرافية.

ـ الفساد الأخلاقي، مثل انتشار القمار ـ الميسر ـ والخمر و الزنا واللواط والبغاء.

ـ وأد البنات، وهي العادة القبيحة التي اعتبرها القرآن الكريم جريمة نكراء لا تمر في الآخرة بدون حساب شديد.

ولذا فإنّ المرأة كانت محرومة من جميع الحقوق الاجتماعية حتى حقّ الإرث، كما عدّها المثقفون من الحيوانات تباع وتشترى، وجزء من أثاث البيت. وكان

الرجل يتزوج بـزوجة أبيه متى طلقها أو بعد وفاتـه، و ربما تناوب الأبناء على امرأة أبيهم واحد بعد واحـد، كما كان الرجل يرث امرأة من قـرابته إذا مات عنها، مثلما يرث أمتعة المنزل، إضافة إلى أنّهم كانوا يورثون البنين دون البنات.

ـ تناول الدم والميتة والخنزير، وأكل الحيوانات التي يقتلونها بقسوة.

ـ النسيء، وهـو تأخير الأشهر الحرم، كان يقـوم به سدنة الكعبـة أو رؤساء العرب، عندما كانوا يقررون استمرار الحرب و الغارات في الأشهر الحُرم.

ـ الربا، الذي شكّل العمود الفقرى في اقتصادهم.

ـ النهب والسلب، فقد كان انتهـاب ما في أيدي الناس، والإغارة والقتال، من العادات المستحكمة عندهم، حتى إنّ بعض حروبهم كانت تمتدّ إلى مائة سنة أو أكثر، حيـث كانـت الأجيال تتـوارث تلك الحروب، وقـد بلغ ولعهـم بالقتـال وسفك الدماء أن جعلوها من مفاخر الرجال.

ـ أمّا عن الجانب العلمي والثقافي، فـإنّ أهل الحجاز وُصِفوا بالأُمّيين، فلم يتجاوز عـددُ الّذين عرفـوا القراءة والكتابة في قـريش ما قبل الإسـلام عن(١٧) شخصاً في مكة ، و (١١) نفراً في المدينة المنورة.

ومن ذلك يمكـن القول أنّ تاريخ العرب قبل الإسـلام وبعده،تاريخان على طـرَفي نقيض: الأوّل جـاهلي ووثني وإجـراميّ، والثـاني تـاريخ علـم ووحدانيـة وإنسانية وإيمان.

ومـن التخلّف والانحطـاط في الأوّل، يمكـن معرفـة مـدى تأثير الإسـلام وعظمة التعاليم الإسلامية في جميع المجالات والحقول المعيشية. فكيف تحقق ذلك

التطور العظيم لهؤلاء العرب الجاهليّين في الجزيرة العربية، في حين لم يستطع عربُ اليمن الذين امتلكوا الشيء الكثير من الثقافة والحضارة، وعاشوا حياة حضارية متطورة، أن يصلوا إلى هذه النهضة الشاملة، أو تقيم مثل هذه الحضارة العريضة، أو عرب الغساسنة الذين جاوروا بلاد الشام المتحضرّة، والذين عاشوا تحت ظلّ حضارة الروم، أن يصلوا إلى تلك الدرجة من الثقافة، أو عرب الحيرة الذين عاشوا تحت ظل إمبراطورية الفرس أن ينالوا مثل ذلك الرقيّ والتقدّم، في الوقت الذي تمكّن فيه عرب الحجاز من تحقيق تلك النهضة الجبارة، وورثوا الحضارة الإسلامية العظمى، في حين لم يكن لهم عهدٌ بأيّ تاريخ حضاريّ مشرق، بل كانوا يرزحون تحت أغلال الأوهام والخرافات والأساطير والعادات السيّئة.

وخيرُمن يوضّح تلك الأوضاع والأحوال، هو الإمام علي عليه السلام في الخطبة الثانية من «نهج البلاغة»:

« والناسُ في فِتَن انجذم[١] فيها حبلُ الدين، وتزعزعت سواري[٢] اليقين، واختلف النجرُ[٣]، و تشتُّت الأمرُ، وضاق المخرجُ،وعمي المصدرُ، فالهدى خامل، والعمى شامل، عصي الرحمن ونُصر الشيطان، وخُذِلَ الإيمانُ فانهارت دعائمهُ، وتنكّرت معالمُه،ودرست [٤] سبلُه،وعفت شركه[٥]، ... فهم فيها تائهون حائرون جاهلون مفتونون في خير دارٍ وشرِّ جيرانٍ، نومُهم سُهود، وكُحلهم دموع، بأرض عالمها مُلجَم وجاهلها مُكرَم».

---

١. إنقطع.
٢. الدعائم.
٣. الأصل.
٤. إنطمست.
٥. الطرق.

وفي الخطبة ٢٦ قال عليه السلام:

«إنّ الله بعث محمّداً صلى الله عليه وآله نذيراً للعالمين وأميناً على التنزيل، وأنتم معشر العرب على شرّ دين وفي شرّ دار منيخون[١]، بين حجارة خُشن[٢]، وحيّات صُمّ[٣]، تشربون الكَدر، وتأكلون الجِشِب[٤]، وتسفكون دماءكم، وتقطعون أرحامكم، الأصنام فيكم منصوبةٌ، والآثام بكم معصوبة[٥]».

و قال عليه السلام في الخطبة ٩٥:

«بعثه صلى الله عليه وآله، والناس ضُلّال في حيرة، وحاطبون في فتنةٍ، قد استهوتهم الأهواءُ، واستزلّتهم الكبرياءُ، واستخفّتهم[٦] الجاهلية الجهلاءُ، حَيارىٰ في زلزالٍ من الأمر، وبلاءٍ من الجَهل، فبالَغَ صلى الله عليه وآله في النصيحة، ومضى على الطريقة، ودعا إلى الحكمة والموعظة الحَسَنة».

وأيضاً في الخطبة ١٥١: قال عليه السلام:

«أضاءت به صلى الله عليه وآله البلاد بعد الضلالة المظلمة، والجهالة الغالبة، والجفوة الجافية، والناس يستحلون الحريمَ، ويستذلون الحكيمَ، يحيون على فترة[٧]، ويموتون على كفرة».

وقد أكد تلك الأحوال والحياة، أيضاً، جعفرُبن أبي طالب، عندما خطب

---

١. مقيمون
٢. جمع خشناء من الخشونة.
٣. التي لا تسمع لعدم إنزجارها بالأصوات.
٤ الطعام الغليظ.
٥. مشدودة
٦. طيّشتهم.
٧. على خلوّ من الشرائع.

أمام النجاشي في الحبشة، يشرح أحوال المسلمين والمشركين، فقال:

«أيّها الملك، كُنّا قوماً أهل جاهلية نعبدُ الأصنام، ونأكلُ الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطعُ الأرحام، ونسيء الجوار، ويأكلُ القويُّ منّا الضعيف، فكنّا على ذلك، حتّى بعث الله إلينا رسولاً منّا نعرف نَسَبَه وصدقَه وأمانته وعفافه، فدعانا إلى الله لنوحّده ونعبده، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان، وأمرَنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار، والكف عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش وقول الزور، وأكلِ مال اليتيم، وقذف المحصَنات. وأمرنا أن نعبد الله وحده لا نشرك به شيئاً، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام».[1]

٢. الأحوال السياسية في المنطقة

لقد جاروت البيئة الّتي ظهر فيها الإسلام أعظم امبراطوريتين في ذلك الوقت هما: إمبراطورية الروم والفرس، وهذا ممّا يجعلنا ندرس أحوالها لنقف على قيمة الحضارة التي قدّمها الإسلام.

فامبراطورية الروم تميّزت الأحوال فيها بالحروب الداخلية والخارجية، وخاصّة في صراعها مع دولة فارس، كما كان للمنازعات الطائفية والمذهبية نصيبها في توسيع رقعة الاختلاف فيها، كالحرب بين المسيحيين والوثنيين، حينما مارس رجال الكنيسة أشدّ أنواع الضغط والاضطهاد بحقّ الآخرين، الأمر الذي ساعد على إيجاد أقلية ناقمة، كما ساعد على ظهور حالة مهدت لتقبّل الشعب الروماني للدعوة الإسلامية فيما بعد. هذا مضافاً إلى أنّ اختلاف رجال الدين فيما بينهم،

١. السيرة النبوية ١/ ٣٣٥ والحديث عن أُمّ سلمة.

وتعدّد المذاهب من جهة، عملا على التقليل من هيبة الإمبراطورية واتجاهها نحو الضعف و الانحلال. وقد أدّى كلّ ذلك إلى انقسام الإمبراطورية الرومانية إلى قسمين: شرقي و غربي. وقد استغل اليهود ذلك الضعف و الانهيار الداخلي فخطّطوا لإسقاط النظام، ممّا جرّ إلى ازدياد جرائم المذابح الانتقامية بين الطرفين، ولم تهدأ الأحوال إلاّ بعد ظهور الإسلام وانتشاره في تلك الجهات.

أمّا إمبراطورية فارس، فقد سيطرت على معظم مناطق العالم بالاشتراك مع إمبراطورية الروم، وتميّزت الفترة بالنزاع الدائم بين إيران الساسانية والروم للسيطرة على مناطق نفوذ جديدة، فقد بدأت الحروب بينهما منذ عهد «أنوشيروان» (٥٣١ـ٥٨٩م) حتى زمن «خسرو برويز» لمدة ٢٤ عاماً، ممّا أضعف الدولتين.

وقد اشتهر «برويز» بالميل نحو الترف وحياة البذخ، حتى بلغت أعداد نسائه وجواريه الآلاف منهن، كما كان أرغب الناس في جمع الأموال والجواهر والأواني.

وفي الجانب الاجتماعي، ظهر التمييز بين الطبقات، فالنبلاء والكهنة كانوا على رأسها تملكوا المناصب الاجتماعية العليا، بينما حرم الكسبة والمزارعون وبقية أبناء الشعب من كافة الحقوق الاجتماعية، سوى دفعهم للضرائب الثقيلة والمشاركة في الحروب. وقد أدّى هذا الوضع المتردّي إلى أن تمتلك أقلية صغيرة كلّ شيء وهي نسبة (٥/ ١١٪) من مجموع الشعب، بينما حرم أكثر من (٨٩٪) من حقّ الحياة تماماً. كما أنّ الأغنياء فقط هم الذين تلقّوا التعليم، بينما حُرِمَ الباقون منه، واتخذ الحكّام الساسانيون سياسة الخشونة القاسية مع الناس، وأخضعوهم بالسيف والعنف، وفرضوا الضرائب الثقيلة، ممّا جعل الشعب غير راضٍ على حكمهم وسيرتهم، الأمر الذي جعل الصراع والتنافس يدب بين الأمراء والأعيان

وقادة الجيش، فاختار كلّ فريق أميراً من أبناء العائلة المالكة، وتفرغ لتصفية الطوائف الأُخرى، ممّا أصبح كلّ ذلك أسباباً قويّة لضعف الدولة وانقسامها وانحلالها أيّام الفتح الإسلامي.

على أنّ الفساد الذي ظهر في أوساط رجال الدين الزرادشت،وتطرّق الخرافات والأساطير إلى المعتقدات الزرادشتية، تسبب في حدوث مزيد من التشتّت والاختلاف في آراء الشعب الإيراني وعقيدته، ممّا أفقده الثقة والإيمان بتلك المعتقدات.

وقد أدّى تردّي الأوضاع الاجتماعية، والصراع الطويل بين فارس والروم في خلال عشرين عاماً، إلى عقد الصلح بينهما على أساس أن يدفع الروم إلى فارس ما يعادل (٢٠ ألف دينار)، إلاّ أنّ الروم عادوا إلى الحرب والمعارك الطاحنة مرّة أُخرى لفترة سبع سنوات، تمكن فيها الملك الفارسي خسرو برويز في ٦١٤م من الاستيلاء على بلاد الشام وفلسطين وأفريقية، ونهب أورشليم، وحرق كنيسة القيامة ومزار السيد المسيح عليه السلام، وقتل ٩٠ ألف نصراني. وقد حدث ذلك في زمن بعثة الرسول صلى الله عليه وآله و قد حزن المسلمون على هزيمة الرّوم الّذين كانوا أصحاب كتاب، و لم يتخذ الرسول صلى الله عليه وآله موقفاً خاصّاً اتّجاه هذه الأحداث حتى نزل الوحي عليه مبشّراً بانتصار الروم في المستقبل القريب، وقد تحقّقت هذه البشارة في سنة ٦٢٧ م.[1]

وقد وضع الجيش الإسلامي بحملاته الناجحة، حداً لتلك الأوضاع المضطربة، ونهايةً لذلك الصراع السياسي الدامي الذي استمر خمسين عاماً، وفسح المجال لأن يختار الشعبُ الفارسي دينه ومعتقداته بحرية في منأى عن القهر والقسر.

١. راجع سورة الروم:١ ـ ٦.

٣. التعريف بأسلاف الرسول ﷺ

كان من الواجب التحدّث عن أحوال أجداد النبي ﷺ لما كان لهم من نصيب هام في تاريخ العرب والمسلمين . ولما كان نسب النبيُ ﷺ ينتهي إلى النبي إسماعيل بن إبراهيم عليه السلام فإنّه من المستحب أن نتناول أسلاف النبي ﷺ بالعرض والدراسة بدءاً منه عليه السلام .

١ . **النبي إبراهيم عليه السلام** هو بطل التوحيد، جاهد في سبيل إرساء قواعد التوحيد، واقتلاع جذور الوثنية. ولد في بابل ـ التي تعد إحدى عجائب الدنيا السبع ـ التي حكمها «نمرود بن كنعان» الذي أمر الناس بعبادته إضافة إلى عبادة الأصنام، ولمّا ذكر له أنّ عرشه سينهار على يد رجل يولد في بيئته، أمر بعزل الرجال عن النساء، في نفس الليلة التي انعقدت فيها نطفة النبي إبراهيم عليه السلام ، وهي الليلة التي تكهّن بها المنجمون والكهنة من أنصار نمرود، ممّا دفع جلاوزته إلى قتل كلّ وليد ذكر. وقد حملت به أُمّه ــ أُمّ إبراهيم ـ مثلما حملت أُمّ موسى عليه السلام به، فأمضت فترة حملها في خفاء وتستر، ثمّ وضعته في غار بجبل قريب من المدينة للحفاظ عليه، وقضى في هذا الغار فترة ثلاث عشرة سنة، ثمّ انخرط في المجتمع الذي استغرب وجوده فأنكروه. ورأى في مجتمعه ظواهر التعبد لغير الله، من نجوم وكواكب وأصنام وعبادة الإنسان، ممّا دعاه إلى أن يحارب في هذه الجبهات، التي أوضحها القرآن الكريم في سوره وآياته الشريفة. وقد بدأ عمَلَه بمكافحة ما كان عليه أقرباؤه، وعلى رأسهم عمه آزر، وهو عبادة الأصنام والأوثان، ثمّ اتّجه إلى جبهة أُخرى أكثر ثقافة وعلم، وهي التي عبدت الكواكب والنجوم والأجرام السماوية.

وقد أعطى النبي إبراهيم عليه السلام سلسلة من الحقائق الفلسفية والعلمية، لم

يصل إليها الفكر البشري يومذاك، في حواره العقائدي مع عبّاد الأجرام السماوية، مدعمة بأدلّة لا تزال إلى اليوم،موضع إعجاب كبار العلماء وروّاد الفلسفةوالكلام. وقد نقل القرآن الكريم في هذا المجال أدلّة النبي إبراهيم عليه السلام باهتمام خاصّ وعناية بالغة.[1] فقد اتّخذ إبراهيم عليه السلام هيئة الباحث عن الحقيقة بدون أن يصدم تلك الفرق المشركة ويجرح مشاعرها. وركّز في عمله على التوحيد في الربوبية، والتدبير وإدارة الكون، وأنّه لا مدبّر ولا مربّي للموجودات الأرضية إلّا الله سبحانه و تعالى، فأبطل ربوبية الأجرام السماوية بقوله: ﴿وَجَّهْتُ وَجْهِي لِلَّذي فَطَرَ السَّمواتِ وَالأَرض حَنيفاً وَما أَنَا مِنَ الْمُشْرِكين﴾[2]. أمّا بالنسبة إلى عمّه آزر الذي كان ذا مكانة اجتماعية عالية بين قومه، وصانعاً ماهراً ومنجماً، له رأيه وأفكاره في الأُمور الفلكية في بلاط نمرود، فإنّه ليس أبوه بل عمّه، وذلك أنّ علماء الشيعة قد اتّفقوا على أنّ آباء الأنبياء كانوا مؤمنين بالله موحّدين به، وأكّد الشيخ المفيد ذلك في كتابه: «أوائل المقالات»[3] بل إنّ كثيراً من علماء السنّة قد وافقهم في ذلك أيضاً،ولعلّ مناداته بالأب، نظراً لكونه الكافل لإبراهيم عليه السلام ردحاً من الزمن، فنظر إليه بمنزلة الأب.

وأمّا بخصوص عقابه، وإلقائه في النار، وعدم تأثّره بها وخروجه سالماً منها، فإنّ السلطات الحاكمة قررت نفيه من البلاد فغادرها إلى الشام، ثمّ إلى الحجاز مع زوجته هاجر وابنه إسماعيل، حينما أسكنهما في مكّة، وظهرت بفضلهما عين زمزم، ووفدت جماعات من القبائل لتسكن في تلك البقعة، وأشهرها قبيلة «جرهم» التي

١. ترتبط آية ٧٤ من سورة الأنعام بحواره مع الوثنيّين، بينما ترتبط الآيات اللاحقة لها بعبادة الأجرام السماوية.

٢. الأنعام:٧٩.

٣. اوائل المقالات:١٢، باب القول في آباء رسول الله صلى الله عليه وآله.

تزوّج منها إسماعيل وصاهرهم، ومنذ ذلك الوقت أصبحت مكة من المدن العامرة، بعد أن كانت صحراء قاحلة وواد غير ذي زرع.

٢. **قصيّ بن كلاب**: هو الجدّ الرابع للرسول ﷺ وأُمّه فاطمة التي تزوّجت برجل من بني كلاب ورزقت منه بولدين: زهرة وقصيّ. و قد توفّي أبوه فربّاه زوجُ أُمّه ربيعة، إلاّ أنّ خلافاً وقع بين قصيّ وقوم ربيعة، أدى إلى طرده من قبيلتهم،ولكن أُمّه تمكنت من إرجاعه إلى مكة، فعاش فيها متفوقاً في أعماله ومراكزه، فشغل المناصب الرفيعة، مثل حكومة مكة، وزعامة قريش، وسدانة الكعبة المعظمة، فأصبح رئيس تلك الديار دون منازع. ومن أهمّ أعماله:

أ: تشجيع الناس على البناء حول الكعبة.

ب: تأسيس مجلس شورى يجتمع فيه رؤساء القبائل في حلّ مشكلاتهم، وهو دار الندوة.

وأمّا من الأولاد فقد ترك: عبد الدار وعبد مناف.

٣. **عبد مناف**: هوالجدّ الثالث للنبي الأكرم ﷺ واسمه: «المغيرة»، ولقبه قمر البطحاء. و مع أنّه كان أصغر من أخيه، إلاّ أنّه حظي بمكانة خاصة عند الناس، فقد اتخذ التقوى شعاراً، ودعا إلى حسن السيرة وصلة الرحم، ولكن الزعامة والقيادة كانت لأخيه عبد الدار، حسب وصية أبيهما. إلاّ أنّ الوضع تبدّل بعد وفاتهما، فقد وقع الخصام والتنازع بين أبنائهما على المناصب، فانتهى الأمر إلى اقتسامها بينهم، حيث تقرّر أن يتولّى أبناء عبد الدار سدانة الكعبة وزعامة دار الندوة، ويتولّى أبناء عبد مناف سقاية الحجيج وضيافتهم ووفادتهم.

٤. **هاشم**: وهوالجدّ الثاني للرسول الأعظم ﷺ واسمه: عمرو و لقبه العُلاء، ولد مع عبد شمس توأماً له، وله أخوان آخران هما: المطلب ونوفل.

ومن الأُمور المميزة لأبنـاء عبد مناف، إنّهم تُوفُّوا في مناطـق مختلفة، فهاشم تُوفّي في غزّة، وعبد شمس في مكّة، ونَوفَل في العراق،والمطلب في اليمن.

كان يدعو الناس إلى الترحيب بضيوف الله وزوّاره وتكريمهم با لمال والحلال في غرّة كلّ شهر ذي الحجة:«وأسألُكُم بحـرمة هذا البيت ألاّ يُخرج رجلٌ منكم من ماله لكرامـة زوّار بيت الله وتقويتهم إلاّ طيباً لم يؤخـذ ظلماً، ولم يقطع فيه رحم، ولم يؤخذ غصباً».[1]

ومن أهمّ آثاره: أنّ زعامته لمكّة كانت لمنفعة أهلها وتحسين أوضاعهم، فقد ساهم كرمُه في عدم انتشار القحـط والجدب، كما أنّه حسّن من الحالة الاقتصادية في البلاد عندما عقد معاهدة مع أمير الغسـاسنة، ممّا دفع أخاه عبد شمس إلى أن يعاهـد أمير الحبشة، وأخـويه نوفـل والمطلب أيضاً أن يعقـدا معاهـدات مع أمير اليمـن وملـك فارس، وذلـك لتجنـب الأخطـار وتـأمين الطرق و سير القـوافـل التجارية. وقد عُرِفَ عنه أنّه المؤسس لرِحلتي الشتاء والصيف إلى الشام واليمن.

إلاّ أنّ كلّ تلك الإسهامـات من جانب هاشم، كـانت دافعاً إلى أن يحسده أُميّة بـن عبد شمس ابن أخيـه، وذلك لما حظي بـه من مكانة وعظمـة وتقرّب إلى قلوب النـاس، الأمر الـذي أجبرهم على الحضـور عند كـاهن مـن كهنة العـرب، فقضى لهاشـم بالغلبـة، فأخـذ منه الإبـل وأخرج أُميـة إلى الشام نـافياً لمدّة عشرة سنين، حسب الشروط التـي تمت بينهما.وتبيّن هذه القصة جذورَ العـداء بين بني هاشـم وبني أُميّـة من نـاحية، وعـلاقات الأمـويين بالشـام وارتباطهـم بها حين اتخذوها عاصمة لدولتهم بعد ذلك من ناحية أُخرى.

ومن أشهر أولاده : شيبة، الذي عُرِفَ بـ«عبد المطلب» لأنّه تربى وترعرَعَ في

١. السيرة الحلبية :١/ ٦.

حجر عمّه المطلب، حيث كان العرب يسمّون من تَرعرَعَ في حجر أحد، وينشأ تحت رعايته، عبداً لذلك الشخص.

٥. عبد المطلب: وهو الجدّ الأوّل للنبي العظيم ﷺ ورئيس قريش وزعيمها. وأودعت يدُ المشيئة الربانية بين حنايا شخصيته نورَ النبي الأكرم ﷺ ولذا كان إنساناً طاهر السلوك، نقيّ الجيب، منزّهاً عن أيّ نوع من أنواع الانحطاط والفساد، وأحد المعدودين الذين كانوا يؤمنون بالله واليوم الآخر.

وقد اشتهر موقفه الإيماني في عام الفيل، حينما أمر جماعته بالخروج من مكة إلى الجبال والشعاب، ونزل إلى الكعبة يدعو الله ويستنصره على أبرهة وجنوده مناجياً: «اللّهمّ أنت أنيسُ المستوحشين، ولا وحشة معك، فالبيت بيتُك والحرمُ حرمُك والدار دارُك، ونحن جيرانُك، تمنع عنه ما تشاء، وربّ الدار أولى بالدار».

وفي الصباح خرجت أسرابٌ من الطيور من جهة البحر يحمل كل واحد منها ثلاثة أحجار، حجر في منقاره، وحجر في كلّ من رجليه وحلّقت فوق رؤوس الجند، ورجمتهم بالأحجار بأمر من الله محطمة رؤوسهم وممزقة لحومهم، وقد أصاب حجر منها رأس أبرهة القائد، فأمر جنوده بالتراجع والعودة إلى اليمن، إلاّ أنّهم أُهلكوا في الطريق، حتى أبرهة نفسه مات قبل وصوله صنعاء.[1]

وقد نتج من هذه العملية، أن تحطّم جيش أبرهة، وانهزم أعداء قريش، وعظم شأن المكيّين، وشأن الكعبة المشرفة في نظر العرب وغيرهم، فلم يجرأ أحد بعد ذلك على غزو مكة، أو الإغارة على قريش، أو التطاول على الكعبة. كما أنّها من جانب آخر، أحدثت في نفوس القرشيين حالات جديدة خاصة، فقد زادت من غرورهم وعنجهيتهم واعتزازهم بعنصرهم، فقرروا تحديد شؤون الآخرين

١. السيرة الحلبية: ١/ ٤٣؛ الكامل في التاريخ: ١/ ٢٦٠؛ بحار الأنوار: ٥/ ١٣٠.

والتقليل من وزنهم، على أساس أنّهم فقط الطبقة الممتازة من العرب. كما دفعتهم إلى التصور بأنّهم موضع عناية الأصنام (الـ ٣٦٠) إذ أنّهم فقط الذين تحبهم تلك الأصنام وتحميهم وتدافع عنهم!!

وقد دفعهم كلّ ذلك إلى التمادي في لهوهم ولعبهم، والتوسع في ممارسة الترف واللّذات، وإظهار الولع بشرب الخمر، حتى أنّهم مدّوا موائد الخمر في فناء الكعبة، وأقاموا مجالس أنسهم إلى جانب تلك الأصنام، متصورين أنّ حياتهم الجميلة هذه هي من بركة تلك الأصنام والأوثان!!

كما أنّ هذه الحالة جعلت قريش تقوم بإلغاء أيّ احترام وتقدير للغير فقالوا: إنّ جميع العرب محتاجون إلى معبدنا، فقد رأى العرب عامةً كيف اعتنى بنا آلهة الكعبة خاصةً، وكيف حَمَتنا من الأعداء.

ومن ذلك بدأت قريش تضيّق على كلّ من يدخل مكة للعمرة أو الحجّ، وتعاملهم بخشونة وأسلوب ديكتاتوري، وفرضت عليهم ألا يصطحب أحد منهم طعاماً معه من خارج الحرم ولا يأكل منه، بل عليه أن يقتني من طعام أهل الحرم ويأكل منه، وأن يلبس عند الطواف بالبيت من ثياب أهل مكّة التقليدية القومية، أو يطوف عرياناً بالكعبة إذا لم يكن في مقدوره شراؤها. و من رفض الخضوع للأمر من رؤساء القبائل وزعمائها، كان عليه أن ينزع ثيابه بعد الانتهاء من الطواف ويلقيها جانباً، دون أن يكون لأحد الحقّ في مسّها حتى صاحبها.[1]

أمّا النساء فكان عليهن إذا أردن الطواف أن يطفُنَ عراة، ويضعن خرقة على رؤوسهن. كما أنّه لم يكن يحق لأي يهوديّ أو مسيحيّ أن يدخل مكة، إلاّ أن يكون أجيراً لمكيّ، وعليه ألاّ يتحدث في شيء من أمر دينه وكتابه.

١. كانت تسمّى عندهم «اللقى».

بالإضافة إلى ذلك، فإنّهم أنفوا منذ ذلك اليوم أن يأتوا بمناسك عرفة، كما يفعل بقية الناس، حيث تركوا الوقوف بها والإفاضة منها، بالرغم من أنّ آباءهم - من ولد إسماعيل - كانوا يقرّون أنّها من المشاعر والحج.[١]

إنّ كلّ ذلك الانفلات الأخلاقي والترف والانحراف، قد هيّأ الأرضية وأعدها لظهور مصلح عالميّ.

أمّا بالنسبة لابن عبد المطلب، عبد الله، فقد سعى إلى أن يزوّجه، فاختار له: «آمنة بنت وهب بن عبد مناف» التي عُرِفت بالعفّة والطهر والنجابة والكمال. كما اختار لنفسه «دلالة» ابنة عم آمنة، فرزق منها حمزة، عمّ الرسول ﷺ الذي كان في نفس عمر النبي ﷺ[٢] و قد تمّ حفل الزفاف في منزل السيدة آمنة طبقاً لما كان عليه المتعارف في قريش، ثمّ بقي «عبدالله» مع زوجته ردحاً من الزمن حتى سافر في تجارة إلى الشام، وتوفّي في أثناء الطريق.

ويرتبط بموضوع أسلاف النبي ﷺ، طهارته ﷺ من دَنَس الآباء وعهر الأُمّهات، إذ لم يكن في أجداده وجدّاته، سفاح وزنا، وهو ما اتّفق عليه المسلمون، وصرّح به الرسول ﷺ في أحاديث رواها السنة والشيعة. فقد جاء عنه ﷺ إنّه قال: «نُقلتُ من الأصلاب الطاهرة إلى الأرحام الطاهرة نكاحاً لا سِفاحاً».[٣]

وقال الإمام علي عليه السلام: «وأشهد أنّ محمّداً عبده ورسوله وسيد عباده كلّما نسخ الله الخلق فِرقتين، جعله في خيرهما، لم يسهِم فيه عاهرٌ ولا ضربَ فيه فاجر».[٤]

---

١. الكامل في التاريخ: ١/ ٢٦٦.

٢. تاريخ الطبري: ٢/ ٧ وهو يذكر أنّه «هاله».

٣. كنز الفوائد: ١/ ١٦٤.

٤. نهج البلاغة، الخطبة ٢١٥، شرح محمد عبده.

كما ذكر الإمام الصادق عليه السلام ذلك مفسراً الآية: ﴿وتقلّبك في الساجدين﴾ : «أي في أصلاب النبيّين، نبي بعد نبي، حتى أخرجه من صلبِ أبيه عن نكاحٍ غير سفاح من لدن آدم».[1]

١. تفسير مجمع البيان.

الفصل الثاني

الرسول الأكرم
محمد بن عبد الله ﷺ

- مولده
- فترة طفولته
- فترة شبابه
- فترة عمله
- زواجه
- أولاده

١ . مولده ﷺ

ولد النبي ﷺ في عام الفيل (٥٧٠م) بإتّفاق كتّاب السيرة، ورحل عن الدنيا في (٦٣٢م) عن ٦٢ أو ٦٣ عاماً، كما اتّفقوا على أنّه ولد في شهر ربيع الأوّل، يوم الجمعة السابع عشر منه، عند الشيعة، أمّا السنّة فقد عيّنوا يوم الإثنين الثاني عشر من الشهر نفسه.[١]

ولمّا كان الشيعة ينقلون أخبار أهل البيت عنهم، فلابدّ من الإقرار بأنّ ما ينقله هؤلاء ويكتبونه من تفاصيل تتعلّق بحياة الرسول ﷺ هي أقرب من غيرها إلى الحقيقة، لأنّها مأخوذة عن أقربائه وأبنائه.

وقد حملت به أُمّه «السيدة آمنة بنت وهب» في أيّام التشريق من شهر رجب، فإذا اعتبرنا يوم ولادته، ١٧ من ربيع الأوّل، فتكون مدّة حملها به ثمانية أشهر وأيّاماً.

وقد وقعت يوم ولادته أحداث عجيبة، فقد وُلِد مختوناً مقطوع السرة، وهو

---

١. إمتاع الأسماع: ص ٣، وقد ذكر جميع الأقوال التي وردت في ميلاد النبي ﷺ.

يقول: «الله أكبر والحمد لله كثيراً، سبحان الله بكرةً وأصيلاً»[١]. كما تساقطت الأصنام في الكعبة على وجوهها، وخرج نورٌ معه أضاء مساحة واسعة من الجزيرة العربية، وانكسر إيوان كسرىٰ، وسقطت أربعة عشر شرفة منه، وانخمدت نار فارس التي كانت تعبد،وجفت بحيرة ساوة.

وهدفت هذه الأحداث الخارقة والعجيبة إلى أمرين مؤثرين:

١. فهي تدفع الجبابرة والوثنيين إلى التفكير فيما هم فيه من أحوال،فيتساءلون عن الأسباب التي دعت إلى كلّ ذلك لعلهم يعقلون. إذ أنّ تلك الأحداث كانت في الواقع تبشر بعصر جديد هو عصر انتهاء الوثنيةوزوال مظاهر السلطة الشيطانية واندحارها.

٢. ومن جهة أُخرى، تبرهن على الشأن العظيم للوليد الجديد، على أنّه ليس عادياً، بل هو كغيره من الأنبياء العظام الذين رافقت ولادتُهم أمثالَ تلك الحوادث العجيبة والوقائع الغريبة.

وفي اليوم السابع لمولده المبارك، عقّ عبد المطلب عنه ﷺ بكبش شكراً لله تعالى، واحتفل به مع عامة قريش.

وقال عن تسميته النبي الكريم ﷺ محمّداً ﷺ وعن سببه: أردت أن يُحمَد في السماء والأرض[٢]. وكانت أُمّه عليها السلام قد سمّته أحمد قبل أن يسمّيه جدّه[٣]. وكان هذا الاسم نادراً بين العرب فلم يسم به منهم سوى ١٦ شخصاً، ولذا فإنّه كان من إحدى العلامات الخاصّة به.

---

١. تاريخ اليعقوبي: ٢/ ٥؛ بحار الأنوار:١٥/ ٢٤٨؛ السيرة الحلبية:١/ ٦٧.

٢. السيرة الحلبية: ١/ ٧٨.

٣. السيرة الحلبية:١/ ٨٢.

أمّا عن رضاعته ﷺ فقد ارتضع من أُمّه ثلاثة أيّام ثمّ أرضعته امرأتان هما:

ـ ثويبة: مولاة أبي لهب، إذ أرضعته لمدّة أربعة أشهر فقط، وقد قدّر النبي ﷺ وزوجته خديجة عليها السلام هذا العمل لها حتى آخر حياتها، فأكرّمها وأراد أن يعتقهافأبى أبو لهب، وكان يبعث إليها بالصلة حتّى وفاتها.

كما أنّها أرضعت من قبل حمزة، وأبا سلمة بن عبد الله المخزومي، فكانوا إخوة في الرضاعة.

ـ حليمة السعدية، بنت أبي ذؤيب. وكان لها من الأولاد: عبد الله ، أنيسة، شيماء. وقامت «شيماء» بحضانة النبي ﷺ أيضاً.

وقد استلمت حليمة السعديةُ النبيّ ﷺ في عمر لم يتجاوز أربعة أشهر، في عام قحط وجدب،فأصابها الرخاء وازدهرت حياتها بعد ذلك. ومن المعروف أنّ النبي ﷺ لم يقبل في ذلك الزمان أي ثدي من المرضعات **إلاّ ثدي حليمة.**[١]

وفي هذه المناسبة، أودُّ القول والتذكير، أنّه ينبغي أن يحتفل المسلمون جميعاً بمولد النبي ﷺ بإقامة المهرجانات الكبرى والاحتفالات، تكريماً له ﷺ، فهو أمر مطلوب ومحبّب في الشريعة المقدسة لقوله تعالى: **﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾**[٢]. وعزّر بمعنى كرّم وبجّل.

فالاحتفال بمولده ﷺ يعني ذكر أخلاقه العظيمة، وسجاياه النبيلة، والإشادة بشرفه وفضله، وهي أُمور مدحه بها القرآن الكريم: **﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾**[٣] **﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾**.[٤]

---

١. البحار:١٥/ ٣٤٢.
٢. الأعراف:١٥٧.
٣. القلم:٤.
٤. الإنشراح:٤.

فالاحتفال بمولـده الكريم هو احتفالٌ بالقيم السـامية، وشكرٌ لله على منّه، وإظهار للحبّ الكـامن في النفوس له،وتكريـم لمن كرمه الله تعالى وأمـر بتكريمه واحترامه وحبّه ومودّته.وهو ردّ على من يزعـم بأنّ ذلك محرم لكونه بدعة، لا يخلو من منكرات ومحرمات كالرقص والغنـاء. فالمسلمون درِجوا في العصور الإسلامية الأُولى على الاحتفال بذكـرى مولده ﷺ بإنشاد القصائد الرائعـة في مدحه، وذكر خصاله ومكـارم أخلاقه وإظهار السرور والفرح،والشكر لله تعـالى بلطفه وتفضّله به ﷺ على البشرية.[1]

ولذا كـان لابدّ من أداء هـذا الاحتفال في كلّ وقـت وزمان،في حياتـه وبعد مماته ﷺ.

٢. فترة طفولته ﷺ

استقر النبي ﷺ في قبيلة«بنـي سعد» خمسة أعـوام زارته أُمّه خـلالها ثلاث مرّات، وقامت حليمة برعاية شؤونـه خير قيام،وبالغت في كفالته والعناية به، كما حافظ فيها ﷺ على فصاحته و بـلاغته، وعندما رجـع إلى أُمّه عليها السلام فكّرت بـزيارة المدينة وقبر زوجهـا عبدالله، ورافقتهم «أُمّ أيمـن» حيث أمضوا هنـاك شهراً، رأى فيه النبيّ ﷺ بيت أبيـه الذي توفّي فيـه ودفن. إلاّ أنّ أُمّه العـزيزة توفّيـت أيضاً في الطريق إلى مكة بمنطقة الأبواء[2] ممّا دفع الجميـع إلى إظهار المحبة له والعنـاية به، خاصةً جدّه «عبد المطلب» الذي أحبه أكثر من أولاده.

---

٤. للتوسع في هذا الموضوع، يرجع إلى: معالم التوحيد في القرآن الكريم.

٢. السيرة الحلبية: ١/ ١٠٥.

وربما كان يُتم النبي ﷺ في صالحه، فقد أراد الله تعالى منه أن يهيّئه لمواجهة المستقبل بشدائده و مصاعبه ومتاعبه،أو أراد ألا يكون في عنقه طاعة لأحد، فنشأ حراً من كلّ قيد، يصنع نفسه بنفسه، وليتضح أنّ نبوغه ليس نبوغاً بشرياً عادياً ومألوفاً، وأنّه لم يكن لوالديه أيّ دخل فيه وفي مصيره، فتكون بالتالي عظمته الباهرة نابعة من مصدر الوحي وليس من العوامل العادية المتعارفة.

وقد فاجأت الحياةُ نفس النبي ﷺ الحزينة بوفاة جدّه العظيم«عبد المطلب» وهو في الثامنةمن عمره، فبكى عليه ﷺ كثيراً وظلّت دموعه تجري حتى وُري في لحده.[1]

كفالة أبي طالب

كان أبو طالب أخاً لوالد النبي ﷺ من أُمّ واحدة، وقد تقبّل كفالة النبي ﷺ وتحمّل المسؤولية بفخر واعتزاز.

وفي العاشرة من عمره، شارك النبيّ ﷺ عمّه في إحدى الحروب التي وقعت في الأشهر الحرم فسمّيت بحرب الفجار، إلاّ أنّ «اليعقوبي» ينفي في تاريخه اشتراك النبي ﷺ وأبي طالب فيها.[2]

ورافق عمّه في سفره إلى الشام وهو في ربيعه الثاني عشر، شاهد فيها «مدين، ووادي القرى، وديار ثمود»، واطّلع على مشاهد الشام وطبيعتها الجميلة. إلاّ أنّ

---

١. تاريخ اليعقوبي :٢/ ١٠ حول سيرة عبد المطلب، أنّه كان موحداً لا وثنياً، وإنّ الإسلام قد أخذ الكثير من سننه.

٢. تاريخ اليعقوبي:٢/ ١٥.

أحداث «بصرى» غيّرت برنامج رحلة أبي طالب، ودفعته إلى العودة إلى مكّة، وهي الأحداث المرتبطة بمقابلة الراهب«بحيرا» بالنبي ﷺ وما تنبّأ عنه بقوله: «إنّه كائن لابن أخيك هذا شأن عظيم، نجده في كتبنا وما روينا عن آبائنا، هذا سيّد العالمين، هذا رسول ربّ العالمين يبعثه رحمةً للعالمين. احذر عليه اليهود لئن رأوه وعرفوا ما أعرف ليقصدُنّ قتله».[1]

أمّا ما قيل عن تلك المقابلة من آراء متطرفة، وبأنّ الراهب بحيرا علّم النبي ﷺ أُمور دينه التي درسها من كتب الإنجيل والتوراة، فهو فرية المستشرقين والكارهين للإسلام، إذ أنّ النبي ﷺ لم يمكث هناك أكثر من أربعة أشهر هي فترة رحلة الشام عند العرب، ثمّ إذا كان هذا الراهب يمتلك هذه الكمية من المعلومات الدينية والعلمية التي عرضها الرسول ﷺ فلماذا لم يقم هو بنشرها، فيأخذ شهرته منها؟ ثمّ لماذا اختار محمّداً ﷺ دون غيره ليعرض عليه تلك المعلومات بالرغم من توافد القبائل عليه دوماً؟

إنّ الآيات القرآنية تصرح بأنّ الأخبار الغيبية وصلت إلى النبي ﷺ عن طريق الوحي فقط، فلم يكن على عِلمٍ بها مطلقاً. كما أنّ كُتب التوراة والإنجيل لا تذكر أُموراً طيّبة عن الأنبياء، في حين أنّ القرآن الكريم يجلّهم ويعظمهم ويكرمهم،على عكس ما جاء عنهم في كتب هؤلاء.

ولذا لم يعقل أن يقتبس القرآن الكريم من تلك الكتب وبينهما بُعد المشرقين. كما أنّ النبي ﷺ لم يشرح تلك القصص والقضايا للناس قبل الوحي والرسالة: ﴿قُلْ لَوْ شاءَ اللهُ ما تَلَوتُهُ عَلَيْكُمْ ولاٰ أَدراكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثتُ فِيكُمْ عُمُراً مِنْ

---

١. تاريخ الطبري:٢/ ٣٢؛ السيرة الحلبية: ١/ ١٨٠.

قَبْلِهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾.[١]

فالآية تؤكد على أنّ النبيّ ﷺ لبث في قومه فترة طويلة لم يتلو فيها سورة من القرآن ولا آية من آياته، فكلّ ما أخبر به هو ممّا أوحى به الله تعالى إليه بعد أن بعثه بالرسالة.[٢]

٣. فترة شبابه

كانت آثار الشجاعة والقوة باديةً على جبينه ﷺ منذ طفولته وصباه، ففي الخامسة عشرة من عمره قيل انّه شارك في حرب الفجّار بين قريش و هوازن، وهي حرب الفجّار الرابعة التي استمرّت أربع سنوات، كان يناول فيها أعمامه النبال. وتكشف مشاركته في تلك العمليات العسكرية وهو في تلك السن، عن شجاعته وقدرته الروحية الكبرى، ولهذا كان المسلمون ـ فيما بعد ـ يحتمون بالنبي ﷺ عند اشتداد المعركة.

وفي مقابل هذا روى المؤرخ اليعقوبي (المتوفّى ٢٩٠هـ) في تاريخه:

وقد روي أنّ أبا طالب منع أن يكون فيها أحدٌ من بني هاشم. وقال هذا ظلم وعدوان وقطيعة واستحلال للشهر الحرام ولا أحضره ولا أحدٌ من أهلي. فأخرج الزبير بن عبد المطلب متكرهاً وقال عبد الله بن جدعان التيمي وحرب ابن أُميّة: لا نحضر أمراً تغيب عنه بنوهاشم فخرج الزبير.[٣]

---

١. يونس:١٦.

٢. للتوسع في الموضوع، راجع مفاهيم القرآن للشيخ جعفر السبحاني:٣/ ٣٢١.

٣. تاريخ اليعقوبي:٢/ ١٢، طبع النجف.

كما أنّ النبي ﷺ كان أحد المشاركين في حلف الفضول، الذي اعتبر ميثاقاً بين الجرهميين يهدف إلى الدفاع عن حقوق الضعفاء والمظلومين. وقد أسّسه جماعة اشتُقّت أسماؤهم جميعاً من لفظة «الفضل»، مثل: فضل بن فضالة، وفضل بن الحارث، وفضل بن وداعة. وقد نُقلت عبارات كثيرة عن النبي ﷺ أشاد فيها بالحِلف، واعتز بمشاركته فيه: «لقد شهدتُ في دار عبد الله بن جدعان حِلفاً لو دعيت به في الإسلام لأجبت».

كما أشاد به الإمام الحسين عليه السلام أيضاً، فضرب به المثل في أخذ الحقّ وردّه لصاحبه، مثلما طلب هو حقّه من «الوليد بن عتبة» أمير المدينة.

٤. فترة عمله

أمضى الرسول ﷺ شطراً من حياته قبل البعثة، في رعي الغنم في الصحارى، لعلّه ليصبح بذلك صبوراً في تربية الناس الذين سيُكلف بقيادتهم وهدايتهم، ويستسهل كلّ صعب في هذا المجال. إذ كان لابدّ أن يتسلّح بسلاح الصبر، ويتجهّز بأداة التحمّل، ويتزوّد بقدرة الاستقامة على طريق الهدف، وذلك حتى يمكنه إدارة البشر في المستقبل. إذ أنّ ذلك لا يكون إلّا بتعويد النفس على هذه الصفات وحملها على مشاق الإعمال. كما أنّ عمله في الصحراء والجبال، ساعده في التخلّص بعض الشيء من آلامه الروحية الناشئة من رؤية الأوضاع المزرية والأحوال المشينة التي كان عليها أهل مكة وما كانوا فيه من عادات سيئة وظلم وانحراف وطغيان. كما أنّ عمله في تلك البقاع، أعطاه فرصة طيبةللنظر في خلق السموات والتطلع في النجوم والكواكب وأحوالها، ثمّ الإمعان في الآيات

الدالة على وجود الله سبحانه و تعالى، وقدرته و حكمته وعلمه و إرادته.

فبالرغم من أنّ قلوب الأنبياء تكون منورة بمصابيح المعرفة، ومضاءة بأنوار الإيمان والتوحيد، إلاّ أنّهم لا يرون أنفسهم في غنى عن النظر في عالم الخلق والتفكّر في الآيات الإلهية، إذ أنّه من خلال هذا الطريق يصلون إلى أعلى مراتب الإيمان،ويبلغون أسمى درجات اليقين،وبالتالي يتمكّنون من الوقوف على ملكوت السماوات والأرضين.

وبعد هذا العمل الصحراويّ الجبلي، تعاطى ﷺ العمل التجاري، باقتراح من عمّه أبي طالب، الذي أرشده بالتوجه للعمل في تجارة السيدة «خديجة بنت خويلد» التي كانت تعمل بالتجارة الواسعة، فأصبحت غنيةً ذات مال كثير وذات شرف عظيم، استخدمت الرجال في إدارة أعمالها الكثيرة. فقال أبو طالب للنبي ﷺ: «يابن أخي، هذه خديجة بنت خويلد قد انتفع بمالها أكثر الناس، وهي تبحث عن رجل أمين،فلو جئتها فعرضتَ نفسك عليها لأسرعتْ إليك،وفضّلتك على غيرك، لما يبلغها عنك من طهارتك».

إلاّ أنّ إباء الرسول ﷺ وعلوّ طبعه منعاه من الإقدام بنفسه على ذلك فردَّ عليه :«فلعلّها أن ترسل إليّ في ذلك» لأنّها تعرف أنّه المعروف بالأمين بين الناس. وقد حدث ماأراده النبي ﷺ فقد بعثت إليه قائلةً:«إنّي دعاني إلى البعثة إليك ما بلغني من صدق حديثك وعظم أمانتك وكرم أخلاقك،وأنا أعطيك ضعف ما أعطي رجلاً من قومك، وأبعث معك غلامين يأتمران بأمرك في السفر».[1]

ولمّا علم عمّه أبو طالب بذلك قال له: «إنّ هذا رزق ساقه الله إليك».

---

١. البحار:١٦/ ٢٢؛السيرة الحلبية: ١/ ١٣٢؛ الكامل في التاريخ:٢/ ٢٤.

وهكذا تمّ الاتفاق على أن يقوم النبي ﷺ بالعمل في أموالها وتجارتها على نحو المضاربة لا الإجارة، فقد ذكر «اليعقوبي»: إنّ النبي ﷺ ما كان أجيراً لأحد قط.[١]

ولذا فإنّ النبي ﷺ حصل على أرباح وفيرَة من أوّل تجارته إلى الشام. ولما مرّ في الطريق على ديار عاد وثمود، تذكر سفره الأوّل مع عمّه إلى تلك المناطق. وعند وصولهم إلى مكّة، قال «ميسرة» غلام السيدة خديجة: يا محمّد لقد ربحنا في هذه السفرة ببركتك ما لم نربح في أربعين سنة، فاستقبلْ بخديجة وأبشرها بربحنا. فأسرع النبي ﷺ وسبق القافلة متوجهاً نحو بيت خديجة، التي استقبلته بحفاوة كبيرة، وسرّت بحديثه وأخباره عن رحلته ومكاسبه التجارية. ثمّ إنّ «ميسرة» أخبرها بكلّ ما حدث وحصل لهم في السفر، منذ خروجهم ودخولهم إلى البلاد، وخاصةً ما جرى، بين النبي ﷺ وأحد التجّار الذي جادله في البيع طالباً منه أن يحلف باللات والعزّى، فرد عليه ﷺ: ماحلفت بهما قط، وإنّي لأمرُّ فأعرض عنهما. كما أخبرها عن النبي ﷺ حينما استراح في ظلّ شجرة عندما كانوا في بصرى، فشاهده راهب فقال: ما نزل تحت هذه الشجرة قط إلاّ نبي. ولما سأل عن اسمه من ميسرة فقال: هو نبيّ وهو آخر الأنبياء، إنّه هو هو ومنزِّلُ الإنجيل، وقد قرأتُ عنهُ بشائر كثيرة.[٢]

وقد سلّم النبي ﷺ كلّ ما ربحه واستلمه من مال إلى عمّه أبي طالب، ليوسّع به على أهله، ممّا جعله فرِحاً مسروراً بما قام به ابن أخيه تجاهه.

---

١. تاريخ اليعقوبي: ٢/ ٢١.

٢. البحار: ١٦/ ١٨؛ طبقات ابن سعد: ١/ ١٣٠.

٥. زواجه ﷺ

في هذا الوقت، فكّر ﷺ جدياً في أن يتّخذ شريكة لحياته ويكوّن أُسرة، فكيف وقع اختياره على السيدة خديجة التي رفضت كلّ مَن تقدّم إليها من كبار الشخصيات القرشية، أمثال: عقبة بن أبي معيط، وأبي جهل، وأبي سفيان؟ وكيف أدّى الارتباط بينهما والعلاقة العميقة و الأُلفة والمحبة، إلى درجة أنّها وهبت كلّ ثروتها للنبي ﷺ حتى ينفقها في نشر الإسلام؟

كانت السيدة خديجة من خيرة نساء قريش شرفاً وأقواهن عقلاً وأكثرهن فهماً، وقد قيل لها: سيدة قريش، وسمّيت الطاهرة لشدة عفافها، وذلك في أيّام الجاهلية.

وحين رفضت الزواج من سادة القوم قَبِلت بسيد البشر لما عرفت عنه من كرم الأخلاق، وشرف النفس، والسجايا الكريمة، والصفات العالية. وهي المرأة الثرية التي و إن عاشت في الترف وأفضل العيش، إلاّ أنّها أصبحت في بيت زوجها الرسول ﷺ الزوجة المطيعة الخاضعة الوفية المخلصة، و سارعت إلى قبول دعوته واعتناق دينه بوعي وبصيرةٍ، مع علمها بما ينطوي ذلك على مخاطر ومتاعب. ثمّ جعلت كلَّ ثروتها ومالها في خدمة العقيدة والمبدأ، مشاطرة زوجها بذلك آلامَه ومتاعبَه ، وراضية بمرارة الحصار في شعب أبي طالب ثلاث سنوات، وهي في سن الرابعة والستين.[١]

وقد بلغ من خضوعها للرسول ﷺ وحبها له، أنّها بعد أن تم الزواج بينهما قالت له: إلى بيتك، فبيتي بيتك وأنا جاريتك.[٢]

---

١. شرح نهج البلاغة: ١٤/ ٥٩.
٢. بحارالأنوار: ١٦/ ٤.

ويؤكد المؤرّخون أنّها هي التي اقترحت على النبي ﷺ الزواج، وكما يعتقد أكثر المؤرّخين، أنّ «نفيسة بنت عليّة» بلّغت رسالتها إلى النبي ﷺ الذي تقبّل عرضها، فأخبرت السيدة خديجة بذلك، فأرسلت بوكيلها «عمرو بن أسد» لتحديد ساعة مراسم الخطبة في محضر الأقارب.[١]

فشاور النبي ﷺ أعمامه وعلى رأسهم «أبو طالب» الذي خطب في القوم يمدح النبي ﷺ ويطلب الزواج له من السيدة خديجة قائلاً: «وله في خديجة رغبة ولها فيه رغبة، والصداق ما سألتم عاجله وآجله من مالي، ومحمّد من قد عرفتم قرابتَه».

ثمّ أجرى عقد النكاح، ومهرها النبي ﷺ ٤٠٠ دينار، وقيل أصدقها عشرين بكرة.[٢]

وكان عمرها في هذا الوقت أربعين عاماً، إذ أنّها وُلدت قبل عام الفيل بخمسة عشر عاماً، كما جاء عنها أنّها تزوجت قبل النبي ﷺ برجلين، أوّلهما: «عتيق ابن عائذ»، ثمّ بعده: «أبو هالة التميمي». وقد توفي كلٌّ منهما بعد زواجه منها.[٣]

وقد تميّزت السيدة خديجة من نساء النبي ﷺ بأنّه لم يتزوّج عليها مدّة حياتها، وبلغت لديه مالم تبلغه امرأة قطّ من زوجاته.[٤] وممّا يدل على سموّ مقامها وعلوّ منزلتها، أنّ أهل البيت عليهم السلام طالما افتخروا بأنّ خديجة منهم، وإنّهم من خديجة، فكانوا يعتزون بها ويشيدون بمكانتها. فالسيدة خديجة عليها السلام هي مثال الشرف والعقل، والحبّ العميق للرسول ﷺ والوفاء والإخلاص، والتضحية بالغالي

---

١. تاريخ الخميس: ١/ ٢٦٤.
٢. السيرة الحلبية: ١/ ١٣٩.
٣. الاستغاثة: ١/ ٧٠.
٤. السيرة الحلبيّة: ١/ ١٦٩.

والنفيس في سبيل الإسلام الحنيف، فهي أوّل من آمنت بالله ورسوله،وصدقت محمّداً ﷺ وآزرته، فكان ﷺ لا يسمع من المشركين شيئاً يكرهه، من إيذاء وتكذيب، إلاّ وفرّج الله عنه بخديجة التي خفّفت عنه، بلطفها وعطفها وعنايتها به في غاية الإخلاص والود.[1]

لقد اكتسبت السيدة خديجة بفضل إيمانها العميق بالرسالة المحمّدية، وتفانيها في سبيل الإسلام، وحرصها العجيب على حياة صاحب الرسالة، مكانةً سامية في الإسلام، حتى أنّ النبي ﷺ ذَكَرَها في أحاديثه الكثيرة، وأشاد بفضلها ومكانتها وشرفها، وذلك لإلفات نظر المرأة المسلمة إلى القدوة التي ينبغي أن تقتدي بها في حياتها وسلوكها في جميع المجالات والحالات، بالإضافة إلى ما يمكن أن تقدمه المرأة ــ و هي نصف المجتمع ـ من دعم جدّيّ للرسالة، مادياً كان أم معنوياً.

ومن أشهر الأحاديث التي نُقلت عن النبي ﷺ أنّه قال عنها:«أتاني جبرائيل عليه السلام فقال يا رسول الله، إذا أتتك خديجة فاقرأ عليها السلام من ربها ومنّي، وبشّرها ببيت في الجنّة من قصب لا صخب فيه ولا نصب».[2]

وقال عنها ﷺ: «لا والله ما أبدلني الله خيراً منها، آمنَت بي إذ كفر الناس، وصدّقتني إذ كذبني الناس، وواسَتْني في مالها إذ حَرمني الناس، ورزقني الله منها أولاداً إذ حرَمَني أولاد النساء».[3]

كما روى أنس بن مالك، أنّ النبي ﷺ إذا أتى بهدية قال:« اذهبوا بها إلى

---

١. أعلام النساء:١/ ٣٢٨.

٢. صحيح مسلم:٧/ ١٣٣؛ مستدرك الحاكم:٣/ ١٨٤.

٣. أُسد الغابة:٥/ ٤٣٨؛ صحيح مسلم:٧/ ١٣٤؛ صحيح البخاري: ٥/ ٣٩.

بيت فلانة فإنّها كانت صديقة لخديجة، إنّها كانت تحبّ خديجة».[١]

كما قال عنها الإمام علي عليه السلام: «كنتُ أوّل من أسلم، فمكثنا بذلك ثلاث حِجَج وما على الأرض خلق يصلّي ويشهد لرسول الله صلى الله عليه وآله بما أتاه، غيري، وغير ابنة خويلد رحمها الله، وقد فَعَلَ».[٢]

وقد تحدّث عنها أيضاً الكثير من الشخصيات الإسلامية المتقدمة والمتأخرة، فقد ذكر عنها «محمد بن إسحاق»: «إنّ خديجة بنت خويلد وأبا طالب، ماتا في عام واحد، فتتابع على رسول الله صلى الله عليه وآله هلاك خديجة وأبي طالب، وكانت خديجة وزيرة صدق على الإسلام، وكان رسول الله يسكُن إليها».[٣]

ولكلّ ذلك، فإنّ وفاتها كانت من أعظم المصائب التي أحزنت الرسول صلى الله عليه وآله ممّا دفعه أن يسمّي العام الذي توفّي فيه ناصراه وحامياه ورفيقا آلامه ــ: زوجته خديجة، وعمّه المؤمن الصامد أبو طالب ـ بعام الحداد أو عام الحزن. فينزل عند دفنها في حفرتها، ويُدخلُها القبر بيده في الحجون، فيلزم بيته و يقل الخروج.[٤]

٦. أولاد الرسول صلى الله عليه وآله

لقد أنجبت خديجة لرسول الله صلى الله عليه وآله ستة من الأولاد، اثنين من الذكور، أكبرهما القاسم وعبدالله، وأربعة من الإناث. وذكر ابن هاشم، انّ أكبر بناته: رقية ثمّ زينب ثمّ أُم كلثوم، ثمّ فاطمة، وكلّهن أدركنَ الإسلام، أمّا الذكور فقد ماتوا

١. سفينة البحار: ١/ ٣٨٠.
٢. شرح نهج البلاغة: ١٤/ ٥٩.
٣. بحارالأنوار: ١٦/ ١٠.
٤. تاريخ اليعقوبي: ٢/ ٣٥؛ تاريخ الخميس: ١/ ٣٠١؛ السيرة الحلبية: ١/ ٣٤٦.

قبل البعثة.

تبنّي النبي ﷺ لزيد بن حارثة

كان ممّن سباه العرب من حدود الشام وباعوه في أسواق مكة رقيقاً لأحد أقرباء السيدة خديجة ويدعى حكيم بن حزام. وقد أحبه النبي ﷺ لذكائه وطهره، فوهبته خديجة له، حينما تزوّجت به ﷺ إلاّ أنّ أباه حارثة الذي كان يبحث عنه لقيه عند النبي ﷺ فطلبه منه، الأمر الذي جعل النبي ﷺ يخيّره بين المقام معه ﷺ والرحيل إلى وطنه، فاختار المقام مع الرسول ﷺ الذي أخرجه إلى الحجر الأسود وأعتقه ثمّ تبناه أمام الملأ قائلاً: «يامن حضر اشهدوا أنّ زيداً ابني».[1]

---

١. الإصابة في تمييز الصحابة: ١/ ٥٤٥؛ الكامل في التاريخ: ٢/ ٢٢٥.

الفصل الثالث

البعثة النبوية

- الحالة الدينية في الجزيرة العربية عند البعثة النبوية
- إيمان النبي ﷺ وآباؤه وكفلاؤه قبل الإسلام
- الوحي
- المؤمنون بالنبي ﷺ والدين الإسلامي
- دعوة الأقربين
- الدعوة العامة
- الأساليب الفاشلة أمام نجاح الدعوة الجديدة

١ .الحالة الدينية في الجزيرة العربية

إلى جانب عبادة الأصنام والأوثان، ظهرت جماعة من العرب، أنكروا عقائدها الباطلة، واستاءوا من دينها، كما كان اليهود يتوعّدون أهل الأصنام بالنبي قائلين: ليخرجن نبي فليكسّرن أصنامكم. وجاء أيضاً أنّ الأحبار من اليهود والرهبان من النصارى والكهّان من العرب، قد تحدّثوا بأمر رسول الله ﷺ قبل مبعثه. وظهر كذلك من انتقد عبادتهم من فئة العقلاء وأصحاب الفكر الثاقب، فكان ذلك بمثابة جرس إنذار باقتراب سقوط دولة الوثنيّين وانقراضها واشتهر من هؤلاء بين العرب أربعة:

١ . ورقةبن نوفل، الذي اختار النصرانية.

٢ .عبيد الله بن جحش، الذي أسلم عند ظهور الإسلام.

٣.عثمان بن الحويرث، الذي تنصّر عند ملك الروم.

٤ .زيد بن عمرو بن نفيل، الذي قال: أعبد رب إبراهيم.[١]

---

١ . السيرة النبوية:١/ ٢٢٥.

٢. مكانةالنبي ﷺ عند قريش

حينما كان ﷺ في عمر ٣٥ عاماً واجه اختلافاً كبيراً بين قريش، تمكن بحكمته من إزالة ذلك التخاصم،ممّا كشف عن مدى الاحترام الذي حظا به عند قريش. فعندما هُدمت الكعبة بسبب سيل عظيم، قام القوم بإعادة بنائها، إلاّ أنّهم اختلفوا في وضع الحجر الأسود في مكانه، فتنازع زعماء قريش فيمن يتولى وضعه،ممّا أخّر عملية البناء مدة خمسة أيّام، وكادت أن تنشب فيما بينهم بسببه حرب دامية، وربما طويلة،حتى قام فيهم شيخ منهم وقال:يامعشر قريش اجعلوا بينكم فيما تختلفون فيه أوّل من يدخُل من باب هذا المسجد يقضي بينكم فيه. فقَبِلُوا رأيه فكان أوّلَ داخل عليهم محمّد رسول الله ﷺ فقالوا: هذا محمّد الأمين، رضينا، هذا محمّد. فقال ﷺ: هلمَّ إليَّ ثوباً فأخذ الحجر ووضعه فيه و قال: لتأخذ كلّ قبيلة بناحية من الثوب ثمّ ارفعوه جميعاً. ثمّ وضعه ﷺ بيده في مكانه.[1]

٣. إيمان النبي ﷺ و آبائه وكفلائه قبل الإسلام

تدلّ الدلائل التاريخية والعقلية والمنطقية، على أنّ النبي الأكرم ﷺ لم يعبد غيرَ الله منذُ ولد حتى رحل إلى ربّه، وكذلك ما كان عليه آباؤه وكفلاؤه.

فجدّه عبدالمطلب، طلب من الله وهو في الكعبة أن يرد هجوم أبرهة ويهزم جيشه، فقد كان الموحّد الذي لا يلتجئ في المصائب والمكاره إلى غير كهف الله. كما أنّه كان يستسقي بالتوسّل إلى الله تعالى. وقد اعترف المؤرّخون بذلك، فقد ذكر

١. السيرة النبوية:١/ ١٩٢؛ فروع الكافي:٤/ ٢١٧.

اليعقوبي: «ورفض عبد المطلب عبادة الأوثان والأصنام، ووحّد الله عزّ وجلّ، ووفى بالنذر، وسنّ سنناً نزل القرآن بأكثرها، وجاءت السنّة الشريفة من رسول الله ﷺ بها،وهي الوفاء بالنذر، ومائة من الإبل في الدية، وألا تنكح ذاتُ محرم، ولا تؤتى البيوت من ظهورها، وقطع يد السارق،والنهي عن قتل المؤودة، وتحريم الخمر، وتحريم الزنا والحدّ عليه، والقرعة، وألاّ يطوف أحد بالبيت عرياناً،وتكريم الضيف،وألا ينفقوا إذا حجّوا إلاّ من طيب أموالهم،وتعظيم الأشهر الحرم، ونفي ذات الرايات».[1]

كل ذلك يؤكد تماماً توحيده و إيمانه بالله واعترافه برسالة النبي ﷺ.

وكذلك كان عمّه أبو طالب، فله مواقف كثيرة بارزة قبل البعثة، تكشف عن عمق إيمانه وتوحيده، فقد اعتبر حامي الدين والمدافع عن المسلمين، آمن بالنبي ﷺ واعتبره في قمة الكمال الإنساني، بالإضافة إلى أنّه أحلّه من قلبه محلَ الابن والأخ، فكان يصحبه معه إلى المصلّى، ويستسقي به، حيث كانت دعوته تُستجاب دون تأخير، كما اصطحبه معه في سفره إلى الشام، كما أنّ دفاعه عن النبي ﷺ لم يكن مادياً، فلم يقصد من وراء ذلك كسباً مادياً من مال وثروة، كما لم يهدف للحصول على جاه ومقام و إحراز مكانة اجتماعية مرموقة، لأنّه كان يمتلك في المجتمع أعلى المناصب، فقد كان رئيساً لمكّة المكرّمة، بل إنّه فقد منصبه ومكانته بسبب موقفه الموالي للنبي ﷺ وعدم الاستجابة لقومه في تسليمه ﷺ لهم، ممّا استوجب سخط الزعماء عليه واستياءهم منه، و إظهار العداء له ولبني هاشم عامة.

---

١. تاريخ اليعقوبي:٢/ ٩.

فالقول بـأنّ تضحية أبي طالب في سبيـل النبي ﷺ بالنفس والنفيس كان بدافـع علاقـة القربى والعصبيـة القبلية، تصـوّر باطل، إذ أنّ ذلـك كان بـدافع اعتقاده الراسخ برسول الله ﷺ الذي اعتبره مظهراً كاملاً للفضيلة والإنسانية، وأنّ دينه أفضل بـرنامج للسعادة. ولما كان يحب الحقيقة والكمال والحقّ، فقـد كان من الطبيعي أن يدافع عن تلك الفضائل وينصرها بكلّ جهوده وقواه.[1]

كما أنّ هناك مواقف محددة تؤكد المعنى السابق:

فقد أصدر تهديداً بمحاربة رجال قريش بالسلاح، إذا أقدموا على أي سوء نحو النبي ﷺ فقد حافظ على حياته ﷺ لفترة ٤٢ عاماً، ودافع عنـه، وخاصةً في سنوات البعثة العشرة، فهو قد تولى مهمة كفالته والدفاع عنه والمحافظة على حياته بصدق وإخلاص، بـالنفس والمال، وإيثاره على نفسه وأولاده والإنفـاق عليه من ماله، منذ صِغَره ﷺ وحتى الخمسين مـن عمره. ولـذا كان لفقـده أكبرُ الأثر على سير الدعوة الإسلامية.

وهو ما دفع ابن أبي الحديد المعتزلي أن ينشد بيتين يوضح تضحيته هو وابنه علي عليه السلام:

و لـولا أبـو طـالب وابنـُه ... لما مثلُ الدّين شخصاً وقاما

فـذاك بمكـة آوىٰ وحامـىٰ ... وهذا بيثرب جسّ الحِماما[2]

ويمكن التعرّف على إيمانه و إخلاصه عن طـريق أشعاره وخدماته القيّمة

---

١. وقد أشـار إلى كلّ ذلـك في قصائده وأشعاره. ونقـل ابن هشـام في سيرته: ١/ ٣٥٢، ١٥ بيتـاً من قصيدته.

٢. شرح نهج البلاغة: ١٤/ ٨٤.

في السنوات العشر الأخيرة من عمره، فمن قصائده المطولة نختار البيتين التاليين:

ليعلم خيارُ النـاس أنّ محمّداً نبيٌّ كموسى والمسيحِ بن مريم

أتـى بهـدى مثلمـا أتيـا بـه فكلّ بأمر الله يهدي ويعصم[1]

لقد كـان إيمانه قوياً لـدرجة أنّه رضى بـأن يتعرض كل أبنائه لخطـر القتل والاغتيال ليبقى محمد ﷺ دون أن يمسّه أعداؤه بأيّ سوء. كما أنّه أوصى أولاده عند وفاتـه قائلاً: أُوصيكـم بمحمّد خيراً فإنّـه الأمين في قريش، وهـو الجامع لكـلّ ما أوصيكم به. كونوا له ولاةً، ولحزبـه حماةً، والله لا يسلك أحد منكم سبيله إلاّ رَشَد، ولا يأخذ أحد بهديه إلاّ سعد.[2]

وبينما كفّـره البعض مـن علماء السنة، إلاّ أنّ منهـم مـن حكموا بـإسلامـه وبإيمانه، مثـل: «زيني دحلان» مفتي مكة (المتوفّى ١٣٠٤ هـ)، وقد تمادى بعض منهم في تـوسيع دائرة الكفـر فشملـت آباء النبـي ﷺ، و كـان ذلك مـن آثـار الحكومات الأمـوية والعباسية التـي عملت بكلّ جهدهـا لتأكيد كفر أبي طـالب والإعلام ضـدّ إيمانه، لأنّه كـان والد الإمـام علي عليه السلام الـذي اجتهدت الأجهـزة الإعلامية لتلـك الحكومات في الحط من شأنـه دوماً، وخاصةً إنّ إسلامـه مع أبيه كان يعد فضيلة بارزة من فضائله.

أمّا علماء الشيعة الإمامية والزيدية فقد اتّفقوا على أنّه كان من أبرز المؤمنين برسول الله ﷺ ولم يخرج من الـدنيا إلاّ بقلب يفيض إيمانـاً بالإسلام وإخـلاصاً لله تعالى وحباً للمسلمين.[3]

١. مجمع البيان: ٧/ ٣٧؛ الحجة: ٥٧؛ مستدرك الحاكم: ٣/ ٦٢٣.

٢. السيرة الحلبية: ١/ ٣٥.

٣. يوضح هذا الجانب جيداً صاحب موسوعة الغدير، العلاّمة الأميني.

وأمّا أقاربه وما قدّموه من أفعال وأقوال تؤكد موقفه الإيجابي، فإنّ النبي ﷺ دفنه بنفسه. كما أنّ الإمام الحسين عليه السلام أجاب عندما سئل عن إيمانه قال: «واعجباً، إنّ الله تعالى نهى رسوله أن يقرّ مسلمة على نكاح كافرٍ، وقد كانت «فاطمة بنت أسد» من السابقات إلى الإسلام لم تزل تحت أبي طالب حتى مات».

وقال عليه السلام: «ألم تعلموا أنّ أمير المؤمنين علي عليه السلام كان يأمر أن يحجّ عن عبد الله وأبيه».

وقال الإمام الصادق عليه السلام : «إنّ مَثَل أبي طالب مَثَل أصحاب الكهف أسرّوا الإيمان وأظهروا الشرك، فآتاهم الله أجرهم مرّتين،وكذلك أبو طالب».[٢]

ومن المعروف، أنّه للتعرف على عقيدة فردٍ ونمط تفكيره،ينبغي الاعتماد على:

- دراسة آثاره العلمية والأدبية وما تركه من أقوال وكلمات.
- و أسلوب عمله وتصرفاته في المجتمع.
- و آراء أقربائه ومعارفه حوله.

وكلّ تلك الجوانب أكدت إسلام أبي طالب، حامي الرسول العظيم ﷺ، فتسقط كلّ الأقاويل والأحاديث التي بثّها أعداؤه للحط من شأنه و إلصاق الكفر به.

وكذلك كان أبو النبي ﷺ عبدالله، فقد ذكر النبي ﷺ إنّه انتقل في الأرحام المطهّرة ممّا يؤكّد طهارة آبائه وأُمّهاته من كلّ دنس وشرك.

وقد أشار الشيخ المفيد إلى أنّ الإماميّة تتفق على أنّ آباء رسول الله ﷺ من

٢. أُصول الكافي:١/ ٤٤٨.

لدن آدم إلى عبد الله بن عبد المطلب كانوا مؤمنين بالله وموحّدين إيّاه، واحتجّوا في ذلك بالقرآن و الأخبار.

النبي ﷺ قبل البعثة

تدلّ الشواهد التاريخية بالإضافة إلى البراهين العقلية، على أنّه ﷺ كان مؤمناً بالله وموحّداً إيّاه قبل البعثة، فلم يعبد وثناً قط، ولم يسجد لصنم أبداً. وقد أجمع المؤرّخون على أنّه ﷺ كان يخلو بحراء أشهراً كلّ عام يعبد الله تعالى فيه، فقد ذكر الإمام علي عليه السلام : «ولقد كان يجاور في كلّ سنة بحراء، فأراه ولا يراه غيري».[١]

حتى وافاه جبرائيل عليه السلام بالرسالة في هذا المكان وفي تلك الحال، وقد صرح بهذا أيضاً أصحاب الصحاح الستة، وجاء في الأخبار أنّ الرسول ﷺ حجّ قبل البعثة عدّة حجّات، وكان يأتي بمناسكها على وجه صحيح بعيداً عن أعين قريش، فقال الإمام الصادق عليه السلام : «حجّ رسول الله عشر حجّات مستتراً في كلّها».[٢]

وكلّ تلك الوقائع أصدق دليل على إيمانه وتوحيده، وهو النبي الخاتم والأفضل من جميع الأنبياء والمرسلين بنصّ القرآن الكريم. وجاء عن «العلاّمة المجلسي»، أنّه قد وردت أخبار كثيرة أنّه ﷺ كان يطوف ويعبد الله في حراء، ويرعى الآداب المنقولة من التسمية والتحميد عند الأكل وغيره،فكيف يمكن لله تعالى أن يهمل أفضل أنبيائه أربعين سنة بغير عبادة[٣] والنبي ﷺ كان مؤمناً

١. نهج البلاغة: الخطبة ١٩٢.
٢. وسائل الشيعة:٨/ ٨٨.
٣. بحار الأنوار:١٨/ ٢٨٠.

موحّداً عابـداً لله ساجداً قائماً بالفرائض العقلية والشرعية، مجتنبـاً عن المحرمات، عالماً بالكتاب ومـؤمناً به إجمالاً،وراجياً لنزوله إليـه، إلى أن بعثه الله لإنقاذ البشرية عن الجهل وسوقها إلى الكمال.

فكان ﷺ أفضـل الخلق وأكملهـم خلقـاً وخُلقاً وعقـلاً، وأنّـه كان يعمـل حسب ما يُلهَم سـواء كان مطابقاً لشرع ماقبله أم مخالفاً، وأنّ هـاديه وقائده، منذ صباه إلى أن بُعِث هو نفس هاديه بعد البعثة.[1]

٤. الوحي في غار حراء

ويقع جبل حراء في شمال مكّة، ويستغرق الصعود إليه مدّة نصف ساعة، ويتكوّن من قطع صخرية لا أثر للحياة فيها. أمّا الغار فيقع في شمال الجبل، وهو يحكي ذكريات رجل طالما تردّد عليه وقضـى الساعات والأيّام والأشهر في رحابه، يتعبد الله ويتأمّل في الكون وفي آثار قدرة الله وعظمته. إذ أنّ النبي ﷺ كان يفكّر في أمرين، قبل أن يبلغ مقام النبوة:

١. ملكـوت السماوات والأرض، فيرى في ملامـح كلّ مـن الكـائنات نـور الخالق العظيم وقدرته وعظمته، فتفتح عليه نوافذ من الغيب تحمل إلى قلبه وعقله النور الإلهي المقدّس.

٢. المسؤولية الثقيلـة التي ستوضع على كـاهله، فكان يفكر في فسـاد حياة المجتمع المكي، وكيفية رفع كلّ ذلك وإصلاحه.

وأمّا الرسالة الإلهية إليه ﷺ فقد أمر الله تعـالى جبرائيل عليه السلام بأن ينـزل على

---

١. للتوسع في ذلك يراجَع مفاهيم القرآن للمؤلف: ٥/ ١٣٥.

أمين قريش في الغار ويتلو على مسامعه بضع آيات كبداية لكتاب الهداية والسعادة، معلناً بذلك تتويجه بالنبوة ونصبه لمقام الرسالة، وطلب منه أن يقرأ، أو قال: يا محمّد اقرأ، قال: وما أقرأ؟ قال يا محمّد﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذي خَلَقَ* خَلَقَ الإِنْسانَ مِنْ عَلَقٍ*اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ* الَّذِي عَلَّمَ بِالقَلَمِ* عَلَّمَ الإِنْسانَ مٰا لَمْ يَعْلَمْ﴾[1] ثمّ أوحى إليه ربّه عزّ وجلّ ما أمره به ثمّ صعد إلى العلوّ ونزل محمّد ﷺ من الجبل، وقد غشيه من تعظيم جلال الله وورد عليه من كبير شأنه ما ركبه الحمى والنافض.

وقد أوضحت هذه الآيات برنامج النبي ﷺ وبيّنت بشكل واضح أنّ أساس الدين يقوم على القراءة والكتابة والعلم والمعرفة باستخدام القلم. ثمّ خاطبه الملك: «يا محمّد، أنت رسول الله، وأنا جبرائيل».

و قد اضطرب الرسول ﷺ لهذين الحدثين، لعظمة المسؤولية التي أُلقيت على كاهله، فترك غار حراء متوجّهاً إلى بيت السيدة خديجة عليها السلام، التي لاحظت الاضطراب و التعب على ملامحه فسألت عنه، فأجابها وحدّثها بكلّ ما سمع وجرى، فعظمت خديجة عليها السلام أمره ودعت له وقالت: «أبشر، فوالله لا يخزيك الله أبداً». ثمّ دثرته فنام بعض الشيء. ثمّ انطلقت إلى بيت ورقة تخبره بما سمعته من زوجها الكريم، فأجابها: إنّ ابن عمّك لصادق وإنّ هذا لبدء النبوة، وإنّه ليأتيه الناموس الأكبر ـ أي الرسالة والنبوة ـ.[2]

وقد اختلقت قصص كثيرة عن تخوّف النبي ﷺ واضطرابه ممّا حدث له في

---

١. العلق:١ـ٥.

٢. طبقات ابن سعد:١/ ١٩٥.

الغار، ودسّت تلك الروايات في التاريخ والتفسير عن قصد وهدف أو دخلت فيها عن غير ذلك. فالنبي الكريم ﷺ كانت روحه مهيّأة من جميع الجهات وبصورة كاملة لتلقّي السرّ الإلهي ـ النبوة ـ وما لم تكن نفسيته كذلك، فإنّ الله تعالى لم يكن ليمن عليه بمنصب النبوة ويختاره لمقام الرسالة، لأنّ الهدف الجوهري من انبعاث الرسل و الأنبياء هو هداية الناس و إرشادهم. وتدل تلك القصص على أنّ ثمة يداً إسرائيلية وراءها فصّاغتها، ولهذا فإنّ أئمّة الشيعة حاربوا هذه الأساطير بكلّ قوّة وأبطلوها برمّتها. فقد قال الإمام الصادق عليه السلام: «إنّ الله إذا اتّخذ عبداً رسولاً، أنزل عليه السكينة والوقار، فكان يأتيه من قِبَل الله عزّوجلّ مثل الذي يراه بعينه».[1]

وفسر العلاّمة الكبير الطبرسي ذلك، بأنّ الله لا يوحي إلى رسوله إلاّ بالبراهين النيّرة والآيات البيّنة الدالة على أنّ ما يوحىٰ إليه إنّما هو من الله تعالى فلا يحتاج إلى شيء سواها ولا يفزع ولا يفرق.[2]

أمّا بالنسبة إلى يوم مبعثه، فإنّ هناك اختلافاً فيه مثلما اختلف في يوم ولادته، فاتّفق علماء الشيعة على أنّه بُعث بالرسالة يوم ٢٧ من شهر رجب، وأنّ نزول الوحي بدأ من هذا اليوم، بينما اشتهر عند السنّة أنّه حدث في شهر رمضان. فهناك فرق في نزول القرآن جميعه على الرسول ﷺ ونزول الآيات الأُولى عليه يوم المبعث. فالآيات التي تصرح بنزول القرآن في شهر رمضان في ليلة القدر المباركة، لا تدل على أنّ يوم المبعث ـ الذي نزلت فيه بضع آيات ـ كان ذلك في الشهر نفسه، لأنّ

---

١. بحار الأنوار: ١٨/ ٢٦٢؛ الكافي: ١/ ٢٧١.

٢. مجمع البيان: ١٠/ ٣٨٤.

الآيات المذكورة الدالّة على أنّ القرآن نزل في شهر رمضان تدل على أنّ مجموع القرآن لا بعضه قد نزل في ذلك الشهر، في حين أنّه لم ينزل في يوم المبعث سوى آيات معدودة. كما أنّ تفسيراً آخر يؤكّد أنّ للقرآن الكريم وجوداً جمعياً علمياً واقعياً،وهو الذي نزل على الرسول الكريم ﷺ مرةً واحدةً في شهر رمضان، وآخر وجوداً تدريجياً كان بدء نزوله على النبي ﷺ في يوم المبعث،واستمر نزوله إلى آخر حياته الشريفة على نحو التدريج. وهو ما قدّمه العلاّمة الطباطبائي من تفسير[1]. كما أنّ ثمة قولاً آخر ذهب إلى أنّ ابتعاث الرسول ﷺ بالرسالة في شهر رجب، لا يلازم نزول القرآن في ذلك الشهر حتماً.[2]

وأبرز ما في هذا الموضوع، أنّ الرسالة المحمّدية المباركة، بشّر بها جميع الأنبياء المتقدّمين زمنياً على خاتم الأنبياء والمرسلين محمّد ﷺ وأشار القرآن إلى ذلك في آيات كثيرة.

والأمر الهامّ الآخر، إنّه كان خاتم الأنبياء والمرسلين، فلا نبي بعده و لا رسالة، حيث قال ﷺ: «أرسلت إلى الناس كافةً،وبي خُتِم النبيّون».[3]

٥. أوائل المؤمنين بالنبي ﷺ والدين الإسلامي

بدأ انتشار الإسلام تدريجياً، وكان هناك سابقون كما كان هناك لاحقون،وعُدَّ السبق إلى الإيمان برسول الله ﷺ في صدر الإسلام،معياراً للفضل، ولذا كان لابدّ من التعرف على هؤلاء السابقين. ومن المسلّمات، أنّ السيدة خديجة عليها السلام كانت

---

١. تفسير الميزان: ٢/ ١٤.

٢. للمزيد من التوضيح و التوسع راجع البحار:١٨/ ١٨٤، ٢٥٣؛ الكافي:٢/ ٤٦٠.

٣. طبقات ابن سعد:١/ ١٢٨.

أوّل امرأة آمنت به ﷺ فلم يختلف في هذا أحد.[١] وخاصّة أنّ النبي ﷺ أكّد بنفسه ذلك في قوله: «آمنت بي إذ كفر النـاس، وصدّقتني إذ كذّبني الناس».[٢] فهي أوّل من التقته بعد نزول الوحي عليه في الغار، فآمنت به وصدقته.

كما أنّ علي بن أبي طالب عليه السلام كان أوّل من آمن به من الرجال، حيث اتّفق العلماء كلّهم على ذلك، إذ أنّ الإمام عليه السلام كان قد عاش في كنف النبي ﷺ حتى بعثه الله تعالى نبياً فاتّبعه وآمن به وصدّقه.[٣] فكان ممّا أنعم الله به على الإمام عليه السلام أنّه كان في حجر النبي ﷺ قبل الإسلام وهو دون الثامنة. فحينما أجدبت مكة وضواحيها وأصاب الناس أزمة شديدة، وكان أبو طالب كثير العيال، رأى النبي ﷺ أن يخفّف عنه، فطلب من عمّه العباس أن يأخذ منه بعض عياله، فكفل العباس جعفراً، وكفل رسول الله ﷺ علياً، وقيل أنّ حمزة أخذ جعفراً، والعباسُ طالباً، وأبو طالب عقيلاً، وقال رسول الله ﷺ: «إخترت من اختار الله لي عليكم، علياً».[٤]

ويظهر أنّ الهدف من ذلك كان هو أن يتربّى علي عليه السلام في حجر النبي ﷺ ويتغذّى من مكارم أخلاقه ويتبعه في كريم أفعاله.

ويؤكد الإمام عليه السلام موقفه بقوله: «اللّهمّ إنّي أوّل من أناب وسمع وأجاب، ولم يسبقني إلاّ رسول الله بالصلاة».[٥]

---

١. السيرة النبوية: ١/ ٢٤٠.
٢. صحيح مسلم: ٧/ ١٣٤؛ صحيح البخاري: ٥/ ٣٩؛ أُسد الغابة: ٥/ ٤٢٨؛ البحار: ١٦/ ٨.
٣. السيرة النبوية: ١/ ٢٤٦؛ البداية والنهاية: ٢/ ٢٥.
٤. مقاتل الطالبيين: ٢٦؛ الكامل: ١/ ٣٧؛ السيرة النبوية: ١/ ٢٤٥.
٥. نهج البلاغة: ٢/ ١٨٢.

كماجاء عن «عفيف الكندي» إنّه شاهد النبي ﷺو زوجته و علياً عليه السلام يؤدّون الصلاة أمام الكعبة.[١]

وجاء في خطبة له عليه السلام قوله: «أنا الصديق الأكبر، لقد صليت مع رسول الله قبل الناس سبع سنين، وأنا أوّل من صلّى معه».[٢]

كما أنّ النبي ﷺ أكّد ذلك أيضاً في أحاديثه المتكررة: «أوّلكم إسلاماً علي بن أبي طالب».[٣]

ومن أقوال الإمام علي عليه السلام في ذلك، يذكر حكيم مولى زاذان،إنّه قال، سمعت علياً يقول: «صلّيت قبل الناس سبع سنين، وكنّا نسجد ولا نركع،وأوّل صلاة ركعنا فيها صلاة العصر».[٤]

و قال أيضاً: «بُعث رسول الله ﷺيوم الإثنين وأسلمت يوم الثلاثاء».[٥]

و قد أكّد هذا الموقف أكثر من ستين صحابياً وتابعياً أيّدوا القول الذي يذكر أنّ الإمام علياً عليه السلام كان أوّل القوم إسلاماً.

و أشهر هؤلاء:

ـ أنس بن مالك : بُعث النبي ﷺيوم الإثنين وأسلم عليٌّ يوم الثلاثاء.

ـ بريدة الأسلمي: ذكر نفس القول.

ـ زيد بن أرقم: أوّل من أسلم مع رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب، وأوّل من

---

١. الإصابة:٢/ ٤٨٠.

٢. خصائص النسائي: ٣؛ سنن ابن ماجة:١/ ٥٧؛ مستدرك الحاكم:١/ ١١٢.

٣. الغدير:٣/ ٢٢٠.

٤. شرح نهج البلاغة :٣/ ٢٥٨.

٥. مجمع الزوائد: ٩/ ١٠٢.

صلّى مع الرسول ﷺعليّ ، وأوّل من آمن بالله بعد النبي ﷺ عليّ عليه السلام .

ـ عبد الله بن عباس: أوّل من صلّى عليّ.

لعليّ أربع خصال ليست لأحد هو أوّلُ عربيّ وأعجميّ صلّىٰ مع رسول الله ﷺ، كان عليّ أوّل من آمن من الناس بعد خديجة عليها السلام .

ـ سلمان الفارسي: أوّل هذه الأُمّة وروداً على نبيّها الحوض أوّلها إسلاماً، علي بن أبي طالب عليه السلام .

ـ أبو رافع: مكث عليّ يصلّي متخفياً سبع سنين وأشهراً قبل أن يصلّي أحد.

ـ كما نقل نفس الأقوال والأعمال التي قام بها الإمام عليه السلام كلّ من:

أبو ذر الغفاري، خباب بن الأرت، المقداد بن عمرو الكندي، جابر بن عبد الله الأنصاري، أبو سعيد الخدري، حذيفة بن اليمان، عمر بن الخطاب، عبد الله بن مسعود، أبو أيّوب الأنصاري، هاشم بن عتبة المرقال، مالك بن الحارث الأشتر، عدي بن حاتم، محمد بن الحنفية، محمّد بن أبي بكر، عبد الله بن أبي سفيان، الحسن البصري، الإمام محمّد الباقر عليه السلام .[1]

٦. دعوة الأقربين

استمر النبي ﷺ يدعو إلى دينه سرّاً مدّة ثلاثة أعوام، عمد فيها إلى بناء الكوادر وإعدادها من أفراد محدّدين، كانوا السبب في أن ينجذب إلى الدين الجديد جماعة آخرون تقبّلت دعوته.

---

١. الصواعق المحرقة: ٧٢؛ تاريخ الخلفاء للسيوطي: ١١٢.

واشتهر من بين السابقين إلى الإيمان برسول الله ﷺ: [١]

- السيدة خديجة بنت خويلد عليها السلام
- علي بن أبي طالب عليه السلام
- زيد بن حارثة
- الزبير بن العوام
- عبد الرحمن بن عوف
- سعد بن أبي وقاص
- طلحةبن عبيد الله
- أبو عبيدة الجراح
- أبو سلمة
- الأرقم بن أبي الأرقم
- عثمان بن مظعون
- قدامة بن مظعون
- عبد الله بن مظعون
- عبيدة بن الحارث
- سعيد بن زيد
- خباب بن الأرت
- أبو بكر بن أبي قحافة
- عثمان بن عفان

وكان النبي ﷺ يخرج مع بعض أتباعه إلى شعاب مكّة للصلاة فيها بعيداً عن أنظار قريش، إلاّ أنّ البعض منهم رأوهم يصلُّون، فحدث نزاعٌ قصيرٌ بين الطرفين،حين استنكروا فعلهم، وهو ما جعلَ النبي ﷺ يقرر اتّخاذ بيت «الأرقم بن أبي الأرقم» مكاناً للعبادة[٢]، حيث آمن في هذا البيت عددٌ آخر من المشركين، كان أبرزهم : عمار بن ياسر، وصهيب بن سنان الرومي.

وقد ركّز الرسول ﷺ جهده في الدعوة السريّة، دون عجلة أو تسرّع، يعرض فيها دينه على كلّ من وجده أهلاً لتقبل المبادئ السامية، من الناحية الفكرية،

١. السيرة النبوية:١/ ٢٤٥.

٢. وكان البيت عند جبل الصفا عرف إلى فترة بدار الخيزران. أُسد الغابة:٤/ ٤٤؛ السيرة الحلبية:١/ ٢٨٣.

ففي خلال ثلاثة أعوام اكتفى بالاتّصال الشخصيّ بمن وَجَدَه مؤهلاً وصالحاً للدعوة ومستعداً لقبول الدين الجديد، ممّا ساعده في أن يكسب فريقاً من الأتباع الذين اهتدوا إلى دينه بقبول دعوته.

أمّا زعماء قريش فإنّهم لم يعتنوا بالدعوة الجديدة، كما لم يتعرضوا بأي عمل عدائي للرسول ﷺ بل ظلوا ينظرون إليه باحترام، مراعين قواعد الآداب والسلوك، في الوقت الذي لم يتعرض فيه النبي ﷺ أيضاً لأصنامهم وآلهتهم بسوء، ولا تناولها بالنقد والاعتراض بصورة علنية، وذلك أنّ زعماء قريش كانوا متأكدين من أنّ دعوته ستنتهي في العاجل بقولهم: إنّها أيّام وتنطفئ بعدها شعلة الدعوة هذه فوراً، كما انطفأت من قبل دعوة «ورقة وأُميّة» اللّذين دعيا إلى نبذ الوثنية واعتناق المسيحية،ثمّ نسي الأمر.

وقد جمع النبي ﷺ في السنوات الثلاث الأُولى، أربعين شخصاً، لم يكن فيهم كفاية لأن يصبحوا قوة دفاعية لحماية النبي ﷺ ورسالته، ممّا جعله يسعى إلى دعوة أقربائه، فكسر بذلك جدار الصمت،بالشروع في دعوة الأقربين ثمّ الناس أجمعين،فالنبي ﷺ كان يؤمن ويعتقد أنّ أي إصلاح وتغيير لابدّ أن يبدأ من إصلاح الداخل وتغييره،ومن هنا أمره الله تعالى بأن يدعو عشيرته الأقربين، الذين تمنّى أن يكوّنَ منهم سياجاً قوياً يحفظه ويحفظ رسالته من الأخطار المحتَملة: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِين﴾[1] كما خاطبه بصدد دعوة الناس عامة ﴿فَاصْدَعْ بِما تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ* إِنّا كَفَيْناكَ الْمُسْتَهْزِئِين﴾.[2]

---

١. الشعراء:٢١٤.

٢. الحجر:٩٤ـ٩٥.

وقد اتّخذ النبي ﷺ أُسلوباً مميزاً في دعوة أقربائه، إذ أنّه أعدّ لهم مائدةً كبرى، لـ ٤٥ فرداً من سراة بني هاشم ووجهائهم،ليكشف لهم أمر رسالته خلال تلك الضيافة، إلاّ أنّ الجو لم يناسب الحدث، فانفضّ المجلس دون تحقيق الغرض، ممّا اضطرّه إلى إعادتها في اليوم التالي. فقام النبي ﷺ بعد تناول الطعام، خطيباً فيهم وقال: «إنّ الرائد لا يكذب أهله، والله الذي لا إله إلاّ هو، إنّي رسول الله إليكم خاصةً وإلى الناس عامةً، والله لتموتنّ كما تنامون، ولتبعَثُنّ كما تستيقظون،ولتحاسبنّ بما تعملون، وإنّها الجنة أبداً والنار أبداً. يا بني عبدالمطلب، إنّي والله ما أعلم شاباً في العرب جاء قومه بأفضل ممّا جئتكم به، إنّي قد جئتكم بخير الدنيا والآخرة، وقد أمرني الله عزّوجلّ أن أدعوكم إليه، فأيّكم يؤمن بي ويؤازرني على هذا الأمر على أن يكون أخي ووصيّي وخليفتي فيكم؟» فقام علي عليه السلام وهوَ في الثالثة عشرة أو الخامسةعشرة من عمره قائلاً: «أنا يا رسول الله أكونُ وزيرُك على ما بعثك الله». وبعدما تكرّر هذا الموقف ثلاث مرّات، أخذ النبي ﷺ بيد عليّ عليه السلام والتفت إلى القوم قائلاً: «إنّ هذا أخي ووصيّي وخليفتي فيكم، فاسمعوا له وأطيعوا».

فضحك الجميع مستهزئين،وقالوا لأبي طالب: قد أمرك أن تسمع لابنك وتطيعه وجعله عليك أميراً.[1]

إنّ هذا الإعلان عن وصاية الإمام علي عليه السلام وخلافته في مطلع عهد الرسالة وبداية أمر النبوة، يفيد أنّ هذين المنصبين ليسا منفصلين، فقد أعلنهما الرسول ﷺ

---

١. هذا ملخّص لتفصيل ما رواه أكثر المفسرين والمؤرّخين دون أن يشكّك في صحته أحد، إلاّ ابن تيمية الذي اتخذ موقفاً فريداً من أهل البيت عليهم السلام راجع تاريخ الطبري:٢/ ٦٢؛ الكامل:٢/ ٤٠؛ مسند أحمد:١/ ١١١؛شرح نهج البلاغة:١٣/ ٢١٠.

في يوم إعلانه للدعـوة والنبوة، ممّا يؤكد أنّ النبوة والإمامة يشكّـلان قاعدة واحدة، وإنّهما حلقتـان متصلتـان لا يفصل بينهما شيء، كما أنّ مـوقـف الإمـام علي عليه السلام يكشف عـن مدى شجـاعته الروحيـة، حينما أعلن بكلّ جـرأة وشجاعـة، مؤازرة النبي صلى الله عليه وآله في حضور قـوم ضمّ شيـوخهم وسـادتهم،معلِناً استعـداده للتضحية في سبيل دينه،وهو غلام لم يتعد الخامسة عشرة.

وقد تناول «أبوجعفر الإسكافي» هذا الموقف موضحاً إذ كتب يقول:

هل يكلّف عمل الطعام،ودعاء القوم، صغيرٌ غير مميّز وغيرُ عاقل؟! و هل يؤتَمن على سرّ النبـوة طفل؟! و هل يُـدعىٰ في جملـة الشيوخ والكهول إلاّ عـاقل لبيبٌ وهل يضع رسول الله صلى الله عليه وآله يده في يده، ويعطيه صفقة يمينه بالأخوة والوصية والخلافة، إلاّ وهو أهلٌ لـذلك، بالغُ التكليف، محتمل لـولاية الله، وعداوة أعدائه، ما بـالُ هذا الطفل لم يـأنس بـأقرانه ولم يلصـق بأشكالـه، ولم يُر مـع الصبيان في ملاعبهم بعد إسلامـه،ولم ينزَع إليهم في ساعة من ساعاته، بـل ما رأيناه إلاّ ماضياً على إسلامـه، مصمّماً في أمره، محقّقاً لقولـه بفعله، ولصق بـرسول الله صلى الله عليه وآله من بين جميع من حضره، فهو أمينه وأليفه في دنياه وآخرته.[1]

٧. الدعوة العامة وتطوّر ردود أفعال قريش تجاهها

بعد تلـك السنوات الثلاث، عمد الـرسول صلى الله عليه وآله إلى إعلان الدعـوة جهراً، حين وقف ذات يوم على صخرة عند جبل الصفا منادياً بصوت عالٍ: «أرأيتكم إن أخبرتكم إنّ العـدو مصبحكم أو ممسيكم أكنتم تصـدّقونني؟» قالـوا: بلى. قال:

---

١. شرح نهج البلاغة:١٣/ ٢٤٤ـ ٢٤٥.

«فإنّي نذير لكم بين يدي عذاب شديد».[١]

فرد عليه أحدهم: تبّاً لك ألهذا دعوتنا؟ فتفرّق الناس على أثر ذلك. إلاّ أنّه بعد فترة من الدعوة العامة، تشكلت جماعة قوية متعاطفة متحابّة، من السابقين واللاحقين، أو القدامىٰ والجدد، كانت بمثابة إنذار لأوساط الكفر والشرك والوثنية، وهم المخالفون،وقد تألّفت تلك الجماعة من قبائل مختلفة منعوا الكفّار من التعرض لهم، إذ لم يكن اتّخاذ أي قرار حاسم بحقّهم، أمراً سهلاً ومريحاً. ولذا قرر سادة قريش مواجهة قائد تلك الجماعة ومحركهم، بوسائل الترغيب والترهيب، بالإغراء والتطميع، والإيذاء والتهديد، واستمرت برامج قريش و موقفها من الدعوة بهذه الأساليب طيلة عشر سنوات هي عمر الدعوة العامة في مكة، حتى اتّخذوا قرارهم النهائي بالتخلّص منه بقتله،في الوقت الذي تمكن ﷺ من إبطال مؤامرتهم و إفشالها بالهجرة إلى المدينة.

وقد بدأوا التحرك في مطالبة كفيله ﷺ أبي طالب بأن يبعد النبي ﷺعنهم قائلين له: يا أبا طالب إنّ ابن أخيك قد سبّ آلهتنا، وعاب ديننا، وسفّه أحلامنا، وضلّل آباءنا، فإمّا أن تكفّه عنّا، و إمّا أن تُخلّي بينا و بينه. إلاّ أنّ أبا طالب رَدّهم بقولٍ جميلٍ حكيمٍ.[٢]

ولكن الدين الجديد انتشر بقوّة بين العرب، والقادمين إلى مكّة خلال الأشهر الحرم، فأدرك طغاة قريش أنّ محمّداً ﷺ بدأ يفتح له مكاناً في قلوب جميع القبائل، فكثّر أنصاره منها، الأمر الذي دفعهم إلى مقابلة أبي طالب مرةً أُخرى،

---

١. السيرة الدحلانية بهامش السيرة الحلبية:١/ ١٩٤.

٢. السيرة النبوية: ١/ ٢٦٤.

ليذكّروه إشارة وتصريحاً، بالأخطار التي أحدقت بهم وبعقائدهم نتيجة نفوذ الإسلام وقوّته : إنّا والله لا نصبرُ على هذا من شتم آبائنا وعَيب آلهتنا حتى تكفّه عنّا أو ننازله وإيّاك في ذلك، حتى يهلك أحد الفريقين. فسكّن غضبهم وأطفأ ثائرَتهم وهدّأ خواطرهم، ليتم معالجة هذه المشكلة بطريقةٍ أفضل.

فأتى النبي ﷺ وأخبره بأمرهم، فردّ عليه بالجواب التاريخي الخالد، والذي يعتبر من أسطع وألمع السطور في حياة قائد الإسلام الأكبر محمّد ﷺ:

«يا عمّ، والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمرَ في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يظهِرَه الله، أو أهلك فيه، ماتركته». ممّا أثر في عمّه بتلك الكلمات العظيمة، فأظهر استعداده الكامل للوقوف إلى جانبه قائلاً: إذهب يا ابن أخي فقل ما أحببتَ ،فوالله لا أُسْلِمَكَ لشيءٍ أبداً».

وحاولت قريشٌ مساومة أبي طالب مرةً أُخرى، للتخلّص من النبي ﷺ ودعوته، إلاّ أنّه رفض أي نوع من المساومة في هذه القضية، محافظاً على محمّد ﷺ ودينه.

فسلكوا طريقاً آخر، ووسيلة أجدى لإثناء النبي ﷺ عن المضي في دعوته،وهي تطميعه بالمناصب والهدايا والأموال والفَتَيات الجميلات:فإن كنتَ إنّما جئتَ بهذا الحديث تطلبُ به مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثر مالاً، وإن كنتَ إنّما تطلب الشرفَ فينا فنحن نسوّدُكَ ونشرّفك علينا،وإن كان هذا الذي يأتيك تابعاً من الجنّ قد غلب عليك،بذلنا أموالنا في طِبّك.

إلاّ أنّ الرسول ﷺ قال لعمّه: «يا عمّ أريدهم على كلمةٍ واحدة يقولُونها،تدين لهم العرب، وتؤدّي إليهم بها العجم الجزية».

قالوا: ما هي؟ قال: «لاإله إلاّ الله». فقاموا فزعين قائلين: ﴿أجعل الآلهة إلهاً واحداً إنّ هذا لشيء عجابٌ﴾.[١]

٨. استخدام الأساليب المتعدّدة لمنع انتشار الدعوة الجديدة

بعد استخدام أُسلوب الأخذ والردّ مع النبي ﷺ عن طريق كفيله، وعدم جدواه، اضطرّت قريش إلى تغيير أُسلوبها ونهجها مع الرسول ﷺ في منع انتشار دينه، مهما كلّف الثمن. فقرّروا اتخاذ سلاح السخرية والاستهزاء، والإيذاء والتهديد.

وكان أبو طالب من جانب آخر، قد طلب من بني هاشم جميعاً القيام بحماية النبي ﷺ، فلبّوا نداءه سواء بدافع الإيمان أو الرحم، إلاّ أنّ ذلك لم يمنع من إيقاع الأذى بالرسول ﷺ كلّما وجدوا الفرصة السانحة، وخاصةً إذا وجدوه وحيداً بعيداً عن أعين حماته.

إنّ التاريخ يشهد بأنّ وجود رجال ذوي بأس شديد وقوة بين صفوف المسلمين، مثل «حمزة» الذي أصبح فيما بعد أحد كبار قادة الإسلام، كان لهم أثر كبير في حفظ الإسلام وحماية النبي ﷺ ودعم جماعته. فقد جاء عنه: لما أسلم حمزة عرفت قريش أنّ رسول الله ﷺ قد عزّ وامتنع، فكفّوا عمّا كانوا يتناولون منه.[٢]

أمّا أساليب قريش فتعددت في الإيذاء والإيقاع بالرسول ﷺ وجماعته، فقد كمن أبو جهل للرسول ﷺ حينما وقف للصلاة بين الركن اليماني والحجر الأسود، ليضربه بحجر، إلاّ أنّه رجع عن عزمه دون أن ينفّذ خطته، مجيباً أصحابه في ذلك:

---

١. السيرة الحلبية: ١/ ٣٠٣؛ تاريخ الطبري: ٢/ ٦٥.

٢. الكامل: ٢/ ٥٦.

قمت إليه لأفعل به ما قلت لكم البارحة، فلمّا دنوتُ منه عرض لي دونه ما لا رأيت مثله في حياتي، فتركته.[١]

ولا شكّ أنّ قوةً غيبيةً أدركت الرسول ﷺ في تلك اللحظة وحفظته، كما وعده الله تعالى قائلاً: ﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ﴾[٢]. فالنبي ﷺ كان يواجهُ في كلّ يوم نوعاً خاصاً من الأذى والمضايقة من هؤلاء الأشرار، وأشهرهم: عقبة بن أبي معيط الذي شتمه وضربه، فكان أشدّ خصومه بغضاً له ﷺ. وعمّه أبو لهب الذي تعرض النبي ﷺ لأذاه مع زوجته أُمّ جميل، فقد كان النبي ﷺ يجاورهم فقاموا بإيذائه وإزعاجه، بإلقاء الرماد والتراب على رأسه الشريف، ونشر الشوك على طريقه أو عند باب بيته. والأسود بن عبد يغوث، أحد المستهزئين، والوليد بن المغيرة، شيخ قريش وحكيمها وأكبر الملاّك فيها، وأُمية وأُبيّ، ابنا خلف، وأبو جهل(أبو الحكم بن هشام)، و العاص بن وائل، والد عمرو بن العاص الذي وصف النبي ﷺ بالأبتر.

وعندما فشلت أساليب قريش وأسلحتها الصديئة في القضاء على الدين الجديد وأهله، عمدوا إلى استخدام سلاح جديد لعلّه يكون أقوى من سوابقه، للحيلولة دون انتشار الإسلام واتساع رقعته، وقطع علاقته بالمجتمع العربي، وهو سلاح الدعاية ضدّ رسول الله ﷺ. و من أساليبه:

الاتّهامات الباطلة، وقد أقرّوا استخدامها في دار الندوة، حين طرحوا فكرتها على «الوليد بن المغيرة»[٣] الذي كان ذا مكانة مميزة عندهم، فقال: يا معشر قريش، إنّه قد حضر هذا الموسم وإنّ وفود العرب ستقدم عليكم فيه،

١. السيرة النبوية: ١/ ٢٩٨.
٢. الحجر: ٩٥.
٣. أبو خالد بن الوليد.

وقد سمعوا بأمر صاحبكم هذا فأجمعوا فيه رأياً واحداً ولا تختلفوا فيكذب بعضكم بعضاً ويرد قولكم بعضه بعضاً، ورأى ألاّ يقولوا عنه كاهن أو مجنون أو ساحر. و هكذا تحيّروا في ما ينسبون إلى رسول اللّه ﷺ حتّى اتّفقوا على أن يقولوا: **إنّه ساحر** جاء بقول هو سحر يفرق بين المرء وأبيه وأخيه وزوجته وعشيرته، والدليل على ذلك ما أوجده من خلاف وانشقاق وتفرّق بين أهل مكّة الّذين عرفوا بالوحدة والإتفاق.[١]

كما أشاعوا عنه الجنون، وأنّ ما يقوله ويقرأه ما هو إلاّ من نسج الخيال ومن أثر الجنون الذي لا يتنافى مع الزهد والأمانة.

وقد ردّ القرآن الكريم على جميع تلك الاتهامات في آيات كثيرة وفنّدها.

وقد استمر أُسلوبهم في الاتهام والتشويش على شخصية النبي الأكرم ﷺ والرسالة المحمدية بكلّ الصور والمظاهر، فوصفوه بالكاهن، والساحر، والمجنون، وأنّه معلّم من قبل نصراني، وكذّاب و مفتر و شاعر، وما يقوله أضغاث أحلام.

ولما لم تأت كلّ تلك الاتهامات بالنتيجة المرجوّة، ولم تنفع في الإيقاع به، لمعرفة الناس بالنبي ﷺ وصفاته وأخلاقه منذ سنين بعيدة، اتجهوا إلى أُسلوب آخر، وهو معارضة القرآن الكريم عن طريق «النضر بن الحارث» أحد أعداء الرسول ﷺ الذي تعلم في العراق شيئاً من أساطير الفرس وحكاياتهم، ليقصّ منها على الناس فيلهيهم عن السماع لرسول الله ﷺ والإصغاء للقرآن الكريم. إلاّ أنّ ذلكَ لم يدم طويلاً، فقد سأمت قريش أحاديثه فتفرقت عنه.

فاتجهوا إلى أُسلوب المجادلات الجاهلية والمآخذ السخيفة على الرسول ﷺ

---

١. السيرة النبوية: ١/ ٢٧٠.

ورسالته، وهي تبرز تكبّرهم وعنادهم وجهلهم التي طبعوا عليها. ومن أمثال هذه الوسيلة الاعتراض على النبيّ ﷺ للأُمور التالية :

١. عدم نزول القرآن على أحد أثريائهم.

٢. عدم إرسال الملائكة إليهم.

٣. تبديل الآلهة بإله واحد.

٤. جدّد الحياة يوم القيامة.

٥. عدم تملّكه لمعجزات متعدّدة كما كان لموسى عليه السلام.

وفي الوقت نفسه قدموا مقترحات لإصلاح الوضع بينهم وبين النبي الكريم ﷺ مثل:

ـ أن يقوم بعبادة أصنامهم سنة، على أن يعبدوا إلهه سنة أُخرى.

ـ تبديل القرآن على ألاّ يحتوي على شجب عبادة الأوثان.

ـ مطالب مادية عجيبة مستحيلة ومتناقضة، كأن يفجر لهم ينابيع، أو يأتي بالله سبحانه وتعالى.

وعندما قدم وفدٌ مسيحيٌ تكوَّن من عشرين رجلاً من قبل أساقفة الحبشة لتقصّي الحقائق في مكة والتعرّف على الإسلام، وزيارة النبي الأكرم ﷺ في مكّة، فجالسوه في المسجد وكلّموه وسألوه بعض المسائل، حتى عرض عليهم دينه وقرأ عليهم آيات من القرآن الكريم، فتأثرت نفوسهم وآمنوا به وصدّقوه.

وكان أبو جهل قد شاهد ما حدث فوبَّخهم على موقفهم وبما عملوا دون أن يؤدّوا عملهم كوفد من بلدهم، إلاّ أنّهم لم يردوا عليه إلاّ بخير. فكان لهذا الموقف أثره السيء في قريش دفعهم إلى تكوين وفد من «النضر بن الحارث وعقبة

ابن أبي معيط» للسير إلى أحبار يهود المدينة وسؤالهم عن دين الرسول ﷺ فأخبرهم اليهود أن يسألوه عن ثلاث، إذا عرفها فهو نبي مرسل، وإن لم يفعل فهو متقوّل.

١. عن فتيه ذهبوا في الدهر الأوّل.

٢. عن رجل طوّاف.

٣. عن الروح، ماهي؟

فأجابهم الرسول ﷺ بالآيات القرآنية، عن الروح في الآية ٨٥ من سورة الإسراء، وأصحاب الكهف وذي القرنين في سورة الكهف.

فالنبي ﷺ قابل تلك الآراء الشاذة والمقترحات المؤذية بصبر عظيم وثبات هائل، حرصاً منه على إبلاغ رسالته.

وبعد هذه الخطة الفاشلة، نفذوا خطة أُخرى وهي: منع كلّ من رغب في الإسلام وقدم إلى مكّة للتعرف على النبي ﷺ والاتّصال به، وذلك بنشر الجواسيس في الطرقات للتعرض لهؤلاء ومنعهم من الوصول إلى النبي ﷺ، وممّن تعرضوا له في الطريق: الشاعر الأعشى، الذي قدم إلى مكّة ليهدي للرسول أبياتاً شعرية ويعلن إسلامه على يديه، فأقنعوه بالعودة إلى بلده بعد أن أخبروه أنّ النبي ﷺ يحرم الخمر، وكان الأعشى يحب الخمر والنساء. وقد مات في نفس العام فلم يفد على رسول الله ﷺ.[1] كما تعرّضوا للطفيل بن عمرو الدوسي الذي خشيت قريش أن يقوم بالاتّصال بالنبي ﷺ وهو شاعر حكيم، صاحب نفوذ وكلمة مسموعة في قبيلته، فخوّفوه من كلام النبي ﷺ وسحره. إلاّ أنّه عندما سمع شيئاً من أقوال الرسول ﷺ دون وعي منه، أحسن القولَ فأسلم وشهد شهادة الحقّ، ورجع إلى

١. السيرة النبوية: ١/ ٣٨٦.

بلاده داعياً قومه إلى الإسلام، إلى أن تـمّ اتصاله بالنبي ﷺ بخيبر فبقي معه حتى قبض ﷺ ثمّ شارك المسلمين بعد ذلك في معارك اليمامة زمن الخلفاء الراشدين، وقتل فيها.[١]

وتطورت وسائل وأساليب قريش في التخلّص من دعوة النبي ﷺ وإيقاف زحف تلـك الدعـوة الإسلامية واتّسـاعها في مدّة غير طـويلة، إلى فـرض حصار اقتصادي قويّ على النبي ﷺ والمسلمين، تُقطع به كلّ الشرايين الحيوية لهم، فتحدّ بذلك من سرعة انتشار الدين،وتخنـق مؤسسه وأنصاره. ولهذا وقّع زعماء قريش في دار الندوة ميثاقـاً كتبه:«منصور بن عكـرمة» و علّقوه في جوف الكعبـة، وتحالفوا على الالتزام ببنـوده حتى الموت، وذلـك في السنة السـابعة مـن البعثة. وقـد ضم الميثاق البنود التالية:

١. عدم التعامل التجاري مع النبي ﷺ وأنصاره.

٢. عدم التزاوج منهم.

٣. عدم التحدّث معهم أو تناول الطعام معهم.

٤. وأن يكونوا يداً واحداً على محمّد ﷺ وأنصاره.

فما كـان من «أبي طـالـب» إلاّ أن طلب مـن بني هـاشـم وبني المطلـب، الاستعداد للدفاع عن رسول الله ﷺ والحفاظ على حياته وسلامته، على أن يستقرّوا خارج مكّة في شعب بين جبال مكّة عُرِفَ بشعب أبي طالب، والذي شمل بعض البيوت البسيطة، كما عيَّن بعض الرجال في جوانـب مختلفة ومتفرقة، لمراقبة الطرق وحراسة المكان تحسباً لأي طارئ.[٢]

---

١. السيرة النبوية:١/ ٣٨٢.

٢. السيرة النبوية:١/ ٣٥٠؛ تاريخ الطبري:٢/ ٧٨.

ويشهد التاريخ أنّ أقوى العوامل في ثبات أقلية وصمودها في وجه الأكثرية هو: قوة الإيمان و الاعتقاد، وهذا ما تجلّى في أبي طالب و بني هاشم في هذه المأساة.

فقد استمر الحصار ثلاثة أعوام، جاع فيها الأطفال والكبار متحمّلين قسوة الحال، فكان يعيشُ الفردُ منهم على تمرة واحدة طوال اليوم، وربما تقاسمها اثنان.

ولمّا كان لايُسمح لهم بالخروج من الشعب إلاّ في الأشهر الحرم حيث يسود الأمن في أنحاء الجزيرة العربية، فيخرج بنو هاشم للشراء والبيع ثمّ العودة إلى الملجأ، فإنّ النبي ﷺ كان يستغل هذا الموسم في نشر دينه ودعوته. إلاّ أنّ تجّار قريش كانوا يزيدون في سعر السلعة إذا أرادها مسلمٌ، على أن يقوم أبو لهب والوليد بن المغيرة بتعويض خسارة هؤلاء التجار. كما أنّهم عينوا الجواسيس على الطرق المؤدية للشعب حتى يمنعوا الاتّصال بالمسلمين. إلاّ أنّ بعضاً من أنصار النبي ﷺ كان يوصل الطعام إليهم سراً خلال الليل كما أنّ قريشاً كانوا يصادرون مال كلّ من أراد التعامل مع أصحاب الشعب، في الوقت الذي اشتدّ إيذاؤهم لمن أعلن إسلامه.

ولكنّهم تأكدوا بعد فترة ليست قليلة بأنّ حصارهم هذا لم يأت بنتيجة مرجوة، ولم يتحقّق هدفهم منه و من غيره من الوسائل والأساليب، ففكروا في نقض الميثاق بأيّ شكل. فقد صرّح «زهير بن أبي أُميّة» في مجلس قريش في المسجد الحرام بعدما اتّفق مع عدد آخر من المعارضين لمقاطعة بني هاشم:

يا أهل مكّة، أنأكل الطعام ونلبس الثياب، وبنو هاشم هلكىٰ لا يُباع لهم ولا يُبتاع منهم؟ والله لا أقعد حتى تُشَقّ هذه الصحيفة القاطعة الظالمة.

وقام «المطعم بن عدي» إلى الصحيفة ليشقّها، فوجد أنّ الإرضة قد أكلتها

إلاّ عبارة :«باسمك اللّهم» فأسرع « أبو طالب» إلى الشِّعب يخبر الرسول ﷺ بما جرى، وانفك الحصار وعاد المحاصرون إلى منازلهم مرّة أُخرى. وكان النبي ﷺ قد عَلِم بأمر تقطيع الصحيفة والإرضةالتي أكلتها إلاّ اسم الله، فأخبر أبا طالب بذلك، الذي قام بإخبار زعماء قريش بذلك، واتّفق معهم على: إن كان حقّاً ما ذكر الرسول ﷺ فاتّقوا الله وارجعوا عما أنتم عليه من الظلم والجور وقطيعة الرحم، وإن كان باطلاً دفعته إليكم، فإن شئتم قتلتُموه وإن شئتم استحييتموه.وفقالوا: رَضينا ، وتعاقدوا على ذلك. إلاّ أنّهم نقضوا اتّفاقهم و نكثوا عهدهم لما شاهدوا وتأكدوا ما قاله النبي ﷺ بل ازدادوا شراً وعناداً، ورجع بنو هاشم مرّة أُخرى إلى الشِّعب محاصَرين فيه فترة أُخرى، حتى نقضها «هشام بن عمرو» فانتهى الحصار الاقتصادي لبني هاشم في منتصف شهر رجب من السنة العاشرة للبعثة النبوية الشريفة.

وإلى جانب ذلك، فإنّ أفراداً من المسلمين تعرّضوا لإيذاء قريش وتحمّلوا أشدّ أنواع العذاب، واشتهر منهم:

١. بلال الحبشي، الذي كان غلاماً لـ«أُميّة بن خلف» و هو أشدّ أعداء النبي ﷺ فعمد إلى تعذيب هذا الغلام انتقاماً و تشفياً من الرسول ﷺ إذ أنّه تردد ـ أي أُميّة ـ من إلحاق الأذى به ﷺ خوفاً من عشيرة النبي ﷺ الحامية له.[١]

٢. وعمار بن ياسر، الذي كان والده من السابقين إلى الإسلام، فعمد المشركون إلى إيذائهم وتعذيبهم بعد ما انضموا إلى المسلمين، فكانوا يُخرِجون «عماراً وياسر وسمية» في وقت الظهيرة ويبقونهم طويلاً تحت أشعة الشمس، حتى مات ياسر، كما طعن أبو جهل بالرمح سُميّة في قلبها فماتت، فاعتُبرا أوّل

١. قتله بلال بالإضافة إلى ابنه بعد أن أُسر في معركة بدر.

شهيدين في الإسلام.[١]

أمّا عمّار فقد استخدم التقية للإبقاء على نفسه، حيث تظاهر بترك الدين الإسلامي حسب طلبهم، فانصرفوا عنه وتركوه. ولما ندم على فعله، طَمأنَه النبيُّ ﷺ فقال له: «كيف تجد قلبك؟» قال: مطمئن بالإيمان. فقال ﷺ: «إن عادوا فَعُدْ».

٣. «عبد الله بن مسعود» الذي أبدى استعداداً للقيام بتلاوة القرآن جهرا على مسامع قريش في المسجد الحرام، فقرأ ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ* الرَّحْمٰنُ* عَلَّمَ القُرآنَ﴾ فقام إليه الجميع يضربونه في وجهه وهو يقرأ حتى أُدمي جسمه ووجهه فتركوه، وهو مسرور بما عمله في تمكين قريش من الاستماع إلى كتاب الله تعالى وآياته المباركة.[٢]

٤. وأبو ذر، أيضاً جاهر بالدين حين كان المسلمون يدعون سراً، فقد نادى في المسجد: أشهد أن لا إله إلاّ الله وأنّ محمّداً عبده ورسوله.[٣] ويؤكد التاريخ أنّ نداءه هذا كان أوّل نداء تحدّى جبروت قريش وظلمها، أطلقه رجل غريب عن مكّة وأهلها. فهجم عليه جماعة من قريش وضربوه بشدّة حتى أنقذه«العباس بن عبد المطلب» من الموت. بحجّة أنّه من غفار، وتمر تجارة قريش على بلده، فخافوا على تجارتهم فأمسكوا عنه.

ولما لم يحن الوقتُ بعد للدخول في مواجهات ساخنة مع المشركين، فإنّ الرسول ﷺ أمره بأن يلحق بقومه يدعوهم للإسلام:«إلحق بقومك فإذا بلغك

١. بحار الأنوار:١٨/ ٢٤١؛ السيرة الحلبية:١/ ٣٠٠.
٢. السيرة النبوية:١/ ٣١٤.
٣. حلية الأولياء: ١/ ١٥٨، طبقات ابن سعد:٤/ ٢٢٥؛ الاستيعاب:٤/ ٦٣.

ظهوري فأتني».

وقد تمكن من التـأثير في قومه، فأسلم أبواه، ونصف رجـال قبيلته ـ غفار ـ ثمّ أسلـم ا لباقي بعد هجـرة النبي ﷺ إلى المدينة، ثـمّ تبعتها قبيلة «أسلـم» التي وفدت على الرسول ﷺ واعتنقوا الإسلام.

وقد التحق «أبو ذر» بالرسول ﷺ في المدينة وأقام بها [1] و هو أوّل المجاهرين بالإسلام، ورابـع أو خامس من أسلـم، فكان من السابقين والأوّلين، الـذين لهم مكانة عظيمة عند الله تعالى ومقاماً لا يضاهىٰ.

---

١. الدرجات الرفيعة: ٢٢٥ـ ٢٣٠.

الفصل الرابع

موقف النبيّ ﷺ

من إيذاء الكفّار للمسلمين

- الهجرة إلى الحبشة
- الإسراء والمعراج
- سفره ﷺ إلى الطائف
- المرحلة الجديدة في الدعوة ونتائجها: بيعة العقبة
- الهجرة الكبرى
- الرسول ﷺ في المدينة

مواجهة المسلمين

أمام أفعال قريش

١ . الهجرة إلى الحبشة

تعتبر هجرة فريق من المسلمين إلى الحبشة دليلاً بارزاً على إيمانهم وإخلاصهم العميق لدينهم وربّهم، فقد قرّر فريق من الرجال والنساء، بهدف الحفاظ على عقيدتهم، والتخلّص من أذى قريش، والإقامة في مكان آمن يقيمون فيه شعائرهم بحرية ويعبدون الله الواحد، أن يغادروا مكة إلى جهة تحقّق أهدافهم، فنصحهم النبي ﷺ بالإتجاه إلى الحبشة قائلاً: «لو خرجتم إلى أرض الحبشة، فإنّ بها ملكاً لا يُظلم عنده أحد، وهي أرض صِدقٍ حتّى يجعل الله لكم فَرَجاً ممّا أنتم فيه».

لماذا اختار الرسول ﷺ تلك الأرض؟ ويتضح السّر إذا درسنا أوضاع الجزيرة العربية والمناطق المجاورة لها. فالهجرة إلى المناطق العربية التي سكنها المشركونِ والوثنيون كانت تنطوي على خطر كبير على هؤلاء الأفراد من المسلمين، إذ أنّهم سيمتنعون عن قبولهم في أرضهم إرضاءً لقريش أو وفاءً وتعصّباً لدين الآباء. وكذلك لم تصلح المناطق التي عاش بها اليهود والنصارى لذلك إذ أنّ

الصراع المذهبي والطائفي كان شائعاً بينهما، فلم تكن الأوضاع لتسمح بدخول طرف ثالث في حلبة الصراع، كما أنّ هؤلاء الفريقين ــ اليهود والنصارى ـ كانوا يحتقرون العنصر العربي أساساً، ممّا يمنع التعايش معهم.

أمّا المناطق الخارجية، فإنّ اليمن كانت تحت حكم الفرس، الذين لم يقبلوا بدعوة النبي ﷺ فيما بعد، حتى إنّ إمبراطور فارس طلب من عامله على اليمن، القيام بالقبض على الرسول ﷺ وإرساله إليه. وكذلك الحيرة فقد كانت تحت النفوذ الإيراني وسيطرته. أمّا الشام فكانت بعيدةً عن مكّة المكرّمة، لم تصلح للجوء المسلمين إليها، كما أنّها كانت سوقاً لقريش تربط سكانها بهم روابط وعلاقات وثيقة، وهي علاقات اقتصادية قوية.

ولذا فإنّ الفريق المؤمن غادر مكة ليلاً في غفلة من المشركين نحو ميناء جدّة للسفر عبر مينائها إلى أرض الحبشة، حيث وصلوا في الوقت الذي كانت فيه سفينتان تجاريتان على أُهبة الإقلاع، فبادر المسلمون إلى ركبوها لقاء نصف دينار عن كلّ راكب. وكان الفريق مكوناً من عشرة أو خمسة عشر شخصاً، بينهم أربع من النسوة المسلمات، ولم يكونوا من قبيلة واحدة، بل انتمى كلّ واحد منهم إلى قبيلة معينة. وقد حدث ذلك في شهر رجب في السنة الخامسة من مبعث النبي ﷺ.[1]

و قد حاول المشركون في مكّة اللحاق بهم، فبعثوا جماعة من رجالهم لإعادتهم إلى مكّة، إلاّ أنّ السفينة كانت قد غادرت الميناء. وكان رؤساء «دار الندوة» بمكة وأقطابها، يعلمون جيدا أضرار هذه الهجرة وآثارها على أوضاعهم،

١. بحار الأنوار: ١٨/ ٤١٢.

ولذا اهتموا في إعادتهم فوراً إلى ديارهم.

وقد تبعت هذه الهجرة، خروج جماعة أُخرى بلغ عددها ٨٣ فرداً على رأسهم: «جعفر بن أبي طالب» ابن عمّ الرسول ﷺ حيث تمّت بحريّة، وقد اصطحبوا فيها نساءهم وأولادهم،إلى أرض الحبشة أيضاً. وقد وجد المسلمون أرضها كما وصفها النبي ﷺ: عامرةً، وبيئة آمنة حرة، تصلح لعبادة الله تعالى بحرّية وأمان. وبيّنت «السيدة أُمّ سلمة» الوضع بقولها: «لما نزلنا أرض الحبشة، جاورنا بها خير جار، النجاشي، أمننا على ديننا، وعبدنا الله تعالى، لا نُؤذى، ولا نسمع شيئاً نكرهه».

وقد حدثت هذه الهجرة في رجب من السنة الخامسة من النبوة، وهي السنة الثانية من إظهار الدعوة، فأقاموا شعبان ورمضان، وقدموا في شوال، لما بلغهم أنّ قريشاً أسلمت فعاد منهم قوم وتخلف آخرون.[1] إلاّ أنّ ذلك كان كذباً، فلم يدخل منهم مكّة إلاّ القليل، وعادت الأكثرية إلى الحبشة ثانية. وكان ممّن دخل مكّة منهم: «عثمان بن مظعون» الذي دخل بجوار الوليد بن المغيرة، ولكنّه ردّ عليه جواره فاختار جوار الله ليواسي المسلمين ويشاركهم آلامهم ومتاعبهم، ممّا جعله يتلقّى فيما بعد شيئاً من تعذيب الكفّار وأذيتهم فأصابوا عينه.

وحينما علمت قريش ما أصبح فيه المسلمون المهاجرون من أمن وحرّية، ثار فيهم الحسد، وتوجّسوا خيفة من نفوذهم هناك في الحبشة، التي اعتبرت أرضها الآن قاعدة قوية لهم، كما أنّهم تخوفوا من اعتناق نجاشي الحبشة لدينهم، فيكسبوا تأييده، ممّا يدفعه إلى محاربة مكّة فيما بعد للقضاء على حكومة المشركين الوثنيين في

١. الكامل في التاريخ:٢/ ٥٢.

شبه الجزيرة العربية. ولذا فقد اجتمع الأقطاب في «دار الندوة» للتشاور في هذا الأمر الخطير، فاستقر رأيهم على إرسال وفد منهم إلى البلاط الحبشي لاستمالة القواد والوزراء بالهدايا القيمة، لإخراج المسلمين من أرضهم، فقد تحدّدت تعليماتهم إلى رئيس الوفد: عمرو بن العاص، وعبد الله بن أبي ربيعة: ادفعا إلى كلّ بطريقٍ هديته قبل أن تكلّما النجاشي فيهم، ثمّ قدّما إلى النجاشي هداياه، واسألاه أن يسلمهم إليكما قبل أن يكلّمهم.

وحينما توجّها إلى الملك الذي تقبّل الهدايا، قالا له: أيّها الملك إنّه قد ضوى - أي لجأ ليلاً - إلى بلدك منّا غلمان سفهاء، فارقوا دين قومهم ولم يدخلوا في دينك، وجاءوا بدينٍ ابتدعوه لا نعرفه نحن ولا أنت، وقد بعثنا إليك فيهم أشرافُ قومهم من آبائهم وأعمامهم وعشائرهم لتردَّهم إليهم، فهم أبصر بهم وأعلم بما عابوا عليهم وعاتبوهم فيه.

وقد شجعهم على قولهم هذا بطارقتُه الذين حصلوا على الهدايا من قبل، إلاّ أنّ النجاشي الحكيم العادل رفض إجابة مطالبهم دون أن يرجع إلى المسلمين فيرى رأيهم. وعندما حضروا أمامه بقيادة «جعفر بن أبي طالب» الناطق باسمهم، سأله الملك: ما هذا الدين الذي فارقتم فيه قومَكم ولم تدخلوا في ديني ولا في دين أحد من هذه الملل؟

فقال جعفر بن أبي طالب بعد أن وصف حالهم قبل الإسلام وكيف أنّ الله هداهم بالنبي ﷺ: وأمرنا أن نعبد الله وحده لا نشرك به شيئاً، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام، فصدّقناه وآمنا به واتّبعناه على ما جاء به من الله، فعبدنا الله وحده فلم نشرك به شيئاً، وحرّمنا ما حرّم علينا وأحللنا ما أحلّ لنا، فعدا علينا

قومنا فعذبونا وفتنونا عن ديننا ليردّونا إلى عبادة الأوثان، وأن نستحلّ ما كنّا نستحلُّ من الخبائث، فلمّا قهرونا وظلمونا وضيّقوا علينا وحالوا بيننا وبين ديننا خرجنا إلى بلادك، واخترناك على من سواك، ورغبنا في جوارك، ورجونا ألا نُظلَم عندك أيّها الملك.[1]

وقد أثّرت كلمات «جعفر» البليغة وحديثه العذب تأثيراً عجيباً في نفس النجاشي حتى أغرورقت عيناه بالدموع،وخاصة عندما قرأ عليه بعض الآيات القرآنية التي تخص عيسى و مريم عليهما السلام فبكى النجاشي وبكى أساقفتُه معه، وقال: «إنّ هذا والذي جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة»، ويقصد أنّ القرآن والإنجيل كلام الله و أنهّما شيء واحد. ثمّ التفت نحو موفدي قريش قائلاً: انطلقا فلا والله لا أسلمَهم إليكما.

إلاّ أنّ «عمرو بن العاص» فكّر في حيلة جديدة تخلّصهم من موقفهم السّيء والمخزي، وهي: أن يخبر الملك بما يسيء إلى المسيح عليه السلام فقال في اليوم التالي للملك: إنّهم يقولون في عيسى بن مريم قولاً عظيماً. ولكنَّ جعفراً أجاب الملك في ذلك: نقول فيه الذي جاءنا به نبيّنا صلى الله عليه وآله هو عبد الله ورسوله وروحه وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول. ممّا سرّ النجاشي و رضي به وقال: هذا والله هو الحقّ. وقال للمسلمين: اذهبوا فأنتم آمنون في أرضي، من سَبّكُم غُرِم، ما أحبّ أنّ لي دبراً من ذهب، وإنّي آذيت رجلاً منكم. ثمّ ردّ على وفد قريش هداياهم قائلاً: فلا حاجة لي بها، فوالله ما أخذ الله منّي الرشوة حين ردّ عليّ ملكي فآخذ الرشوة فيه، وما أطاع الناس فيّ فأطيعهم فيه.[2] فخرجوا من عنده خائبين

١. أوّل الخطاب في ص ٢٠ من الكتاب.

٢. السيرة النبوية: ١/ ٣٣٨؛ إمتاع الأسماع : ٢١؛ بحار الأنوار: ١٨/ ٤١٤.

مقبوحين.

٢. الإسراء والمعراج

بدأ النبي ﷺ رحلته الفضائية من بيت «أُمّ هانئ» أُخت الإمام علي عليه السلام[١] إلى بيت المقدس في فلسطين، والّذي يسمّى المسجد الأقصى، وتفقّد بيت لحم مسقط رأس السيّد المسيح عليه السلام ومنازل الأنبياء وآثارهم، وصلّى عند كلّ محراب ركعتين. ثمّ بدأ في القسم الثاني من رحلته، المعراج إلى السماوات العلى، فشاهد النجوم والكواكب، واطّلع على نظام العالم العلوي، وتحدّث مع أرواح الأنبياء والملائكة، واطلع على مراكز الرحمة والعذاب ـ الجنّة والنار ـ ورأى درجات أهل الجنّة، و تعرّف على أسرار الوجود و رموز الطبيعة، ووقف على سعة الكون وآثار القدرة الإلهية المطلقة، ثمّ واصل رحلته حتى بلغ سدرة المنتهى، فوجدها مسربلة بالعظمة المتناهية والجلال العظيم. وهنا كان قد انتهى برنامج الرحلة، فأُمر بالعودة من حيث أتى، فمرّ في طريق عودته، على بيت المقدس ثانية، ثمّ توجه نحو مكّة، مارّاً على قافلةٍ تجاريةٍ خاصّة بقريش، وبعيرٌ لهم قد ضلّ في البيداء يبحثون عنه، وشرب من مائهم، ثمّ ترجّل عن مركبته الفضائية ـ البراق ـ في بيت أُمّ هانئ، قبل طلوع الفجر. فأخبرها بما حدث، كما كشف عنه في أندية قريش صباح نفس تلك الليلة. إلاّ أنّ قريشاً كعادتها كذّبته وأنكرته، على أساس عدم استطاعة النبي ﷺ القيام بذلك في ليلة واحدة، وطلبوا منه أن يصف بيت المقدس، فوصفه النبي ﷺ وصفاً شاملاً، مع ما شاهده في الطريق، وخاصة عير

---

١. مجمع البيان: ٦/ ٣٩٥؛ السيرة النبوية: ١/ ٣٩٦.

قريش، التي أكد لهم بأنّها الآن في موقع التنعيم، فلم تمض لحظات حتى طلعت عليهم العير، فحدّثهم أبو سفيان بكلّ ما أخبرهم به الرسول من ضياع بعيرهم في الطريق والبحث عنه.[١]

وقد اختلفت الأقوال عن وقت حدوث الإسراء والمعراج، فادّعى «ابن هشام و ابن إسحاق» انّه وقع في السنة العاشرة من البعثة الشريفة، وذهب المؤرّخ «البيهقي» انّه حدث في السنة الثانية عشرة منها، بينما قال آخرون إنّه وقع في أوائل البعثة، في حين أنّ فريقاً رابعاً أكد وقوعه في أواسطها. وربما يقال في الجمع بين هذه الأقوال انّه كان لرسول الله ﷺ معارج متعدّدة.

وهناك اعتقاد أنّ المعراج الذي فرضت فيه الصلاة وقع بعد وفاة أبي طالب عليه السلام في السنة ١٠ من البعثة. والذين تصوّروا أنّ المعراج وقع قبل هذه السنة مخطئون، لأنّ النبي ﷺ كان محصوراً في شعب أبي طالب منذ عام ٨ وحتى ١٠، فلم يكن المسلمون مستعدّين لوضع التكاليف عليهم. و أمّا سنوات ما قبل الحصار، فعلاوة على ضغوط قريش على المسلمين، والتي كانت مانعاً من فرض الصلاة عليهم، فإنّ المسلمين كانوا قلّة، ولم يكن نور الإيمان وأُصول الإسلام قد ترسخت بعد في قلوب ذلك العدد القليل، ولذا يستبعد أن يكونوا قد كلّفوا بأمرٍ زائدٍ مثل الصلاة في مثل تلك الظروف.

أمّا ما ورد في بعض الأخبار والروايات، بأنّ الإمام عليّاً عليه السلام صلّى مع الرسول ﷺ قبل البعثة بثلاث سنوات، فليس المراد منها الصلاة المكتوبة، بل كانت عبارة عن عبادةٍ خاصةٍ غير محدّدة، أو كان المراد منها الصلوات المندوبة

١. بحار الأنوار: ١٨/ ٢٨٣ و ٤١٠.

والعبادات غير الواجبة.[١]

وأمّا بالنسبة لما قيل وذكر عن معراج النبي ﷺ جسمانياً أو روحانياً، فقد قيل فيه الكثير، بالرغم من أنّ القرآن الكريم والأحاديث النبوية تؤكّد أنّ ذلك حدث جسمانياً، إلاّ أنّ بعض الآراء ترى أنّ ذلك وقع روحانياً، أي أنّ روح النبي ﷺ طافت في تلك العوالم ثمّ عادت إلى جسده ﷺ مرّة أُخرى، وذهب آخرون إلى أنّ كلّ ذلك حدث في عالم الرؤيا، ورؤيا الأنبياء صادقة.[٢] وربما دلّ تكذيب قريش وانزعاجها واستنكارها لحديث الرسول ﷺ على أنّ ذلك حدث جسمانياً. وإذا كان المراد من المعراج الروحاني هو التفكير في عظمة الحقّ وسعة الخلق والتدبير في مخلوقات الله ومصنوعاته ومشاهدة جماله وجلاله، فلا شكّ أنّ ذلك ليس من خصائص رسولنا الأكرم ﷺ بل إنّ كثيراً من الأنبياء والأولياء امتلكوا هذه المرتبة، بينما أعتبره القرآن الكريمُ من خصائصه ﷺ ونوع من الامتياز الخاصّ به ﷺ. كما أنّ حالة التفكير في عظمة الخالق والاستغراق في التوجه إليه، كانت تتكرر للرسول ﷺ في كلّ لليلة، وليس ليلة بعينها كما جرى وحدث في المعراج.

أمّا في العلم الحديث، فإنّ القوانين الطبيعية والعلمية الحالية لا تتلاءم مع معراج النبي ﷺ وذلك للأسباب التالية:

١. إنّ الابتعاد عن الأرض يتطلب التخلّص من جاذبيتها، أي إبطال مفعولها، والنبي ﷺ كان قد خرج عن محيط الجاذبية وأصبح في حالة انعدام الوزن، فكيف تمكن أن يطوى هذه المسافات بدون الوسائل والأدوات اللازمة، وعدم

---

١. يراجع في ذلك الكافي: ٣/ ٤٨٢.

٢. نقل العلاّمة الطبرسي في تفسير مجمع البيان إجماع علماء الشيعة على جسمانية المعراج: ٦/ ٣٩٥.

توافر الغطاء الواقي، الذي يصون الجسم من التبعثر والذوبان بفعل السرعة الهائلة؟

٢. و كيف تمكن من العيش و الحياة في أعالي الجو بدون وجود أوكسجين؟

٣. و كيف تمكن أن يصون نفسه من الأشعة الفضائية والأحجار السماوية؟

٤. و إذا كان الإنسان يعيش تحت ضغط معين من الهواء لا يوجد في الطبقات العليا من الجو، فكيف حافظ على حياته هناك؟

٥. لا يستطيع أيّ جسم أن يتحرّك بسرعة تفوق سرعة النور، التي هي ٣٠ ألف كم في الثانية، فكيف استطاع النبي ﷺ السير بتلك السرعة الهائلة ويرجع إلى الأرض سالمَ الجسم؟!

و الجواب على ذلك سهل ويسير، فإنّ البشر استطاع بأدواته وآلاته العلمية والتكنولوجية أن يعالج مشكلات عديدة في مجال ارتياد الفضاء، مثل مشكلة الأشعة الفضائية وانعدام الغاز اللازم للتنفس، كما أنّ العلماء يخطّطون للعيش على سطح الكواكب كالقمر والمريخ، وبذا فإنّ العلم يؤكّد سهولة ارتياد الفضاء وعدم استحالته، فإذا كان البشر في إمكانه أن يقوم بذلك عن طريق الأدوات والآلات العلمية، فإنّ الأنبياء يمكنهم فعلَها بواسطة قدرة الله سبحانه و تعالى وفعله. فالنبي ﷺ عرج بعناية وقدرة الله الذي خلق الوجود كلّه، وأقام هذا النظام البديع. فجميع العلل الطبيعية والموانع الخارجية مسخَّرة لله تعالى وخاضعة لإرادته، ومطيعة لأمره. وكأنّ النبي ﷺ يخبر البشرية وحتى الّذين يعيشون في هذا القرن: إنّني فعلت هذا بدون أيّة وسيلة، وإنّ ربّي قد منّ عليّ وعرّفني على نظام السماوات والأرض، وأطلعني بقدرته وعنايته على أسرار الوجود و رموز الكون.

وقال الإمام موسى الكاظم عليه السلام في ذلك: «إنّ الله يوصَف بمكان ولا يجري عليه زمان، ولكنّه عزّ وجلّ أرادَ أن يشرف به ملائكته وسكان سماواته، ويكرمهم بمشاهدته، ويريه من عجائب عظمته ما يخبر به بعد هبوطه، وليس ذلك على ما يقوله المشبِّهون ، سبحان الله تعالى عمّا يصفون».[1]

٣. سفر النبي صلى الله عليه وآله إلى الطائف

توفيت السيدة خديجة عليها السلام بعد وفاة أبي طالب، بشهر وخمسة أيّام، في السنة العاشرة من البعثة.[2] وهي التي سمّاها الرسول صلى الله عليه وآله عام الحداد أو الحزن. ومنذ هذا الوقت واجه صلى الله عليه وآله ظروفاً صعبة قاسية قلّما واجهها من قبل. فقد اصطدم منذ بداية السنة الحادية عشرة بأحوال قاسية مفعَمة بالعداء والحقد والأخطار التي هدّدت حياته الشريفة، بل افتقاد إمكانية نشر الدعوة. فلمّا هلك أبو طالب، نالت قريش من رسول الله صلى الله عليه وآله من الأذى ما لم تكن تطمع به في حياة أبي طالب، حتى اعترضه سفيهٌ من سفهاء قريش فنثر على رأسه تراباً. وفي البيت عندما بكت ابنته على وضعه هذا قال: «ما نالت منّي قريش شيئاً أكرهه حتى مات أبو طالب».[3]

وقد دفع هذا الأمر المتردّي، أن يبحث الرسول صلى الله عليه وآله عن بيئة أُخرى أفضل من بيئته لنشر الدعوة فيها، فاختار الطائف التي كانت تعتبر مركزاً هاماً آنذاك، فقرر السفر إليها وحيداً لمقابلة زعماء ثقيف، لعلّه يكسب نجاحاً في مهمته

---

١. علل الشرائع: ٥٥؛ البحار: ١٨/ ٣٤٧؛ تفسير البرهان: ٢/ ٤٠٠.
٢. تاريخ الخميس: ١/ ٣٠١.
٣. السيرة النبوية: ١/ ٤١٥؛ بحار الأنوار: ١٩/ ٥.

أو أنصاراً جدداً.

إلاّ أنّ عرضه لم يؤثر فيهم، بل إنهّم ردّوا عليه بصبيانية أوضحت تملّصهم من قبول الدعوة أو اعتناق الدين، بل أنّهم تمادوا في سلوكهم العدواني فأحاط به جمعٌ كبير منهم يسبّونه ويصيحون به، فالتجأ إلى بستان «عتبة وشيبة ابني ربيعة» للتخلّص من هؤلاء السفهاء، وعمد إلى ظل جلس فيه وهو يتصبب عرقاً، فقد ألحقوا الأذى بمواضع عديدة من بدنه الشريف، كما أنّ رجليه سالت منهما الدماء، ولما دعا الله سبحانه وتعالى أن يعينه على هؤلاء الأشرار، فقد تقدّم إليه ابنا ربيعة ـ اللّذان كانا ينظران إليه و يريان ما لقي من سفهاء أهل الطائف ـ بطبق من عنب قدمه إليه ﷺ غلام لهما اسمه «عداس النصراني» من أهل نينوى، فلمّا رأى ما يعلمه الرسول ﷺ من علوم عن المسيح عليه السلام أسلم على يديه.

إلاّ أنّ النبي ﷺ لم يتمكن من الرجوع إلى مكّة بسهولة، حيث خاف أذى المشركين، ممّا جعله يترك «نخلة» وهي واد بين الطائف ومكة، إلى حراء، فالتقى رجلاً من بني خزاعة طلب منه أن يخبر «المطعم بن عدي» بحالته، ويسأله أن يجير رسول الله ﷺ حتى يدخل مكة في أمان.

ورغم أنّ «المطعم» كان وثنياً، إلاّ أنّه قبل أن يجيره ﷺ فدخل الرسول ﷺ مكة ليلاً، ونزل في بيت «مطعم» و بات فيه، ثمّ دخل في الصباح مع أهل بيته إلى المسجد الحرام ثمّ إلى منزله.[1]

ولم ينس الرسول ﷺ عمله الطيب هذا، بل تذكّره حتى بعد وفاة المطعم، إذ أنّه أعلن في معركة بدر عن استعداده للإفراج عن جميع الأسرى لو كان حيّاً،

---

١. السيرة النبوية: ١/ ٣٨١؛ بحار الأنوار: ١٩/ ٧.

تقديراً لما قام به من إجارة وخدمة كبيرة له.

وكان النبي ﷺ يستخدم كلّ وسيلة وطريقة لنشر دعوته، فكان يقوم بالدعوة في كلّ وقت وكلّ مكان، منتهزاً الفرص المناسبة لذلك، مثل استغلاله لأسواق العرب الشهيرة: عكاظ والمجنة وذي المجاز، حيث كان الخطباء والشعراء يقفون فيها ليلقوا ما عندهم من شعر وخطب، وفكان النبي ﷺ يقف على مكان مرتفع خاطباً: «قولوا لا إله إلّا الله تفلحوا، وتملكوا بها العرب، وتذلّ لكم العجم، وإذا آمنتم كنتم ملوكاً في الجنة».[1]

كما أنّه كان يلتقي في مواسم الحج برؤساء القبائل وأشرافها يعرض عليهم دينه، ويدعوهم إلى الله سبحانه، ويخبرهم بأنّه نبي مرسل، ويقول ابن هشام في ذلك: كان ﷺ لا يسمع بقادم من العرب إلى مكة له اسم وشرف إلّا تصدّى له فدعاه إلى الله وعرض عليه ما عنده.

---

١. طبقات ابن سعد: ١/ ٢١٦.

المرحلة الجديدة في الدعوة
و نتائجها المؤثرة

٤. بيعة العقبة

سكنت يثرب قبيلتا الأوس والخزرج في القرن الرابع الميلادي بعد هجرتهم من اليمن، وهم من القحطانيين. كما سكن بجانبهم اليهود القادمين من شمال الجزيرة العربية. وكثيراً ما كان يحضر منهم جماعة إلى مكّة، فكان النبي ﷺ يلتقي بهم ويتصل معهم عارضاً عليهم دينه، وقد كان لهذه اللقاءات والاتّصالات أثرها فيما بعد ودافعاً لهجرة الرسول ﷺ إلى يثرب، فقد كان حجاجهم ينقلون أخباره ﷺ إلى أهاليهم، ممّا مكنهم التعرف عليه وعلى أهدافه. وقد تمّت تلك الاتّصالات فيما بين سنوات ١١، ١٢، ١٣ من البعثة.

ومن أشهر من تشرّف بمقابلة الرسول ﷺ «سويد بن الصامت» الذي أسلم ونشر الإسلام بين قومه، إلاّ أنّ الخزرج قتلته قبل يوم بعاث.[١] و «إياس بن معاذ» الذي رأى في إسلام أهله تخلّصاً من النزاع والتناحر بينهم، ليصبحوا بفضل الدين الجديد إخوة تزول بينهم أسباب العداء والقتال.

وكذلك تمّت مبايعة ستة أفراد من الخزرج والإيمان به وبالإسلام: إنّا قد تركنا

---

١. بعاث، موضع جرت فيه حرب بين الأوس والخزرج.

قومنا ولا قوم بينهم من العداوة والشرّ مثل ما بينهم، فعسى أن يجمعهم الله بك، فسنقدم عليهم فندعوهم إلى أمرك،ونعرض عليهم الذي أجبناك إليه من هذا الدين، فإن يجمعهم الله عليه، فلا رجل أعزّ منك.[١]

وكان لهؤلاء تأثيرهم الإيجابي في أهل يثرب، حيث أسلم عددٌ منهم، وقدم في السنة التالية ١٢ من البعثة، اثنا عشر رجلاً منهم، عقدوا مع النبي ﷺ بيعة العقبة، وهي أوّل بيعة في الإسلام، وكان أبرزهم: أسعد بن زرارة، وعبادة الصامت.

وكان نصّ البيعة، بعد الاعتراف بالإسلام والإيمان بالله وبرسوله: «بايعنا رسول الله ﷺ على ألاّ نشرك بالله شيئاً، ولا نسرق ولا نزني،ولا نقتل أولادنا، ولا نأتي ببهتان نفتريه من بين أيدينا وأرجلنا ولا نعصيه في معروف» ويرد عليهم الرسول ﷺ: «إن وفيتم فلكم الجنة، وإن غشيتم من ذلك شيئاً فأمركم إلى الله عزّ وجلّ، إن شاء عذّب وإن شاء غفر».

وطلبوا من النبي ﷺ أن يرسل إليهم من يعلّمهم القرآن والدين، إذ أنّهم نشطوا في نشر الإسلام بعد عودتهم إلى يثرب، فبعث إليهم: «مصعب بن عمير» الداعية النشط الذي تمكن من أن يجمع المسلمين في غياب الرسول ﷺ ويؤمهم ويصلّي بهم.[٢]

وهكذا فقد أحدث تقدُّم الإسلام في يثرب، هيجاناً كبيراً، وشوقاً عجيباً في نفوس المسلمين من أهلها، فانتظروا حلول موسم الحجّ للإلتقاء بالرسول ﷺ، فخرجت قافلة كبيرة منهم ضمت ٥٠٠ نفر، فيهم ٧٣ مسلماً بينهم امرأتان،

---

١. تاريخ الطبري:٢/ ٨٦؛ السيرة النبوية: ١/ ٤٢٧؛ بحار الأنوار: ١٩/ ٢٥.

٢. السيرة النبوية:١/ ٤٣٤؛ بحار الأنوار: ١٩/ ٢٥.

فالتقوا بالرسول ﷺ الذي واعدهم بالعقبة: «موعدكم العقبة في الليلة الوسطى من ليالي التشريق»، وهي الليلة ١٣ من شهر ذي الحجّة، فاجتمع بهم مع عمّه «العباس بن عبد المطلب» بعد أن مضى ثلث الليل ونام الناس، حتى لا يشعروا بخروجهم.

فتكلّم فيهم العباس قائلاً: إنّ محمّداً منّا حيث قد علمتم، وقد منعناه من قومنا، فهو في عزّ من قومه ومنعة في بلده، وإنّه قد أبى إلاّ الانحياز إليكم واللحوق بكم، فإن كنتم ترون أنّكم وافون له بما دعوتموه إليه، ومانعوه ممّن خالفه، فأنتم وما تحملتم من ذلك، وإن كنتم ترون أنّكم مسلّموه وخاذلوه بعد الخروج إليكم، فمن الآن فدعوه، فإنّه في عزّ ومنعة من قومه وبلده.

ثمّ تكلّم الرسول ﷺ فتلا القرآن ودعا إلى الله ورغّب في الإسلام ثمّ قال: «أبايعكم على أن تمنعوني ممّا تمنعون منه نساءكم وأبناءكم». فبايعوه على ذلك وهم في حماس وسرور عظيم.

كما أنّ النبي ﷺ عاهدهم على أن يبقى معهم، ويكون بجانبهم في سلمهم وحربهم: «أحارب من حاربتم وأسالم من سالمتم» ثمّ قال لهم: «أخرجوا إليّ منكم اثني عشر نقيباً ليكونوا على قومهم بما فيهم». فأخرجوا منهم اثني عشر نقيباً، فقال ﷺ: «أنتم على قومكم بما فيهم كفلاء ككفالة الحواريين لعيسي بن مريم، وأنا كفيل على قومي ـ أي المسلمين ـ فأُبايعكم على أن تمنعوني ممّا تمنعون نساءكم وأولادكم». فقالوا: نعم. فبايعوه على ذلك».

وكان النقباء ، ٩ من الخزرج و٣ من الأوس، وقد انفضّ الجمع بعد ذلك، بعد أن وعدهم الرسول ﷺ أن يهاجر إليهم في الوقت المناسب.[١]

---

١. بحار الأنوار: ١٩/ ٢٥؛السيرة النبوية:١/ ٤٤١؛طبقات ابن سعد:١/ ٢٢١.

أمّا بخصوص قبول أهل يثرب الدين الإسلامي أسرعَ من أهل مكّة الذين رفضوه خلال ثلاثة عشر عاماً، فإنّ هناك عاملين هامين كان لهما التأثير المباشر القويّ في ذلك:

١. وجود اليهود بالمدينة، وقيامهم بنشر الأخبار عن ظهور نبي جديد ودين جديد، ممّا هيّأ أهلها لقبول هذا الدين الذي كانوا ينتظرونه، الأمر الذي جعلهم أسرع في تقبلهم للدعوة خلال البيعة الأُولى، حين قال بعضهم لبعض: "والله إنّه للنبيّ الذي توعّدكم به اليهود فلا يسبقنكم إليه.

٢. كما أنّ الحروب الطويلة التي جرت بين أطراف أهل يثرب، والتي استمرت مائة وعشرين عاماً، قد أنهكتهم وكادت أن تذهب بما تبقّى من رمقهم، فملّوا الحياة، وفقدوا كلّ أمل في تحسن الأحوال والأوضاع، فبحثوا عن مخلّص لما هم فيه من حالة سيئة ومشكلات مزمنة. ولهذا تمنّوا أن يضع النبي ﷺ حداً لأوضاعهم المتردية فقالوا: «عسى أن يجمعهم الله بك، فإن جمعهم الله بك فلا رجل أعزّ منك».

وقد أحدث كلّ ذلك خوفاً عجيباً في قلوب قادة قريش وسادة مكة المشركين المتغطرسين، إذ أنّ ذلك يعني أنّ المسلمين وجدوا قاعدة قوية في قلب الجزيرة العربية، تجمع كلّ طاقات المسلمين المبعثرة، و تعمل معاً في نشر دينهم وعقيدتهم، ممّا سيشكل خطراً جديداً يهدّدهم في الصميم، ولهذا بادَرتْ قريشٌ في الاتّصال بالخزرجيّين للاستفسار عمّا حدث في العقبة. فحلف لهم المشركون من أهل يثرب أنّه لم يحدث ما يؤذيهم أو يهدد مصالحهم، ولم يعلموا عنه، وهم في قولهم صادقون، إذ أنّهم لم يعلموا بما حدث في العقبة.

وحاولوا إلقاء القبض عليهم قبل خروجهم من مكّة، إلاّ أنّهم كانوا قد

توجهوا قبل ذلك نحو المدينة، فظفروا بـ «سعد بن عبادة» الذي تولّوا ضربه بعد ربط يديه إلى عنقه، حتى خلّصه منهم: «المطعمُ بن عدي».[١]

وفي المدينة المنورة، كان قد أسلم فيها كلُّ قبيلة «بني عبد الأشهل» قبل أن يروا النبي ﷺ فأصبحوا من الدعاة إلى الإسلام والمدافِعين عن عقيدة التوحيد، بفضل نشاط الدعاة: مصعب بن عمير، وأسعد بن زرارة، اللّذين أثّرا في إسلام قادة القبيلة: أُسيد بن حضير وسعد بن معاذ، ثمّ إسلام الباقي.[٢]

وعندما اشتدّ إيذاء قريش للمسلمين بعد إسلام جماعة من أهل يثرب، طلب بعضُهم النجاة بنفسه والهجرة إلى أيّ مكان، فاستمهلهم الرسول ﷺ وقال: «لقد أخبرت بدار هجرتكم وهي يثرب، فمن أراد الخروج فليخرج إليها».[٣]

وبذا فقد ترك المسلمون مكّة وهاجروا إلى المدينة تدريجياً، حتّى لا تعلم بهم قريش، إلاّ أنّ زعماءها فطنوا لسرهم، فمنعوا السفر والتنقل لأيّ مسلم، وإعادة كلّ من وجدوه أثناء الطريق، وحبس زوجة كلّ مسلم أراد الهجرة. ولكن لحسن الحظ، لم يثمر كلّ ذلك، فإنّ معظم المسلمين تمكّنوا من الفرار والهجرة إلى يثرب، ما عدا النبي ﷺ والإمام علي عليه السلام و أبو بكر، وعدد قليل من المسجونين والمرضى من المسلمين. حتى حان الوقت الذي أقرّ فيه النبي ﷺ الهجرة من مكة في شهر ربيع الأوّل من السنة ١٣ من البعثة النبوية المباركة.

٥. الهجرة الكبرى

اجتمع رؤساء قريش في دار الندوة، للتشاور فيما حدث أخيراً، من تجمع

---

١. السيرة النبوية: ١/ ٤٤٩.
٢. إعلام الورى: ٥٩؛ بحار الأنوار: ١٩/ ١٠.
٣. طبقات ابن سعد: ١/ ٢٢٦.

القوى والعناصر الإسلامية وتمركزها في المدينة، فاتّخذوا قراراً قاطعاً وحاسماً وخطيراً، وهو القضاء على النبي ﷺ والتخلص منه بقتله، بواسطة اشتراك جميع القبائل في هذا العمل الإجرامي حيث قال المقترح: فتختاروا من كلّ قبيلة رجلاً قوياً ثمّ تسلحوه حساماً عضباً،وليهجموا عليه بالليل ويقطّعوه إرباً إرباً، فيتفرّق دمه في قبائل قريش جميعها، فلا يستطيع بنو هاشم و بنو المطلب مناهضة قبائل قريش كلّها في صاحبهم، فيرضون حينئذٍ بالدية منهم. فاستحسن الجميع هذا الرأي واتّفقوا عليه، ثمّ اختاروا القَتَلَة، على أن يؤدّوا مهمتهم بالليل أثناء الظلام.[١]

إلاّ أن جبرائيل عليه السلام نزل على الرسول ﷺ وأبلغه بمؤامرة المشركين فقرأ عليه قول الله تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يخرجُوكَ وَيمكرونَ وَيَمْكرُ اللهُ واللهُ خيْر الماكِرين﴾.[٢]

ثمّ إنّ النبي ﷺ قرر أن ينام شخص في فراشه ليتصوّر المشركون أنّه ﷺ موجود في منزله لم يبرحه، فيرتكز عملهم على محاصرة البيت دون الاهتمام بمراقبة الطرقات في نواحي مكة. فنام الإمام علي عليه السلام في فراش النبي ﷺ وحاصر المنزل أربعون فرداً من قريش، وخرج النبي ﷺ من الباب دون أن يشعر به أفراد قريش المكلّفون بقتله، حينما قرأ ﷺ سورة «يس» إلى قوله: ﴿فَهُمْ لاَ يُبْصِرُون﴾. وخروج النبي ﷺ بهذه الصورة والكيفية، فسرّه البعض بأنّ القوم المحاصرين كانوا نياماً لحظة خروجه، إلاّ أنّ آخرين يرون إنّه خرج من البيت عن طريق الإعجاز والكرامة دون أن يروه ويحسّنوا به.

وقبيل طلوع الفجر عند ساعة الصفر، هجم المتآمرون على فراش النبي ﷺ

---

١. طبقات ابن سعد: ١/ ٢٢٧؛ السيرة النبوية:١/ ٤٨٠.

٢. الأنفال:٣٠. ليثبتوك: ليسجنوك.

ففوجئوا بوجود الإمام علي عليه السلام يكشف عن نفسه، فغضبوا وندموا على انتظارهم الطويل حتّى الفجر، ولاموا أبا جهل الذي منعهم من دخول البيت فحمّلوه مسؤولية فشل الخطة، ولكنّهم أسرعوا في وضع خطه جديدة لترتيب أمر ملاحقته والقبض عليه.

وكان النبي صلى الله عليه وآله وأبو بكر قد أمضيا ليلة الهجرة وليلتين أُخريين في غار ثور الواقع في جنوب مكة، وذلك ليعمّي على قريش فلا يتبعوا أثره، إذ أنّ الطريق إلى المدينة يقع في شمال مكّة.

وبالنسبة إلى مصاحبة أبي بكر للنبي صلى الله عليه وآله فهي مسألة تاريخية غامضة، فيعتقد البعض أنّها كانت بالصدفة، أي أنّه تقابل معه في الطريق فاصطحبه معه إلى غار ثور، بينما يرى آخرون أنّ النبي صلى الله عليه وآله ذهب في نفس الليلة إلى منزل أبي بكر فخرجا في منتصف الليل إلى الغار.[1] في حين أنّ فريقاً ثالثاً يذهب إلى أنّ أبا بكر جاء إلى النبي صلى الله عليه وآله فأرشده الإمام علي عليه السلام إلى مخبأ النبي صلى الله عليه وآله.

أمّا قريش فقد بادرت إلى بثّ العيون والجواسيس في طرقات مكّة، ومراقبة مداخلها ومخارجها، وبعثت القافلة تقتص أثره صلى الله عليه وآله في كلّ مكان وخاصة طريق مكة ـ المدينة، كما عيّنت مائة من الإبل جائزة لمن يقبض عليه صلى الله عليه وآله ويردّه إليهم، أو لمن يأتي عنه بخبر صحيح.

وقد تمكّن المتتبعون لأثر قدم الرسول صلى الله عليه وآله من الوصول إليه عند باب الغار، إلاّ أنّهم استبعدوا وجودهما فيه، نظراً لنسج العنكبوت وبيض الحمام. فاستمرّت محاولات البحث ثلاثة أيّام بلياليها دون جدوى.

---

١ . تاريخ الطبري: ٢/ ١٠٠.

وقد تردّد على النبي ﷺ خلال تواجده في الغار: علي عليه السلام وهند بن أبي هالة (ابن خديجة) حسب رواية الشيخ الطوسي في أماليه، وعبد الله بن أبي بكر وعامر ابن فهيرة راعي أغنام أبي بكر، حسب رواية كثير من المؤرّخين.

والنقطة الهامة في هذه القضية هي مفاداة الإمام علي عليه السلام النبيّ بنفسه. وتعريض حياته لخطر الموت في سبيل الدين والإسلام وحياة النبي ﷺ، فهو نموذج رائع من الحبّ الحقيقي للحقّ، وقد مدحه الله تعالى في كتابه العظيم قائلاً: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغاء مَرْضاتِ اللهِ وَاللهُ رءُوفٌ بِالْعِباد﴾.[١]

وقد دفعت هذه العملية التضحوية الكبرى كبار علماء الإسلام إلى اعتبارها واحدة من أبرز وأكبر فضائل الإمام عليه السلام وإلى وصفه بالفداء والبذل والإيثار، واعتبار الآية المذكورة في شأنه من المسلمات قلّما بلغ الحديث في التفسير والتاريخ إليها.[٢]

وقد طلب النبي ﷺ من الإمام علي عليه السلام أن يبتاع بعيرين له ولصاحبه، فقال أبو بكر: قد كنت أعددتُ لي ولك يا نبي الله راحلتين نرتحلهما إلى يثرب، فدفع إليه الرسول ﷺ ثمنهما.[٣]

كما أوصى النبي ﷺ علياً عليه السلام بأن يؤدّي أمانته على أعين الناس، وأمره بترتيب رحلة الفواطم: فاطمة الزهراء عليها السلام، وفاطمة بنت أسد أُمّ الإمام علي عليه السلام وفاطمة بنت الزبير، ومن يريد الهجرة معه من بني هاشم إلى يثرب، وما يحتاجون له من زاد وراحلة.

---

١. البقرة:٢٠٧.

٢. مسند أحمد:١/ ٨٧؛ كنز العمال:٦/ ٤٠٧؛ الغدير:٢/ ٤٧.

٣. الكامل:٢/ ٧٣؛ السيرة الحلبية:٢/ ٥٣.

وقد هيّأ الإمام عليه السلام أوّلاً ثلاث رواحل ودليلاً أميناً يدعى «أريقط» للترحال إلى المدينة، فخرج النبي صلى الله عليه وآله مع صاحبه متوجهَين إلى يثرب سالكَين الخط الساحلي.

ومن هذه الليلة يبدأ تاريخ المسلمين، حيث بدأوا يقيسون كلّ ما يقع من الحوادث بذلك العام فيحددون تاريخه وزمان حدوثه.

ففي العام الأوّل للهجرة، حقق المسلمون انتصاراً عظيماً وباهراً، وتأسّست لهم فيه حكومة مستقلة، وتخلّصوا من التشرذم والتبعثر، وتمركزت قواهم وعناصرهم في نقطة واحدة وبيئة حرة، لا أثر فيها للكبت والاضطهاد، ممّا جعلهم لكلّ ذلك يتخذون هذا العام مبدأ لتاريخهم.

فالنبي صلى الله عليه وآله بنفسه جعل التاريخ الهجري، وإنّ أي إعراض وتجاهل له واختيار تاريخ آخر مكانه، إعراض عن سنة رسول الإسلام الكريم صلى الله عليه وآله ومخالفة لما رسمه للمسلمين. وأمّا ما اشتهر بين المؤرّخين من أنّ الخليفة «عمر بن الخطاب» هو الذي جعل هجرة النبي صلى الله عليه وآله مبدأ للتاريخ باقتراح وتأييد الإمام علي عليه السلام فهو غير صحيح، لأنّ شيئاً من الإمعان والتبصّر في مراسلات النبي صلى الله عليه وآله ومكاتباته المدرجة في كتب التاريخ والسيرة والحديث، تثبت أنّ النبي صلى الله عليه وآله هو الذي اعتمد تلك الحادثة الكبرى كمبدأ للتاريخ، فقد أرّخ رسائله وكتبه إلى أُمراء العرب وزعماء القبائل وغيرهم من الشخصيات البارزة، بذلك التاريخ الهجري، فهناك كثير من الكتب أُرّخت قبل السنة ١٦ أو ١٧ من الهجرة، وقد يكون في السنة الخامسة الهجرية.

كما أنّ أصحابه صلى الله عليه وآله أرّخوا في أيّام حياته، الحوادث الإسلامية بهجرته، فقالوا: وقع كذا في شهر كذا من الهجرة، فمثلاً قيل: حولت القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة في شهر شعبان، ستة عشر شهراً أو ١٧ شهراً أو ١٨ شهراً.

وفي السنة الخامسة من الهجرة، أمر الرسول ﷺ بإحلال السنة الهجرية مكان الشهر الهجري.

٦. وصول النبي ﷺ إلى المدينة

تمكّن «سراقة بن مالك» من اللحاق بالنبي ﷺ وأبي بكر وهما في الطريق إلى المدينة، فدعا عليه النبي ﷺ فجمح به فرسُه وطرحه أرضاً، فعرف أنّ ذلك من دعاء النبي ﷺ عليه، فاعتذر له وطلب منه السماح له بالعودة على ألاّ يخبر أحداً بمكانهما وموقعهما. ففعل، وردّ كلّ من بحث عنهما في الطريق.

أمّا الرسول ﷺ فقد وصل إلى قباء في ١٢ من شهر ربيع الأوّل، يوم الاثنين، ونزل على: «كلثوم بن الهرم» شيخ بني عمرو بن عوف، ولبث في قباء إلى آخر الاسبوع، وبنى فيها مسجداً.[١]

وانتظر لحين قدوم الإمام علي عليه السلام والسيدة فاطمة عليها السلام حيث كان قد لحق به الكفّار وحاولوا محاربته، إلاّ أنّه عليه السلام تمكن من التخلص منهم، فتركه القوم خائفين من غضبه وقوته، فواصل سيره باتّجاه المدينة، حيث وصلها في منتصف شهر ربيع الأوّل.

ولمّا انحدر النبي ﷺ من ثنية الوداع ـ وهي منطقة قريبة من المدينة ـ و حطّ قدمه على تراب يثرب، استقبله الناس رجالاً ونساء، كباراً و صغاراً، استقبالاً عظيماً، ورحّبوا به أعظم ترحيب، مردّدين أناشيد فرحين به: طلع البدر علينا من ثنيات الوداع.

---

١. تاريخ الخميس: ١/ ٣٣٨.

وأصرّ القوم على النزول عند أحدهم، إلاّ أنّ النبي ﷺ كان يقول عن ناقته: «خلّوا سبيلها فإنّها مأمورة». فانتهت الناقة إلى أرض واسعة كانت ليتيمين من الخزرج يقال لهما: «سهل و سهيل» كانا في حجر أسعد بن زرارة، فبركت على باب «أبي أيّوب خالد بن يزيد الأنصاري»، فاغتنمت أُمّ أيّوب الفرصة وبادرت إلى رحل الرسول ﷺ فحلّته وأدخلته منزلها، وعندما تنازع القوم في أخذه، قال الرسول ﷺ: «أين الرحل؟» فقالوا: أدخلته أُمّ أيّوب في بيتها، فقال ﷺ: «المرء مع رحله».

وقد اتّفق كُتّاب السيرة على أنّ الرسول ﷺ دخل المدينة يوم الجمعة، حيث صلّى الجمعة في بني سالم بن عوف، وهي أوّل جمعة جمعها ﷺ في الإسلام، وخطب أوّل خطبة في المدينة كان لها الأثر العميق في قلوبُ أهلها ونفوسهم.

القسم الثاني

المدينة المنورة ـ يثرب

و فيه فصول

٥ . الأحداث في المدينة المنوّرة

٦ . أحداث السنة الثالثة والرابعة من الهجرة

٧ . أحداث السنة الخامسة والسادسة من الهجرة

٨ . أحداث السنة السابعة والثامنة من الهجرة

٩ . أحداث السنة التاسعة و العاشرة والحادية عشرة

الفصل الخامس

الأحداث في المدينة المنوّرة

- السنة الأولى من الهجرة
- بناء مسجد في المدينة المنوّرة
- المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار
- معاهدة التعايش السلمي مع اليهود
- السنة الثانية من الهجرة
- تغيير اتّجاه القبلة
- معركة بدر ونتائجها الإيجابية
- العمليات العسكرية الصغرى
- زواج السيّدة فاطمة الزهراء عليها السلام.

حوادث السنة الأولى
من الهجرة

كان أوّل عمل رأى النبي ﷺ أن يقوم به قبل أي عمل آخر، هو أن يبني محلاً للمسلمين ليتسنّى لهم أن يعبدوا الله فيه ويذكروه في أوقات الصلوات، مضافاً إلى أنّه كان هناك حاجة أكيدة لمركز يجتمع فيه أعضاء حزب الإسلام ـ حزب الله ـ كلّ أُسبوع في يوم معيّن، ويتشاوروا في مصالحهم وشؤونهم، بجانب أدائهم صلاة العيد فيه مرّتين كلّ عام. ولم يكن المسجد في عهد الرسول ﷺ للعبادة فحسب، بل لتُلقى فيه العلوم والمعارف الإسلامية والتربوية، إضافة إلى الأُمور القضائية والفصل بين الخصومات وإصدار الحكم على المجرمين، فكان بمنزلة المحكمة في هذا اليوم. كما استخدمه الشعراء في إلقاء قصائدهم أمام الرسول ﷺ الذي اتّخذه قاعة لإلقاء خطبه الحماسية والجهادية في تعبئة المسلمين ضدّ الكفّار والمشركين. ممّا يبين أنّ النبي ﷺ أراد بذلك أن يعلن للجميع أنّ دينه ليس مجرّد أمر معنوي لا يتصل بالأُمور الدنيوية، بل هو دين شامل كامل يهتم بالتقوى وشؤون المعيشة والأوضاع الاجتماعية.

وقد استمرت أغلبية المساجد على هذا المنوال حتى مطلع القرن ٤ هـ حيث كانت تتحول في غير أوقات الصلاة إلى مراكز لتدريس العلوم المتنوعة، بل إنّها حتى بعدما فصلت المراكز العلمية عن المساجد فيما بعد، بقيت المدارس تبنى بجانب المساجد، الأمر الذي جسّد الصلة الوثيقة والارتباط الأقوى بين العلم والدين.

وفي بناء المسجد اشترك النبي ﷺ بنفسه في عملية البناء، ينقل الحجارة واللبن،ويردّد وهو يعمل: «لا عيش إلّاعيش الآخرة، اللّهم ارحم الأنصار والمهاجرة». وكان «عمار بن ياسر» ممّن عمل بشدّة و قوّة مع الرسول ﷺ في البناء، إذ كان يحمل اللبن والأحجار بدل النبي ﷺ وبدل الآخرين، حتى شكا إليه ﷺ فعلهم وقال: يا رسول الله قتلوني يحملون عليّ ما لا يحملون. فقال له النبي ﷺ: «ويح ابن سمية ليسوا بالذين يقتلونك، إنّما تقتلك الفئة الباغية».[١]

وبنى كذلك بجانب المسجد صُفَّة يسكن فيها الفقراء والمهاجرون المحرومون، وكلف «عبادة بن الصامت» بأن يعلّمهم الكتابة وقراءة القرآن.

ثمّ بعد ذلك بنيت منازله ومنازل أصحابه حول المسجد.

وفي هذه البيئة الجديدة، واجه النبي ﷺ ثلاث مشكلات أو قضايا أساسية:

١. قريش و الوثنيين في شبه الجزيرة العربية.

٢. اليهود في المدينة أو خارجها، مع توافر الأموال لديهم.

٣. الاختلاف بين المهاجرين والأنصار، و بين الأنصار أنفسهم ـ الأوس

---

١. السيرة الحلبية: ٢ / ٧١؛ تاريخ الخميس:١/ ٣٤٥.

والخزرج ـ أي الجبهة الداخلية.

وقد تمكّن الرسول ﷺ من التغلّب على تلك المشكلات والقضايا بأساليب حكيمة وسياسية محنّكة. فبالنسبة إلى التناقضات بين فئات المجتمع، فقد عالجها بالمؤاخاة بين المهاجرين والأنصار، حينما جمعهم الرسول ﷺ وقال لهم: «تآخوا في الله أخوين أخوين». فأصبح هذا التآخي والوحدة بين الأطراف المتنازعة، طريقاً لحلّ المشكلات الأُخرى. كما اختار علياً عليه السلام أخاً لنفسه وقال: «يا عليّ أنت أخي في الدُّنيا والآخرة».

أمّا مشكلة يهود يثرب، فإنّ النبي ﷺ أدرك أنّه ما لم تصلح الأوضاع الداخلية في المدينة، ومالم يضم اليهود إلى جانبه، أي أن يقيم وحدة سياسية متوسعة، فإنّ شجرة الإسلام لن تتمكن من النمو، بالإضافة إلى أنّه لن يتمكن من معالجة القضية الأُخرى وهي خطر قريش. ومن هنا رأى النبي ﷺ أن يتقدّم بالتفاهم معهم بعقد معاهدة تعايش سلمي ودفاع مشترك بين الأنصار والمهاجرين، يوقّع عليها اليهود أيضاً.

وتعتبر هذه المعاهدة من أهمّ الأعمال،ومسنداً تاريخياً قوي الدلالة، تكشف عن مدى التزام الرسول ﷺ بمبادئ الحرية و العدالة، كما تكشف عن حنكته السياسية حيث استفاد من هذه الوسيلة من أجل إيجاد جبهة متحدة قوية في وجه الحملات الخارجية، فهي في الواقع واحدة من أكبر الانتصارات السياسية التي أحرزتها الحكومة الإسلامية الناشئة في ذلك الوقت، بل هي أعظم معاهدة تاريخية على الإطلاق. وهي نموذج كامل لرعاية الإسلام وحرصه على مبدأ حرية الفكر والاعتقاد، وضرورة التعاون، وتوضيح حدود صلاحيات واختيارات القائد

ومسؤولية الموقعين عليها. وقد احترم فيها النبي ﷺ دين اليهود وثرواتهم في إطار شرائط معينة.

وبالإضافة إلى التعاهد مع يهود يثرب، فإنّ النبي ﷺ عقد مع طوائف اليهود الأُخرى: بني قريظة ، بني النضير، وبني قينقاع، معاهدات مماثلة فيما بعد، كان من أهمّ بنودها:

ـ عدم الاعتداء على الرسول ﷺ و أصحابه، فإن فعلوا فإنّ الرسول ﷺ في حلّ من سفك دمائهم وسبي ذراريهم ونسائهم والاستيلاء على أموالهم.

إلاّ أنّ اليهود تميّزوا بمجادلة النبي ﷺ وطرح الأسئلة العويصة عليه بغية إحراجه وزعزعة إيمان المسلمين به ﷺ، و لكن جميع تلك المخططات باءت بالفشل، و قلّ تأثيرها في صفوف المسلمين، بل إنّها ساعدت في الواقع على إقبال بعضهم على الإسلام، كما حدث لعبد الله بن سلام الذي كان من علماء اليهود و أحبارهم، أعلن إسلامه بعد سلسلة مناظرات و مجادلات مطوّلة، كما التحق بعده عالم آخر منهم هو «المخيريق».

ولم يكتف اليهود بذلك أنّهم استخدموا أُسلوب المؤامرات والدسائس مثل: «فرّق تسد» لإضعاف المسلمين، وذلك باستغلال رواسب الماضي بين الأوس والخزرج؛ وإثارة العداء بينهم، وإقامة العلاقات السرية مع مشركي الأوس والخزرج والمنافقين، واشتراكهم صراحة في اعتداءات قريش على المسلمين في الحروب التي دارت بين الطرفين، فقدموا كلّ دعم ومساندة للوثنيين والعمل لصالحهم، كما اشتهروا بنقض العهود والمواثيق، الأمر الذي أدّى إلى وقوع مصادمات وحروب مستمرة بينهم و بين المسلمين، نتج عنه إنهاء الوجود اليهودي

في المدينة.

أمّا المشكلة الأخيرة والمرتبطة بإعتداءات قريش، فإنّ الفصل القادم يتناولها بالتفصيل.

وقد أقام النبي ﷺ في المدينة، منذ ربيع الأوّل من السنة الأُولى للهجرة إلى شهر صفر من السنة الثانية. وأسلم في هذه الفترة من تبقّى من الأوس و الخزرج، و لم يبق دار من دور الأنصار إلاّ أسلم أهلُها، ماعدا بعض الفروع و العوائل ممّن بقوا على شركهم، إلاّ أنّهم أسلموا بعد معركة بدر.[1]

١. السيرة النبوية: ١/ ٥٠.

أحداث السنة الثانية
من الهجرة

تميّزت هذه الفترة بالاستعراضات العسكرية، و المناورات الحربية، واستعراض القوّة، التي أمر بها الرسول ﷺ منذ الشهر الثامن من الهجرة حتى رمضان من السنة الثانية، وهي أوّل مناورات عسكرية في تاريخ المسلمين.

كما تميزت الفترة بحدثين عظيمين كان لهما الأثر الكبير في حياة المسلمين وهما: واقعة بدر الكبرى، وتغيير جهة القبلة.

وقد راج في كتابات المؤرّخين وكتاب السيرة، مصطلح الغزوة،والسريّة. فالغزوة هي تلك العمليات العسكرية التي كان يقودها النبي ﷺ بنفسه. أمّا السريّة فهي مجموعات عسكرية صغيرة يقودها أحد قوّاده ، دون أن يشترك فيها الرسول ﷺ.

وقد أعد أوّل لواء عسكري بقيادة «حمزة بن عبد المطلب» حيث سيّره النبي ﷺ مع ثلاثين فرداً إلى سواحل البحر الأحمر حيث تمر في طرقاته قوافل قريش التجارية. ولم يحدث أيّ قتال بينهم.

وبعث النبي ﷺ بسرية أُخرى بقيادة «عبيدة بن الحارث بن عبد المطلب»

في ستين فرداً بهدف التعرض لقافلة قريش التجارية. إلاّ أنّ قتالاً لم يجر بين الأطراف.

كما بعث سرية قادها «سعد بن أبي وقاص» لرصد تحركات قريش. أمّا في شهر صفر من السنة ٢ هـ فقد أناب على المدينة «سعد بن عبادة» وقاد بنفسه مجموعة من المهاجرين والأنصار لملاحقة ركب قريش التجاري واعتراضه، حتى بلغ «الأبواء»، ولكنّه رجع دون أن يلقى أحداً منهم.[1]

وخرج أيضاً في شهر ربيع الأوّل من السنة نفسها مع ٢٠٠ فرد حتى وصل إلى «بواط» قرب ينبع، ـ على بعد ٩٠ كم من المدينة ـ ولكنّه لم يظفر بقافلة قريش بقيادة «أُميّة بن خلف».

كما أنّه خرج في شهر جمادى الأُولى لاعتراض أكبر قافلة تجارية لقريش خارجة من مكة نحو الشام،بقيادة «أبي سفيان» إلاّ أنّه لم يلتق بهم في «ذات العشيرة».

أمّا «عبد الله بن جحش» فقد بعثه الرسول ﷺ في شهر رجب على رأس أفراد، لملاحقة قافلة قريش التجارية، فنزل نخلة ـ بين مكة والطائف ـ و تقابل مع قافلة قرشية بقيادة ـ «عمرو بن الحضرمي» فباغتهم المسلمون و قاتلوهم واستولوا على أموالهم بالإضافة إلى القبض على أسيرين.

إلاّ أنّ الرسول ﷺ انزعج لحدوث القتال في شهر رجب الحرام، وخاصة عندما استغلت أطراف عدّة كاليهود وقريش هذه القضية للتشهير بالرسول ﷺ وإنّه استخدم الشهر الحرام فسفك فيه الدماء وأخذ الأموال.

---

١. تاريخ الخميس: ١/ ٣٦٣.

وكذلك المسلمون فقد عابوا على عبد الله بن جحش فعلَتَه هذه. إلاّ أنّ آية قرآنية نزلت فأبعدت تلك المخاوف والحيرة التي أصبح فيها المسلمون.

وقد غنم المسلمون منها، فكانت أوّل غنيمة حصل عليها المسلمون، وأمّا الأسيران فلم يقبل النبي ﷺ إطلاق سراحهما إلاّ بعد أن تطلق قريش سراح أسيرين مسلمين، فتم تبادل الأسرى بين الطرفين.[١]

وبذا فإن الهدف من تلك العمليات العسكرية الصغرى، وإرسال القوات الصغيرة، كان هو تحصيل وجمع المعلومات عن العدو ورصد تحركاته وخططه، وليس كما ادّعى المستشرقون، إنّها لمصادرة أموال قريش والسيطرة عليها لتقوية نفسه. إذ أنّ السرايا لم يتعد عدد أفرادها عن الستين أو الثمانين رجلاً، بينما كان يحرس قوافل قريش أعداد أكبر من ذلك، كما أنّ الهدف منها لم يكن لمجرّد القتال وسفك الدماء أو الانتقام، لأنّ الأعداد لم تكن كافية لإجراء قتال أو حرب مع العدو. ويؤكد ذلك انزعاج النبي ﷺ من حدوث القتال الذي جرى بين «ابن جحش» و بين أفراد من قريش، لأنّه: «ما أمرهم رسول الله ﷺ بالقتال في الشهر الحرام ولا غير الشهر الحرام، وإنّما أمرهم أن يتحسّسوا أخبار قريش».[٢]

كما أنّ النبي ﷺ لم يستخدم في تلك الغزوات الصغرى أحداً من الأنصار، وذلك أنّهم بايعوه في «العقبة» على الدفاع عن المسلمين، فالمعاهدة بينهم كانت دفاعية، وقد تعهدوا بموجبها بالدفاع عن النبي ﷺ إذا قصده عدو، وبالرغم من ذلك، فإنّه إذا خرج بنفسه قائداً للعمليات، فإنّه كان يأخذ معه جماعة من الأنصار، تقوية لروابط الإخوة والوحدة بين المهاجرين والأنصار.

---

١. المغازي: ١/ ١٣؛ السيرة النبوية: ١/ ٦٠٣.

١. المغازي: ١/ ١٦.

ويؤكد ذلك إنّه ﷺ لم يشركهم في عمليات قتالية هجومية ابتداء، إلّا ما حدث بعد ذلك في معركة بدر.

و هكذا فإنّ النبي ﷺ استهدف من تلك السرايا والعمليات العسكرية التفتيشية، وعقد الاتفاقات و المعاهدات العسكرية مع القبائل المتواجدة على خطوط التجارة المكية، هو إعلام قريش بقوّة المسلمين عسكرياً، وإنّ جميع طرق التجارة المكية أصبحت في متناول يده، بحيث غدا في إمكانه أن يشل إقتصاد مكة و يهدد خطوطهم، خاصة أنّ التجارة كانت عمود الإقتصاد المكي وأمراً حيوياً لهم،ولذا كان على قريش في هذه الحالة أن تعيد النظر في مواقفها العدائية، وحساباتها في ضوء الأحوال الجديدة، فتترك للمسلمين حرية الدعوة والعقيدة، وتفتح لهم الطريق لزيارة بيت الله الحرام، ونشر التوحيد في أنحاء الجزيرة العربية وخاصة الحجاز.

١. تغيير اتّجاه القبلة

أمّا الحدث الآخر الهام في هذه الفترة فكان تحويل القبلة إلى الكعبة، فقد تمّ في الشهر ١٧ من الهجرة، أي في شهر رجب، حين أصبحت قبلة للمسلمين بمعنى انّهم غدوا يتوجهون إلى المسجد الحرام أثناء الصلوات بدل بيت المقدس، فقد صلّى الرسول ﷺ ١٣ عاماً في مكّة نحو بيت المقدس. ولمّا زاد إيذاء اليهود للرسول ﷺ بعد تنامي قوّة المسلمين وانتشار الإسلام، وقولهم: «أنت تابع لنا تصلّي إلى قبلتنا»[1]، فاغتمَّ الرسول ﷺ لذلك وشق عليه، فانتظر فرجاً و وحياً من

١. أو قولهم: مادرى محمد وأصحابه أين قبلتهم حتى هديناهم. مجمع البيان:١/ ٢٥٥.

جانب الله، حتى نزلت الآية: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّماءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبلَةً تَرضاها﴾.[١] فكان تغيير القبلة واحداً من مظاهر الابتعاد عن اليهود و اجتنابهم، كما أنّ اتّخاذ الكعبة قبلة، كان من شأنه كسب رضا العرب واستمالة قلوبهم، وترغيبهم في الإسلام، تمهيداً لاعتناق دين التوحيد، ونبذ الأصنام، وخاصة أنّ الكعبة كانت موضع احترام العرب وتقديسهم منذ أن رفع النبي إبراهيم عليه السلام قواعدها.

وقد تمّ التحويل خلال الركعة الثانية من صلاة الظهر، حين أخذ جبرائيل عليه السلام يد النبي صلى الله عليه وآله وأداره نحو المسجد الحرام، فتبعه الرجال والنساء في المسجد، فتوجه الرجال مكان النساء واتخذت النساء مكان الرجال.[٢]

٢. معركة بدر

كان من أساليب النبي صلى الله عليه وآله في الحروب، جمع المعلومات حول استعدادات العدو، ومدى تهيّئه و مكان تواجده و تمركزه، ومعنويات أفراده، وهي مسائل تحظى بالأهمية في المجال العسكري حتى اليوم. وحيث إنّ المعلومات التي تجمعت لدى الرسول صلى الله عليه وآله تؤكد أنّ قافلة كبرىٰ لقريش شارك فيها ٧٠ أهل مكّة بأموالهم، ويحمل بضائعها ألف بعير، وتقيّم بخمسين ألف دينار، ويقودها أبو سفيان بن حرب، في أربعين رجلاً، وحيث إنّ أموال المسلمين كانت قد صودرت في مكة على أيدي قريش، فإنّ الوقت كان مناسباً للمسلمين لاستعادة أموالهم،

---

١. البقرة: ١٤٤.

٢. بحار الأنوار: ١٩/ ٢٠١.

بالاحتفاظ بأموال قريش إلى أن يعيدوا إليهم أموالهم المصادرة، وإلاّ فإنّهم يتصرفون في هذا المال كغنائم حرب يقسمونها فيما بينهم.

ولذا فإنّ النبي ﷺ خرج في ٣١٣ رجلاً، كان منهم ٨٢ من المهاجرين، و١٧٠ من الخزرج،و٦١ من الأوس، في يوم الاثنين الثامن من شهر رمضان، قاصداً تحقيق ذلك الهدف، وعقد رايتين سلم إحداهما إلى مصعب بن عمير والأُخرى وهي العقاب إلى الإمام علي عليه السلام، فوصل إلى «وادي ذفران».[1]

ونظراً لتخوف أبي سفيان من التعرض لهجوم من جانب المسلمين، فقد أرسل أحد رجاله إلى مكّة يستغيث بهم لنصرته، ممّا دعا أهلها إلى الاستعداد والتجهّز للخروج بقيادة رؤسائهم وعظمائهم. وكان ذلك مفاجأة للنبي ﷺ الذي لم يعدّ رجاله للحرب والمواجهة العسكرية، بل لهجوم يحصل منه على الأموال المصادرة. فعقد مجلساً للشورى استطلع فيه آراء رجاله في الانسحاب من الموقع إلى المدينة، أو مجابهة العدو القائم عسكرياً؟ فاتّفق الجميع على المواجهة بالسير لملاقاة العدو رغم عددهم القليل، فتحركوا نحو بدر.[2]

وبالأُسلوب العسكري السليم عرف النبي ﷺ مكان العدو، وعددهم وزعماءهم كما عرف موعد وصولهم إلى ماء بدر. فقال لأصحابه: «هذه مكة قد ألقت إليكم بأفلاذ كبدها».[3]

إلاّ أنّ أبا سفيان علم بملاحقة المسلمين له ومطاردتهم لقافلته،فابتعد عن بدر عند رجوعه من الشام واتّخذ جهة ساحل البحر الأحمر،وبعث أحدهم يخبر

---

١. كانت تمر به قافلة قريش التجارية، ويقع على مرحلتين من بدر.

٢. المغازي للواقدي:١/ ٤٨؛ السيرة النبوية:١/ ٦١٥.

٣. السيرة النبوية:١/ ٦١٧.

قريشاً بإمكانية الإفلات من يد محمّد ﷺ وأصحابه، ولكنّ «أبا جهل» أصرّ على مواصلة التقدم نحو يثرب وعدم الرجوع إلى مكة قائلاً: والله لا نرجع حتى نرد بدراً، فنقيم عليه ثلاثاً، فننحر الجُزُر ـ الأباعر ـ و نطعم الطعام ونسقي الخمر، وتعزف لنا القيان والمغنيات، وتسمع بنا العرب وبمسيرنا وجمعنا، فلا يزالون يهابوننا أبداً بعدها. وكان لكلماته أثرها في تشجيعهم على السير نحو المدينة، فنزلوا في بدر.

أمّا في الجانب الإسلامي فقد تقدّم الحباب بن المنذر باقتراح، على السير إلى أدنى ماء من القوم، ودفن العين والآبار، وبناء حوض يُملأ بالماء يستخدمونه للشرب، كما اقترح سعد بن معاذ بناء برج عسكري يقود منه النبي ﷺ العمليات العسكرية، ويشرف على سيرها، فيكون مأمناً له من كيد الأعداء.

أمّا قريش فقد تحركت باتجاه بدر صباح يوم ١٧ من شهر رمضان، فاستطلعوا أخبار المسلمين، فعرفوا عددهم وعدتهم. إلاّ أنّه حدث انقسام في الرأي بينهم، حول الموقع، حين دعا بعض زعمائهم إلى ترك الموقع والعودة إلى مكة دون إجراء أي قتال أو إبداء أي عمل عدائي ضدّ المسلمين، كان من بينهم: عتبة بن ربيعة، الذي طلب منهم العودة إلى مكّة دون حرب، إلاّ أنّ أبا جهل تمكّن من تغيير الموقف لصالح الحرب فحمّسهم للقتال.

وكان التقليد المتّبع عند العرب في الحروب، أن يُبدأ القتال بالمبارزات الفردية، ثمّ تقع بعدها الحملات الجماعية، فدعا ثلاثة من صناديد قريش، المسلمين إلى المبارزة وهم: عتبة ، و شيبة، وهما ابنا ربيعة بن عبد شمس، والوليد بن عتبة بن ربيعة، فخرج إليهم من المسلمين ثلاثة من الأنصار هم: عوف و معاذ ابنا الحارث، و عبد الله بن رواحة. إلاّ أنّ قريشاً رفضت منازلتهم وطلبت

أفراداً من مكة، فأمر النبي ﷺ عبيدة بن الحارث وحمزة و علياً بالمبارزة. فبارز حمزة شيبة، وبارز عبيدة عتبة، وعليّ بارز الوليد، ثمّ اتّجه حمزة وعلي بعد الفراغ منْ قتل خصميهما إلى عتبة وقتلاه. وبعد هذه المبارزة بدأ الهجومُ العام وتزاحفوا،فعدّل النبي ﷺ الصفوف ورجع إلى العريش ـ برج القيادة ـ فكان ينزل بين الحين والآخر ويحرضهم على القتال والمقاومة، فقد كان لكلماته أثرها العميق في النفس، والشوق إلى الجنّة بالشهادة.

أمّا خسائر الحرب، في الأرواح والأموال، فإنّ المسلمين فقدوا ١٤ رجلاً، بينما قُتل من المشركين سبعون، وأُسر منهم سبعون، كان من أبرزهم: النضر بن الحارث، عقبة بن أبي معيط، وسهيل بن عمرو، و العباس بن عبد المطلب، وأبو العاص بن الربيع ـ صهر النبي ﷺ.

وقد دفن شهداء بدر في جانب من أرض المعركة،ولا تزال قبورهم موجودة، أمّا قتلى المشركين فأمر الرسول ﷺ بإلقائهم في البئر، ووقف ﷺ عليها فخاطب القتلى قائلاً: «يا أهل القليب، بئس عشيرة النبي كنتم لنبيكم، كذبتموني وصدقني الناس، وأخرجتموني وآواني الناس وقاتلتموني ونصرني الناس، ثمّ قال: هل وجدتم ما وعدكم ربّكم حقّاً، فإنّي قد وجدت ما وعدني ربّي حقّاً».[1]

ثمّ صلّى العصر بالناس وغادر أرض المعركة ــ أرض بدر ــ قبل غروب الشمس،وقسّم الغنائم بينهم أثناء الطريق على قدم المساواة ومنح ذوي الشهداء

---

١. السيرة النبوّية:١/ ٦٣٩؛ السيرة الحلبية:٢/ ١٨٠. إنّ مسألة محادثة الرسول ﷺ مع رؤوس الشرك في البئر من مسلّمات التاريخ والحديث، وقد أشار إليه كثير من المؤرّخين والمحدّثين، أبرزهم:صحيح البخاري ج ٥ في معركة بدر ؛ صحيح مسلم:٨، كتاب الجنة؛ سنن النسائي:٤، باب أرواح المؤمنين؛ مسند الإمام أحمد:٢/ ١٣١؛ المغازي:١/ ١١٢؛ بحار الأنوار:١٩/ ٣٤٦.

أسهماً منها، كما وزع خمسها على المشاركين في المعركة، فربما لم تكن آية الخمس قد نزلت بعد آنذاك، أو فعل ذلك لمصلحة خاصة.

كما قرر أسهماً لأشخاص لم يحضروا المعركة، لأسباب خاصة بهم منعتهم من الاشتراك فيها، أو لمهمات خاصة أُنيطوا بها في المدينة والطرقات. وبعث عبد الله ابن رواحة، وزيد بن حارثة، إلى المدينة يبشرون أهلها بالانتصار، إلاّ أنّهما علما هناك بوفاة ابنة النبي ﷺ زوجة عثمان بن عفان، فامتزجت الأفراح بالأحزان، في الوقت الذي تخوف فيه المشركون واليهود والمنافقون من الانتصار الكبير من جانب آخر.

أمّا بالنسبة لاشتراك العباس بن عبدالمطلب في المعركة، فإنّ ذلك كان أمراً خاصاً، لأنّه كان قد أسلم وكتم إسلامه مخافة قومه وكره خلافهم مثل أخيه أبي طالب، فكان يساعد النبي ﷺ ويخبره بمخططات العدو ونوايا وتحركاته واستعداداته، مثلما عمل في معركة أُحد.

وفي مكة، تحولت بيوتها إلى مأتم كبير وناحت قريش على قتلاها، إلاّ أنّ أبا سفيان منعهم من النوح والبكاء على القتلى، وحثّهم على الاستعداد للثأر والانتقام من محمد ﷺ وأصحابه، فقال: الدهن والنساء عليّ حرام حتى أغزو محمّداً.

وقد ساعدت عوامل كثيرة في انتصار المسلمين ببدر، كان أهمّها:

١. عدم معرفة المسلمين بما لدى المشركين من إمكانيّات بشرية و قتالية، فواجهوا الأمر الواقع وتعاملوا من دون أن يثبطهم شيء.

٢. تقليل عد المسلمين في أعين المشركين، وعدد المشركين في أعين المسلمين في أوّل القتال، و تكثير عدد المسلمين في أعين الكفّار أثناء الحرب.

٣. الأُمور الغيبيـة ، مثل مساعـدة المطر ونـزوله في هذه الفترة، ومسـاعدة الملائكة، وتثبيت قلوب المؤمنين بواسطة هـؤلاء الملائكة، وإلـ: الرعب في قلوب الكفّار، حيث تشير الآيات القرآنية في سورة الأنفال وآل عمران إلى كلّ ذلك.

نتائج وآثار معركة بدر

أعلن النبـي ﷺ قراراً تـاريخياً بعـد المعركة خـاصاً بأُسلـوب المعاملـة مع الأسرى، وذلك بأنّ من علّم منهم عشرة من الصبيان، الكتابة والقراءة، كان ذلك فداؤه ويخلى سبيله دون أن يؤخذ منه مال.[1] وإنّ من دفع فدية قدرها ٤٠٠٠ درهم إلى ألف، خلّى سبيله، و من كان فقيراً لا مال لـه، أفرج عنه دون فداء. وإن الباب مفتوح أمامهم للدخول في الإسلام لينعموا في كنفه مع المسلمين.

ولقد أحدث هذا القرار ردّ فعل كبير لدى عائلات مكة، دفعهم إلى تقديم الفداء إلى المسلمين لإطلاق سراحهم. وكان «أبو العـاص بن الربيع» من ضمن الأسرى، وهو زوج زينب ابنـة الرسول ﷺ التي تـزوّجها في الجاهليـة، وثبت على دينه بعد إيمان بنات النبي ﷺ كلّهم، فبعثت زينب في فدائه بمال فيه قلادة كانت هدية أُمّها السيدة خديجة عليها السلام لها ليلة زفافهـا، فلمّا رأى الرسول ﷺ القلادة، تذكّر زوجته الوفية وبكـى بشدة، ممّا أثر في المسلمين فأطلقوا سراحـه دون أخذ الفدية. وأخذ ﷺ على أبي العاص الميثاق بأن يخلّي سبيل زينب ويبعثها إلى المدينة ففعل، مع إعلانه الإسلام فيما بعد.

ويعتبر تعليـم الأولاد مـن قبـل الأُسـارى المتعلمين، أوّل عمليـة تعليميـة لمكافحة الأُمّية، وهي أعظم خطوة حضارية وثقافية.

---

١. السيرة الحلبية: ٢/ ١٩٣.

كما أنّه كان لانتصار المسلمين أثر كبير على المراكز السياسية المتناثرة في شبه الجزيرة العربية، فكما كان له أثره القوي على قريش وأهلها، فإنّه هدد مراكز أُخرى في المدينة وخارجها، كاليهود الذين أبدوا تخوفهم من تطور قوّة المسلمين، وخاصّة يهود بني قينقاع، الذين بدأوا بتدبير المؤامرات،وممارسة الأعمال العدوانية ضدّ المسلمين، وإعلان الحرب الباردة بنشر الأكاذيب وبث المعلومات المزيفة، وإطلاق الشعارات القبيحة لتحقيرهم وتخريب سمعتهم وإضعاف معنوياتهم. إلاّ أنّهم بذلك، كانوا قد أعلنوا نقضهم لمعاهدة التعايش السلمي التي عقدها معهم الرسول الكريم ﷺ إبان قدومه إلى المدينة. وبالرغم من ذلك فإنّ النبي ﷺ حاول النصيحة بأن يتعايشوا معهم دون إظهار أيّ عمل تخريبي أو سيّئ، وذلك لأنّ النبي ﷺ لم يكن يريد أن يرفع السلاح ويحاربهم حتى يحافظ على الأمن والاستقرار في يثرب، إذ لم يكن من المصلحة تفجير الموقف في هذه الفترة الحرجة، إلاّ أنّهم أصروا على موقفهم العدائي، دون أن يقتنعوا بالتغيير أو التخلّي عن مؤامراتهم، ممّا اضطر الرسول ﷺ إلى استخدام السلاح والقوة في الفرصة المناسبة، وقد حدثت تلك المناسبة، عندما اعتدى يهوديٌ على امرأة عربية في السوق، بإظهار عورتها والضحك عليها، فقتله رجلٌ مسلمٌ، فاجتمع عليه عددٌ من اليهود فقتلوه، ممّا اعتبر الشرارة الأُولى في إعلان الحرب عليهم. فسارعوا إلى حصونهم وقلاعهم خوفاً من هجوم المسلمين،فحاصرهم النبي ﷺ خمسة عشرة ليلة،قذف الله في قلوبهم الرعب ففقدوا القدرة على المقاومة، ونزلوا عند حكم النبي ﷺ وهو الجلاء عن المدينة، على أن يتركوا أسلحتهم وأموالهم ودروعهم، فخرجوا من المدينة إلى منطقة «أذرعات» في أطراف الشام.[١]

١. المغازي:١/ ١٧٧؛ طبقات ابن سعد:٢/ ٢٨.

واضطرت قريش في هذه السنة إلى أن تغيّر طريقها التجاري إلى الشام، خوفاً من تعرض المسلمين لهم، فاتفقت على أن تتخذ طريق العراق، إلاّ أنّ المسلمين علموا بذلك، فأرسل الرسول ﷺ زيد بن حارثة في مائة نفر، تمكّنوا من الاستيلاء على القافلة، وتقسيم الأموال على المسلمين، بعد فرار القوم.

ولأهمية معركة بدر التي هي من المعارك الكبرى للإسلام، اكتسب المشاركون فيها منزلة خاصة بين المسلمين، فقد دعوا بالبدريين.

٣. العمليّات العسكريّة الصغيرة

و قد جرت في هذه السنة أيضاً عدّة غزوات، كان أهمها:

غزوة قرقرة الكُدْر: قرقرة الكدر ناحية بين المعدن و المدينة يسكنها قبيلة بني سلم حيث بلغ النبي ﷺ أنَّ القبيلة المذكورة تتهيّأ للهجوم على يثرب فخرج ﷺ بنفسه لتأديبهم، إلاّ أنّهم تفرقوا.

غزوة السويق: وذلك عندما قتل أبو سفيان رجلاً من الأنصار وأجيراً له، وحرق بيتاً وزرعاً، على أساس أنّ له نذراً للثأر من المسلمين بعد معركة بدر، بأن لا يقارب زوجته مالم يثأر لقتلى بدر.. فهاجمه المسلمون، إلاّ أنّه فرّ و ترك وراءه أكياس السويق.[1]

غزوة ذي أمّر: و هو واد بطريق المدينة، وقد جرت عندما أعدّت قبيلة غطفان هجوماً على المدينة، فخرج الرسول ﷺ لمحاربتهم، ولكنّهم فرّوا وهربوا. وأراد أحدهم أن يتخلّص من النبي ﷺ وهو مستريح تحت شجرة في وادي ذي

---

١. المغازي: ١/ ١٨٢؛ طبقات ابن سعد: ٢/ ٣٠.

أمّر، إلاّ أنّ النبي ﷺ تمكّن من السيطرة عليه بفعل معجزة إلهية، فأسلم الرجل.

٤. زواج السيدة فاطمة الزهراء عليها السلام

تقدّم أشراف العرب للزواج من السيّدة فاطمة سيّدة النساء عليها السلام إذ تصوّروا أنّ كونهم ذوي ثروة ومكانة اجتماعية مرموقة تؤهلهم لذلك ولا يُرد لهم طلب، ولكنّهم أخطأوا في تصوّرهم، فلم يعلموا أنّ زوج فاطمة عليها السلام لا يكون إلا كفؤها في التقوى والفضل والإيمان والإخلاص، وليس المال والثروة والجاه. و لمّا كان الرسول ﷺ يرد الخطّاب بقوله: «أمرها بيد الله» فقد أدركوا أنّ زواجها ليس سهلاً و بسيطاً. إلاّ أنّ الإمام علي عليه السلام حينما تقدّم إلى النبي ﷺ يخطبها وافق على طلبه وقال: «يا عليّ إنّه قد ذكرها قبلك رجال فذكرت ذلك لها، فرأيت الكراهة في وجهها، ولكن على رسلك حتى أخرج إليك».

فدخل على السيّدة الزهراء عليها السلام قائلاً: «إنّ علي بن أبي طالب من قد عرفت قرابته، وفضله و إسلامه، و إنّي قد سألت ربّي أن يزوّجك خير خلقه وأحبّهم إليه، وقد ذكر من أمرك شيئاً، فما ترين؟».

فسكتت السيدة فاطمة عليها السلام ولم ير الرسول ﷺ في وجهها كراهة، فقال: «الله أكبر، سكوتها إقرارها».[1]

ولما لم يكن الإمام عليّ عليه السلام يملك مالاً، أمره النبي ﷺ ببيع درعه لصرفه على نفقات الزواج، وكان مهرها ٥٠٠ درهم، وسكن أوّل الأمر في منزل أحد الصحابة بصورة مؤقتة، وعمل فرحاً وزفافاً جميلاً، وأطعم فيه كلّ المسلمين.

---

١. بحار الأنوار: ٤٣/ ٩٣.

ونقل ابن بابويه، أنّ النبي ﷺ أمر بنات عبد المطلب ونساء المهاجرين والأنصار أن يمضين في صحبة فاطمة عليها السلام وأن يفرحن ويرجزن ويكبّرن ويحمدن ولا يقولن ما لا يرضي الله. ثمّ دعا لها النبي ﷺ: «اللّهمّ إجمع شملهما، وألّف بين قلوبهما، واجعلهما وذرّيتهما من ورثة جنّة النعيم، وارزقهما ذرّيةً طاهرةً طيّبةً مباركةً، واجعل في ذرّيتهما البركة، واجعلهم أئمّة يهدون بأمرك إلى طاعتك، ويأمرون بما يرضيك. اللّهمّ إنّها أحبّ خلقك إليّ فأحبّهما، واجعل عليهما منك حافظاً، وإنّي أُعيذهما بك وذرّيتهما من الشيطان الرّجيم».[1]

فكانت أفضل زيجة في الإسلام وأكثرها خير وبركة، إذ أنجبا أفضل الأولاد والبنات وأطهرهم: الحسن والحسين السبطان، وزينب عليها السلام التي اشتهرت في نصرة أخيها بكربلاء.

أمّا ما دسّه أصحاب الأقلام المأجورة و ذوو النفوس الضعيفة والقلوب الحاقدة من أباطيل و ترّهات حول وجود خلاف و تنازع بين الزوجين الطاهرين، فتكذّبه الأحاديث الكثيرة عن رسول اللّه ﷺ حول مكانتهما و عُلوّ شأنهما، نقتطف منها ما يلي:

ـ «أحبّ الناس إلى رسول الله ﷺ من النساء فاطمة ومن الرجال عليّ».

ـ «خير رجالكم علي بن أبي طالب، وخير نسائكم فاطمة بنت محمّد».[2]

---

١. بحار الأنوار: ٤٣/ ٩٦ـ ١١٤.

٢. للمزيد من الإطّلاع، راجع سيد المرسلين: ٢/ ١١٠ ـ ١٢٠.

الفصل السادس

١ . أحداث السنة الثالثة من الهجرة

- الدفاع عن الحرية والكرامة
- معركة أُحد
- غزوة حمراء الأسد

٢ . أحداث السنة الرابعة من الهجرة

- النتائج السلبية لمعركة أُحد
- غزوة بني النضير
- غزوة ذات الرقاع
- تحريم الخمر

أحداث السنة الثالثة
من الهجرة

١. معركة أُحد

وهي سنة الدفاع عن الحرية والكرامة، وقد وقعت فيها معركة أُحد التي تعدّ من أعظم المعارك في الإسلام.

فقد قرر كفّار قريش إعلان الحرب على النبي ﷺ على أن تتكفّل قريش نفقاتها، فأعدّت ٤ آلاف مقاتل، إضافة إلى النساء اللائي هدفوا من اشتراكهن: تحريض الرجال على القتال، والصمود وعدم الفرار، وإشعال الحماس في النفوس، وإنّ فرار الرجال يعني أسرهن، فتصبح الغيرة والحمية سبباً للمقاومة والصمود. كما اشترك في الجيش عدد من العبيد والرقيق طمعاً في العتق الذي وعدوا به متى ما نصروا أسيادهم، مثل وحشي الحبشي.[١]

إلاّ أنّ العباس بن عبد المطلب الذي عاش بين قريش كاتماً إيمانه، كتب تقريراً مفصلاً عن تلك الاستعدادات وأرسله مع رجل غفاري إلى النبي ﷺ الذي

---

١. بحار الأنوار: ٢٠/ ٩٦.

أخبر أصحابه بالأمر. ثمّ عقد النبي ﷺ في يوم الجمعة اجتماعاً عسكرياً للتشاور مع القادة وأهل الخبرة في وسائل مواجهة العدو، فأشار «عبد الله بن أُبي بن سلول» ـ من منافقي المدينة ـ بالقتال داخل المدينة، أي لا يخرج المسلمون منها بل يقاتلونهم حرب الشوارع. إلاّ أنّ فتيان المسلمين شجبوا هذا الرأي وأقروا الخروج من المدينة لملاقاة العدو، بعد أن أيّد الرأي السابق أكابر أصحاب الرسول ﷺ من المهاجرين والأنصار. وكان حمزة و سعد بن عبادة على رأس القائلين بلقاء العدو خارج المدينة، فأيّد النبي ﷺ رأي الأكثرية بالخروج للحرب، إذ أنّ محاصرة العدوّ للمدينة وسيطرته على مداخلها وطرقاتها وسكوت جنود الإسلام على ذلك،من شأنه أن يقتل الروح القتالية والفروسية في أبناء الإسلام المجاهدين.

وكان جيش الكفّار قد وصل أطراف المدينة، حتى استقر قرب جبل أُحد، يوم الخميس، الخامس من شهر شوال، فاستعد النبي ﷺ بأن لبس لامته والدرع وتقلّد السيف واعتمّ، فخرج من بيته، ممّا آثار المسلمين وهزّهم بشدّة حتّى تصوّر بعضهم أنّهم قد أجبروه ﷺ على الخروج، فطلبوا منه المعذرة وإجراء أيّ فعل يقصده، فقال ﷺ: «ما ينبغي لنبي إذا لبس لامته أن يضعها حتى يقاتل».[1] ثمّ صلّى الناس الجمعة، وخرج على رأس ألف مقاتل قاصداً أُحد.

وكان ﷺ قد رفض اشتراك جماعة من اليهود الذين تحالفوا مع «عبد الله بن أُبيّ بن سلول» معهم، فانعزل عن الجيش وعاد بثلث الناس كلّهم من الأوس المتحالفين معه، إلى المدينة، بحجّة أنّ الرسول ﷺ أخذ برأي الفتية والشباب. ولذا لم يشترك اليهودُ والمنافقون في هذه الحرب.

---

١. السيرة النبوية:٢/ ٢٣؛ المغازي:١/ ٢١٤؛ طبقات ابن سعد:٢/ ٣٨.

وفي يوم السبت ٧ من شهر شوال، اصطف الجيش الإسلامي أمام قوى الشرك المعتدية، فجعل ظهره إلى جبل أُحد كمانع طبيعي يحفظ الخلف، ووضع جماعة من الرماة عند ثغرة في الجبل، عليهم «عبد الله بن جبير» وطلب منهم الالتزام بالموقع: «إلزموا مكانكم لا تبرحوا منه إن كانت لنا أو علينا فلا تفارقوا مكانكم».

إلاّ أنّ المسلمين انهزموا بعد انتصارهم في بداية المعركة نتيجة تجاهل هؤلاء الرماة لأوامر النبي ﷺ حين أخلوا هذا الموقع الاستراتيجي.

وكانت قريش قد أعدّت تسعة رجال شجعان من بني الدار لحمل الراية، قتلهم الإمام علي عليه السلام جميعاً، كما قتل غلامهم حين برز أيضاً.[1] وبذا فإنّ النتيجة الأوّلية كانت هزيمة الكفّار مخلّفين وراءهم غنائم وأموالاً كثيرة، فانتصر المسلمون على عدوّهم القوي عدداً وعدّة، لأسباب منها:

ـ أنّهم قاتلوا في مرضاة الله، ونشر عقيدة التوحيد، دون أن يهدفوا إلى مصلحة مادية.

ولكنّهم انهزموا بعد انتصارهم الساحق لأسباب كان أهمها:

ـ تغيّر أهدافهم، فقد اتجهت أنظارهم إلى الغنائم في أرض المعركة، ونسوا أوامر النبي ﷺ وتعاليمه بالتمسّك بها مهما حدث. وخاصة أُولئك الرماة الحامين ظهر المسلمين على جبل أُحد، حين تركوا مواقعهم ونزلوا إلى الساحة يريدون جمع الغنائم قائلين: «ولِمَ نقيم هنا من غير شيء وقد هزم الله العدو، فلنذهب ونغنم مع إخواننا». وهو الأمر الذي استغله «خالد بن الوليد» الذي كان آنذاك مع المشركين و كان يترصّد خلوّ الثغرة من الرماة، فقتل باقي الرماة وكانوا عشرة من

١. بحار الأنوار: ٢٠/ ٨١.

خمسين، ثمّ هاجم المسلمين الغافلين عن الوضع السّيئ والذين انشغلوا بجمع الغنائم، فتفرقت جموعهم، و اجتمع جنود قريش الهاربون فقاتلوا المسلمين قتالاً ضارياً، حتى قُتِلَ منهم سبعون رجلاً. وعندما قتل أحد أبطال المشركين من قريش، حامل لواء الإسلام : «مصعب بن عمير» ظنّ أنّه الرسول ﷺ فصاح: قتلت محمداً. فانتشر الخبر بين المسلمين وقريش الذين سرّوا بذلك فصاحوا: ألا قد قتل محمد. فاضطر المسلمون ـ بعد انفراط القيادة ، وإشاعة الفوضى والهرج والمرج في الجيش ـ إلى أن يهرب معظمهم إلى الجبل تاركين أرض المعركة، إلّا عدداً قليلاً منهم.

وكان خمسة من صناديد قريش قد تعاهدوا على أن يضعوا نهاية لحياة النبي ﷺ مهما كلّفهم الأمر، وهم:

١. عبد الله بن شهاب، الذي جرح جبهة النبي ﷺ.

٢. عتبة بن أبي وقاص، الذي رمى النبي ﷺ بأحجار فكسر رباعيته.

٣. ابن قميئة الليثي، الذي رمى وجنتي الرسول ﷺ وجرحهما.

٤. عبد الله بن حميد، الذي حمل على النبي ﷺ فقتله أبو دجانة بطل الإسلام.

٥. أُبي بن خلف، الذي قتله الرسول ﷺ بيده عندما حمل عليه.

وقد دلّت مواقف الرسول الكريم ﷺ في هذه المعركة وغيرها على شجاعته وقوّته، وقد أكدها الإمام علي عليه السلام قائلاً: «كنّا إذا احمرّ البأس، اتّقينا برسول الله ﷺ فلم يكن أحد أقرب منّا إلى العدو منه».[1]

---

١. شرح نهج البلاغة، فصل في غريب كلامه، رقم ٩.

ومن هنا فإنّ سلامة النبي الأكرم ﷺ في هذه الحرب بل وفي عامة الحروب تعود في أكثر أسبابها إلى:

ـ حسن دفاعه عن دينه وعن نفسه، وإلى شجاعته وبأسه في المعارك، إضافة إلى تضحية تلك القلة من أصحابه الأوفياء الذين بذلوا غاية جهدهم للحفاظ على حياته وسلامته ﷺ واشتهر من هؤلاء:

١. الإمام علي عليه السلام الذي بلغ ٢٦ عاماً من عمره، حيث قتل ١٢ من رجال قريش، والباقي وهم عشرة قتلهم باقي المسلمين. وهنا سمع هتاف بين السماء والأرض يقول: لا فتى إلاّ عليّ ولا سيف إلاّ ذو الفقار.

٢. أبو دجانة، الذي جعل من نفسه ترساً يقي النبي ﷺ من سيوف الكفّار.

٣. حمزة بن عبد المطلب، الذي دأب على حماية الرسول ﷺ من أذى المشركين دائماً في الظروف القاسية، إلاّ أنّ وحشي العبد قتله في هذه المعركة.

٤. أُمّ عمارة، نسيبة المازنية، وقد باشرت القتال وذبت عن الرسول ﷺ بالسيف، ورمت بالقوس حتى جُرِحت. وقد أُعجب النبي ﷺ بشجاعتها فأشاد بموقفها يوم أُحد: «لمقام نسيبة بنت كعب اليوم خير من فلان و فلان» فطلبت منه ﷺ أن يدعو لها بالجنة فقال ﷺ: «بارك الله عليكم من أهل بيت رحمكم الله، اللّهمّ اجعلهم رفقائي في الجنة».

وقد استغل أبو سفيان وقريش انتصارهم فاعتمدوا الإعلام المزيف في ذلك، بأنّ آلهتهم أعظم من إله المسلمين، قاصداً من ذلك التأثير النفسي، فقد رأى أنّ الحملة النفسية والحرب الباردة يمكنها أن تحطم إيمان المسلمين.

أمّا هند زوجة أبي سفيان، فقد مثلت مع بعض النساء بجثث المسلمين،

من قطع الأنوف وجدع الآذان وسمل العيون وقطع الأصابع والأرجل والمذاكير، نكاية بالمسلمين وإطفاءً للحقد الدفين. وقد بقرت هند صدر حمزة وأخرجت كبده ولاكته بين أسنانها، دون أن تستطيع أكله فعُرفت بآكلة الأكباد، كما عرف أبناؤها فيما بعد ببني آكلة الأكباد.

وقال الرسول ﷺ عندما شاهد عمّه حمزة: «ما وَقفتُ موقفاً قط أغيظ إليّ من هذا».

وهكذا غادر كفّار قريش أرض المعركة إلى مكة، أمّا المسلمون، فبعد أن صلّى بهم النبي ﷺ الظهر والعصر، دفنوا الشهداء واحداً واحداً أو اثنين اثنين، عند جبل أُحد.[1]

أمّا الشهداء فكانوا ما بين ٧٠ أو ٨١ مسلماً على روايات مختلفة، ولم يتجاوز عدد قتلى قريش ٢٢ فرداً، وأمّا النبي ﷺ فقد عالجته السيدة فاطمة عليها السلام والإمام علي ﷺ حينما رجع إلى المدينة.

غزوة حمراء الأسد

إلاّ أنّ الوضع لم يستقر، بل أنّ الأحداث استمرت إلى يوم الجمعة حيث غزوة «حمراء الأسد».[2] ذلك أنّ اليهود والمنافقين أتباع «عبد الله بن أُبي» استغلوا الوضع الخطير الذي أصبح فيه المسلمون، وكانوا قد سرّوا لما أصابهم، ووجدوا البيوت حزينة يسمع منها أنين الجرحى والبكاء على الموتى والشهداء. ولما كان هناك

---

١. السيرة النبوية: ٢/ ٩٨؛ بحار الأنوار: ٢٠/ ١٣١.

٢. تبعد عن المدينة ثمانية أميال.

خوف أن يؤدّي ذلك إلى ضعف الجبهة الداخلية، إذ أنّ انهيار الوحدة والانسحاب في هذه الجبهة أخطر بكثير من تعرض البلاد لهجوم خارجي. ولذا فقد أمر ﷺ بملاحقة العدو في نفس هذه الليلة حتى يرهب العدو ويبلغه قوة المسلمين واتحادهم وأنّ ما أصابهم لم يوهنهم عن عدوهم.[1] فخرج الرسول ﷺ بأصحابه إلى «حمراء الأسد» مخلفاً على المدينة: ابن أُمّ مكتوم.

وقد استطاع «معبد بن أبي معبد الخزاعي» رئيس بني خزاعة، الذي ارتبط بعلاقات ودية طيبة مع الرسول ﷺ والمسلمين بالرغم من كفره وشركه، من أن يخوّف أبا سفيان ويرعبه بما ذكره له عن قوّة المسلمين، وأعدادهم وملاحقتهم لقريش، ممّا دعاه إلى الانصراف عن مهاجمة المدينة مرّة أُخرى.

وفي هذه السنة (٣هـ)، أيضاً بعث الرسول ﷺ أيضاً السرايا، واشتهرت منها: سرية محمد بن مسلمة، عندما انزعج كعب بن الأشرف لانتصار المسلمين في بدر، وحاول إثارة قريش عليهم، فبدأ بإيذاء نساء المسلمين، ممّا جعل الرسول ﷺ يقرر التخلّص منه، فأرسل إليه محمّد بن مسلمة، الذي أعدّ خطة محكمة للقضاء عليه، فقتلوه بمساعدة أخيه بالرضاعة «أبونائلة». كما تخلّصوا من مفسد آخر هو: «أبو رافع سلام بن أبي الحقيق اليهودي» الذي قام بنفس دور كعب بن الأشرف في إيذاء الرسول ﷺ والمسلمين.

وفي هذه السنة، ولد السبط الإمام الحسن عليه السلام في ١٥ من شهر رمضان.

---

١. مجمع البيان: ٢/ ٢٣٥.

أحداث السنة الرابعة
من الهجرة

١. النتائج السلبية لمعركة أُحد

بالرغم من إظهار المسلمين قوتهم، ومطاردتهم للعدو ومنعهم من مهاجمة المدينة، فإنّ المنافقين واليهود والمشركين أعدّوا المؤامرات ضدّ الإسلام والمسلمين، وجهزوا العدّة لمحاربتهم،مثل قبيلة «بني أسد» التي أرادت الهجوم على المدينة لنهبها، فأرسل الرسول ﷺ ١٥٠ فرداً بقيادة أبي مسلمة الذي تمكن من القضاء عليهم والتخلّص منهم.

ومن المعروف أنّ النبي ﷺ كان يرسل الدعاة و المبلغين من قرّاء القرآن الكريم، والمسلمين بالأحكام الإسلامية والتعاليم النبوية، لينقلوا تلك التعاليم والأحكام إلى الناس في المناطق البعيدة والأماكن النائية، كما كان يبعث من جانب آخر، السرايا والمجموعات العسكرية للقضاء على محاولات التمرد والمؤامرات، ليتسنّى لهؤلاء المبلغين والدعاة في ضوء الأمن والحرية والأمان، الدعوة إلى الإسلام وإرساء دعائم الحكومة الإسلامية في القلوب، وتنوير الأفكار وإيقاظ العقول. إلاّ أنّه كان يحدث أنّ بعض القبائل المتوحشة والمتخلفة فكرياً وأخلاقياً كانت تعتدي

على هؤلاء المبلغين وتقتلهم بصورة مفجعة مأساوية.[١] مثلما قامت به جماعة من قبيلة «عضل والقارة» الذين طلبوا القرّاء من الرسول ﷺ وغدروا بهم أثناء الطريق إلى مكان سكنهم. ومن قبلهم طلب أبو براء العامري في شهر صفر من هذه السنة، من الرسول ﷺ أن يبعث رجالاً إلى نجد يدعوهم للإسلام مع أنّه لم يسلم، فقال الرسول ﷺ «إنّي أخشى عليهم أهل نجد». ولكن أبا براء أعلن عن استعداده لإجارتهم وضمان أمنهم فقال: أنا لهم جار. فبعث النبي ﷺ أربعين رجلاً من أصحابه الخيار من حفظة القرآن و أحكام الإسلام بقيادة «المنذر بن عمرو» و معه كتاب إلى «عامر بن الطفيل» أحد زعماء نجد، الذي قرر الغدر بهم، فقتل رسول المنذر، وطلب من بني عامر قتل المبلّغين، إلاّ أنّهم رفضوا على أساس أنّ لهم عقداً وجواراً مع أبي براء. فاستصرخ عليهم قبائل «بني سليم» الذين أجابوه، فأحاطوا بالدعاة وقاتلوهم حتى قتلوهم عن آخرهم بعد أن قاوموا بقوّة وبسالة عظيمة. وتسمّى هذه الحادثة بجريمة بئر معونة، التي لم ينسها الرسول ﷺ فكان يذكر شهداءها فترة من الزمان[٢]، كما أنّ تلك الحادثتان: الرجيع وبئر معونة، تركتا آثاراً سيئة،وخلفتا موجة من الحزن والأسى في نفوس المسلمين.

٢. غزوة بني النضير

لقد طلب النبي ﷺ من يهود بني النضير المساهمة في دفع دية اثنين قتلا خطأ، بموجب الاتفاقية المعقودة بين الرسول ﷺ واليهود، والتي تقضي بالتعاون فيما بينهم في تسديد الدية، إلاّ أنّهم أضمروا له الشر، حينما سار إليهم الرسول ﷺ

١. السيرة النبوية:٢/ ١٦٩؛ طبقات ابن سعد:٢/ ٥٥.

٢. السيرة النبوية:٢/ ١٨٣؛ إمتاع الأسماع:١/ ١٧٠.

في عدد قليل من أصحابه، وقصدوا قتله غدراً، وذلك بإلقاء صخرة عليه من فوق البيت الذي أستند الرسول ﷺ إلى جداره، ولكنّه ﷺ علم بمؤامراتهم سواء من تحركاتهم المشبوهة، أو بخبر جاء من السماء، فترك المكان مسرعاً بالعودة إلى المدينة، دون أن يخبر أصحابه الذين انتظروه طويلاً دون جدوى. وقد أخبرهم عند عودتهم بالسبب: «همت اليهود بالغدر بي فأخبرني الله بذلك فقمت».[١]

ورداً على الموقف الغادر لليهود، فقد أمر الرسول ﷺ المسلمين بالإعداد لحربهم، وبعث رسالة إليهم مع «محمّد بن مسلمة» يبلغ فيها سادتهم: «قد نقضتم العهد الذي جعلت لكم بما هممتم به من الغدر بي. أخرجوا من بلادي، فقد أجّلتكم عشراً، فمن رُئي بعد ذلك ضربت عنقه».

وكان حكم الرسول ﷺ هذا مطابقاً لما جاء في الميثاق الذي عقد بينهم عند دخوله المدينة: «ألاّ يعينوا على رسول الله ﷺ ولا على أحد أصحابه بلسان ولا يد ولا بسلاح في السر والعلانية، والله بذلك عليهم شهيد. فإن فعلوا فرسول الله في حلّ من سفك دمائهم وسبي ذراريهم ونسائهم وأخذ أموالهم». إلاّ أنّ المنافقين برئاسة «عبد الله بن أُبيّ» اتّصلوا ببني النضير يعرضون عليهم المساعدة والتعاون، بعدم تنفيذ أوامر الرسول ﷺ بالخروج من المدينة، ممّا دفعهم إلى اللجوء إلى حصونهم، والإعداد للحرب ومقاومة الرسول ﷺ حتى لا يسيطر المسلمون على ديارهم وبساتينهم وممتلكاتهم، وأرسل «حيي بن أخطب» إلى الرسول ﷺ: إنّا لا نبرح من دارنا وأموالنا فاصنع ما أنت صانع؛ فما كان من النبي ﷺ إلاّ أن خرج إليهم، بعد أن استخلف على المدينة «ابن أُمّ مكتوم» وسار لمحاصرة بني النضير،

---

١. طبقات ابن سعد: ٢/ ٥٧؛ إمتاع الأسماع: ١/ ١٧٨.

فاستمر الحصار ست ليال على رواية ابن هشام، أو ١٥ يوماً حسب الروايات الأُخرى. وأمر الرسول ﷺ بقطع النخيل المحيطة بحصونهم، وإلقاء النار عليهم، حتى يكرهوا البقاء في تلك الديار بعد إعدام بساتينهم.

فدفعهم ذلك فعلياً إلى الرضوخ لمطالب الرسول ﷺ بالجلاء عن موطنهم، على أن تحمل إبلهم ما لهم من مال دون أن يأخذوا السلاح والدروع، فرضى النبي ﷺ بذلك، فخرج جماعة منهم إلى خيبر وأُخرى إلى الشام. أمّا تقسيم أموالهم فحيث إنّ المسلمين غنموها دون قتال ـ و هو الفيء ـ فانّه يعود أمره إلى الرسول ﷺ خاصة يضعه حيث يشاء ويصرفه فيما يرى من مصالح الإسلام، وقد فعل النبي ذلك وقسم المزارع والبساتين على المهاجرين فقط دون الأنصار، وذلك لما حرموا من ممتلكاتهم وثرواتهم في مكة، وقد أيده في ذلك: سعد بن عبادة و سعد بن معاذ.[1]

وقد جرت هذه الحادثة في ربيع الأوّل ٤ هـ وأوردتها سورة الحشر في القرآن الكريم.

٣. غزوة ذات الرقاع

جاء الخبر إلى النبي ﷺ أنّ قبائل بني محارب و بني ثعلبة من قبائل غطفان، أعدتا للهجوم على المدينة، فسار إليهم النبي ﷺ وأدّبهم، دون أن يحدث قتال، وأصاب بعض الغنائم.

كما خرج النبي ﷺ في قوّة بلغت ١٥٠٠ فرد من المحاربين قاصداً بدراً لملاقاة أبي سفيان، الذي كان قد قرر في أُحد أن يلتقي بهم في هذه السنة، إلاّ أنّهم

---

١. إمتاع الأسماع: ١/ ١٨٢.

تخوفوا من مواجهة المسلمين، وذلك من أظهر الصور لحكمة النبي ﷺ في إجراءاته العسكرية، فقد أظهر قوته وعزيمته أمامهم، ممّا كان له أثره القويّ في نفوس الأعداء.

٤. تحريم الخمر

و قد حرّمت في أربع مراحل تدريجية ضمن آيات أربع أظهرت الاستياء من الخمر، فبدأت من مرحلة مخففة حتى انتهت إلى مرحلة الإعلان عن التحريم القطعي. فالآيات الأربع منعت من الخمر، بعد أن وصفتها بالرجس وإنّها نظير الميسر وانّها عمل شيطاني، مناقض للفلاح ومسبب للعداوة والبغضاء، وبذا فقد استطاع النبي ﷺ بهذه الآيات أن يطهر مجتمعه من أدران هذه العادة الشريرة التي انتشرت في البيئة بقوة، وكانت آفة متفشية ومتجذرة في المجتمع، بحيث إنّ معالجتها كانت تحتاج إلى وقت طويل وأُسلوب مدروس، وقد تحتم أن يعالَج هذا الوباء الاجتماعي من خلال إعداد الناس لمرحلة التحريم النهائي والقطعي تماماً، كما يفعل الطبيب للمرضى الذين يطول بهم المرض ولذا فإنّها حرمت في أربع مراحل.

و في هذه السنة ولد السبط الأصغر للنبي ﷺ أي الإمام الحسين عليه السلام في ٣ شعبان.

كما توفيت السيدة فاطمة بنت أسد أُمّ الإمام علي عليه السلام.

وأمر الرسول ﷺ زيد بن حارثة أن يتعلم السريانية من اليهود.[1]

---

١. إمتاع السماع: ١/ ١٨٧؛ تاريخ الخميس: ١/ ٤٦٤.

الفصل السابع

١ . أحداث السنة الخامسة من الهجرة

- غزوة دومة الجندل
- غزوة الأحزاب
- غزوة بني قريظة
- زواج الرسول ﷺ بزينب بنت جحش

٢ . أحداث السنة السادسة من الهجرة

- اليهود
- قبيلة بني لحيان
- بنو غطفان
- غزوة بني المصطلق
- قصة الإفك
- الحديبية

أحداث السنة الخامسة
من الهجرة

١. غزوة دومة الجندل[١]

خرج الرسول ﷺ في ألف من المسلمين إليها لما ذكر عن أهلها من أنّهم يظلمون الناس والتجار وينوون الإغارة على المدينة، إلاّ أنّ الأهالي تركوها وهربوا منها عند اقتراب المسلمين منها، فأقام بها النبي ﷺ أيّاماً ثمّ عاد إلى المدينة في ٢٠ من شهر ربيع الثاني، دون حدوث قتال.

٢. غزوة الأحزاب

بعد أن أجلى الرسول ﷺ يهود بني النضير عن المدينة، قرر زعماؤهم إجراء أعمال عدائية ضدّ المسلمين وذلك بالتآمر عليهم، فقدموا مكّة ليحرضوا قريشاً على حرب المسلمين بقولهم: إنّا سنكون معكم عليه حتى نستأصله، فلقد جئنا لنحالفكم على عداوة محمّد وقتاله، إنّ محمّداً قد وتركم ووترنا وأجلانا عن المدينة من ديارنا وأموالنا. كما أنّهم استخدموا اسلوبهم الملتوي حتى يؤثروا في قريش

١. منطقة بين دمشق و المدينة؛ طبقات ابن سعد: ٢/ ٤٤.

ويجذبونهم لجانبهم، فأقـرّوا لهم بأنّ ما عليه المشركون خيرٌ من دين محمّـد، بالرغم من أنّهم موحدون وقريش كفّار يعبدون الأصنام، فكانت هذه وصمة عار أُضيفت إلى سجلّهم وتاريخهم المشؤوم.

وبذا فـإنّهم شكّلوا اتحاداً ـ العرب واليهـود ـ كما شاركتهم أحـزاب أُخرى، مـن بعـض القبائل العـربيـة في شبـه الجزيـرة العـربية، وهـي غطفـان في نجـد، وبنوسليم وبنو أسد وغيرها،ولذا سميت بمعركة الأحزاب، أو معركة الخندق، لما قام به المسلمون من حفر خندق حول المدينة للدفاع عنها.

وحينما جـاء أحد رجـال استخبارات النبـي ﷺ بأخبـار خروج تلـك القوة الكبيرة، شاور ﷺ المسلمين في أساليـب الحرب والدفاع، فـافترح سلمان الفارسي حفر خندق حول المدينـة، حتى يمكن تحديد الموقع الذي سيحـاربون فيه العدو، فشرعـوا في حفره واشترك النبـي ﷺ بنفسـه في أعمال الحفر مشـاركـاً للمسلمين همومهـم وآلامهم، كما كـان له دوره المؤثـر في تنشيـط الآخريـن ودفعهم للعمـل السريـع والاجتهاد فيـه والتدقيـق. ووصل طـول الخندق نحـو خمسة كيلـومترات ونصف الكيلومتر(٥ و ٥كـم)، والعرض بمقدار خمسة أمتار، والعمـق أيضاً خمسة أمتار، بحيث لا يتمكن الفـارس الماهر من عبوره بالقفز عليـه. وانتهي من العمل فيه في ستة أيّام. وفي هذه الفترة قال الرسول ﷺ في شأن سلمان: «سلمان منّا أهل البيت».[١]

وقام العدو بحصار المدينة شهـراً، وبلغ عدد جيش المشركين، عشرة آلاف فرد، كان منهم أربعة آلاف من قريش، و ٧٠٠ من بني سليم، و ١٠٠٠ من قبيلة

١. المغازي:٢/ ٤٤٦؛ الكامل في التاريخ:٢/ ١٢٢.

فزارة، و ٣٥٠٠ مقاتل من بقية القبائل. أمّا عدد المسلمين فلم يتجاوز ٣ آلاف نزلوا في سفح جبل سلع في موضع مرتفع ومشرف على الخندق، يمكن منه مراقبة تحركات العدو ونشاطاته.

ولما كان الموسم موسم شتاء، والطعام قليلاً، وطالت فترة الحصار ـ شهر ـ فإنّ ذلك دفع المشركين إلى الاتّصال بيهود بني قريظة الذين كانوا يعيشون داخل المدينة لمساندتهم، بالرغم من أنّهم احترموا الميثاق الذي عقدوه مع الرسول ﷺ إلاّ أنّ «حيي بن أخطب» تمكن من إقناعهم بنقض ذلك العقد للوقوف مع الأحزاب في حرب المسلمين. وقد تأكد رسولا النبي ﷺ سعد بن عبادة و سعد بن معاذ رئيسا الأوس والخزرج من مؤامرة بني قريظة ونقضهم للعهد، عندما توجها إلى حصونهم، فأخبرا النبي ﷺ بذلك.

وكانت خطتهم التآمرية تقضي بأن يقوم بنو قريظة بالإغارة على أهل المدينة في الداخل، ويرعبوا أهلها ليخفف ذلك من الضغط على الكفّار في موقع المعركة عند الخندق. إلاّ أنّ النبي ﷺ أرسل ٥٠٠ من رجاله بقيادة «زيد بن حارثة و مسلمة بن أسلم» لحراسة المدينة من الأعداء.

وأمّا في ميدان المعركة، فقد تمكن خمسة من شجعان المشركين من عبور الخندق وعلى رأسهم «عمرو بن عبد ود العامري» فطلبوا المبارزة مع أبطال المسلمين. فقال الرسول ﷺ: «أيّكم يبرز إلى عمرو أضمن له الجنة؟». فقام الإمام علي عليه السلام قائلاً: «أنا له يا رسول الله»، والقوم ناكسوا رؤوسهم، وكأنّ على رؤوسهم الطير، وذلك لمكان عمرو وشجاعته المعروفة.[1]

---

١. المغازي: ٢/ ٤٧٠.

وبذا فقد برز الإمام علي عليه السلام وقال النبي صلى الله عليه وآله هنا كلمته الخالدة: «بَرَزَ الإيمانُ كُلّه إلى الشرك كلّه». وتمكّن الإمام علي عليه السلام من التخلص من عمرو والقضاء عليه حين ضربه ضربة قوية على ساقيه فقطعها، فكبّر الإمام علي عليه السلام يعلن انتصاره ومقتل عمرو، ممّا كان له أثره في العدو، فألقى الرعب في نفوسهم، فهربوا إلى معسكرهم تاركين الخندق، وسقط أحدهم بفرسه في الخندق وهو: «نوفل بن عبد الله» فرماه الحرس بالحجارة، ممّا جعله يطلب مقاتلة أحد المسلمين، فنزل إليه الإمام علي عليه السلام فقاتله وقضى عليه في الخندق.[1]

ونظراً لضربة الإمام علي عليه السلام المؤثرة ذات النتيجة والفعالية، فقد قال عنها النبي صلى الله عليه وآله: «ضربة عليّ يوم الخندق أفضل من عبادة الثقلين» إذ لم يبق بيت من بيوت المشركين إلاّ ودخله ذل بقتل عمرو بن عبد ود، على عكس ما حدث لبيوت المسلمين، فقد دخله بذلك العزّ والافتخار، فالضربة كانت في الواقع هزيمة للمشركين والأحزاب ونهاية لقوتهم، بالإضافة إلى الظروف السائدة، من قلّة الطعام والعلف والبرد.

عوامل تفرّق الأحزاب

١. اختلاف قبائل غطفان و فزارة مع قريش و تخاذلهم في الهجوم، وخاصة عندما اتصل بهم النبي صلى الله عليه وآله للاتّفاق على عودتهم وتراجعهم في مقابل مساعدتهم مادياً.

٢. مصرع فارسهم الأكبر عمرو بن عبدود الذي علّقوا عليه الآمال في

---

١. بحار الأنوار: ٢٠/ ٢٥٦؛ تاريخ الطبري: ٢/ ٢٤٠.

الانتصار.

٣. دور «نعيم بن مسعود» في تفرقة أعداء الإسلام و إيقاع الخلاف بينهم، وكان قد أسلم حديثاً، فقد تمكن بدهائه من التفرقة بين يهود بني قريظة وجيش الأحزاب، حيث أقنع اليهود بأن يأخذوا رهائن من العرب ليكونوا ضماناً في مقابل تعاون اليهود مع المشركين قائلين: «حتى نناجز محمداً، فإنّنا نخشى إن ضرستكم الحرب واشتد عليكم القتال أن تسرعوا إلى بلادكم وتتركونا، والرجل في بلدنا ولا طاقة لنا بذلك منه» وفي نفس الوقت طلب من قريش عدم إعطاء اليهود أحداً من رجالهم إذا طلبوا منهم ذلك، فإنّهم سيرسلونهم إلى النبي ﷺ ليقتلهم.

وهكذا فقد جرى الأمر كما رسمه «ابن مسعود» إذ أنّ الأطراف المتحالفة تأكدت من النوايا السيئة فانسحبت بنو قريظة، وتفرق الشمل ورجع الكفّار خائبين.

٤. عامل إلهي، حين بعث الله عليهم فجأة، العاصفة والريح واشتد البرد، فقلعت خيامهم وأطفأت أضواءهم، فصاح بهم أبو سفيان: ارتحلوا فإنّي مرتحل.

وقد سجل القرآن الكريم وقائع هذه المعركة وأشار إلى أبرز النقاط فيها ضمن ١٧ آية من سورة الأحزاب ٩ـ٢٥.

وقسمت الآيات الموضوع إلى ثلاثة أقسام:

١. آيات ترسم الوضع العام للمسلمين.

٢. آيات تتعرض لموقف المنافقين.

٣. آيات تبين موقف المؤمنين الصادقين.

فهي تؤكد دور عناية الله بالمؤمنين وحمايتهم من أعدائهم الكافرين، كما أنّها

تشرح الحالة العسكرية للمسلمين، من حصار الأعداء لهم من كلّ جهة، ممّا ألقى الرعب في قلوب اليهود من أهل المدينة، وما أظهره المنافقون من إشاعات وتشكيكات بالوضع، لإلقاء روح الهزيمة بين الأفراد.

وبالتالي فهذه الواقعة التي انتهت في ٢٤ من شهر ذي القعدة، كانت امتحاناً اختباراً دقيقاً للنفوس والقلوب، ميّزت الصادق عن المنافق، والموفون بالعهد و عن الناقضين له، كما كشفت عن أنّ وعود الله صادقة ومحقّقة متى توفرت شرائطها ومقدماتها، كما أنّها أشارت إلى دور الطابور الخامس في إضعاف الجبهات، وأساليب مواجهتها.

٣. غزوة بني قريظة

قرر النبي ﷺ معالجة قضية بني قريظة بعد المعركة دون انتظار، وذلك بأمر من الله تعالى. فسار مع المسلمين ليحاصر حصونهم التي تحصنوا بها وأغلقوا الأبواب. ولما كان اليوم ـ السبت ـ فإنّهم لم يبتغوا القتال فيه أو الحرب. ثمّ إنّ وفداً منهم طلب من النبي ﷺ أن يتركهم يخرجوا من المدينة بأموالهم مثلما فعل مع بني النضير، أو يتركوا سلاحهم وأموالهم، فرفض النبي ﷺ مقترحاتهم ومطالبهم حتى لا يفعلوا فعلَ بني النضير في تحريك العرب المشركين ضد المسلمين،ولذا فقد سلّموا أنفسهم للمسلمين دون أيّة شروط، فدخل المسلمون الحصن وجردوهم من سلاحهم وحبسوهم حتى يتقرر مصيرُهم، أو يحكم فيهم سعد بن معاذ الأوسي حليفهم. وفي المجلس الذي أعدّ لذلك، حكم سعد عليهم بقتل الرجال، وتقسيم أموالهم وسبي ذراريهم ونسائهم، رغم الإلحاح عليه بحسن الحكم في

حلفائه بني قريظة.[١]

وقد استند في حكمه إلى:

أ: أنّ يهود بني قريظة كانوا قد تعهدوا للنبي ﷺ بأنّهم لو تآمروا ضدّ المسلمين وناصروا أعداءهم أو أثاروا الفتن والقلاقل، فإنّ للمسلمين الحقّ في قتلهم ومصادرة أموالهم وسبي نسائهم.

ب: وأنّ حكمه جاء بمثل ما في شريعتهم.

ج: ما قد رآه بعينه ممّا صدر قبل ذلك من قبائل اليهود حين عفا عنهم النبي ﷺ ولكنّهم نقضوا عهودهم معه ﷺ وأثاروا الأجانب عليهم واشتركوا مع المشركين ضدّهم، الأمر الذي جعله يتخوف من أن يعرّض هؤلاء مركز الإسلام للخطر من خلال مؤامراتهم. وخاصة أنّهم كانوا قد أخلّوا بالأمن فترة من الزمن في المدينة، ولولا الحراسة المكثفة التي عينها الرسول ﷺ لفعلوا أفظع الأُمور والأعمال.

وقد قسمت الغنائم بين المسلمين بعد إخراج الخمس منها، وأُعطي للفارس سهمان،وللراجل سهم واحد، وسلم الرسول ﷺ أموال الخمس لزيد بن حارثة، ليشتري بها السلاح والعتاد والخيل من نجد.[٢]

وقد استشهد سعد بن معاذ الذي كان قد جرح في معركة الخندق، بعد أحداث بني قريظة. وانتهت هذه المشكلة في ١٩ من شهر ذي الحجّة.

---

١. السيرة النبوية:٢/ ٢٤٠؛ المغازي:٢/ ٥١٠؛ زاد المعاد:٢/ ٧٣.

٢. السيرة النبوية:٢/ ٢٤١؛ تاريخ الطبري: ٢/ ٢٥٠؛ زاد المعاد:٢/ ٧٤.

٤. زواج الرسول ﷺ بزينب بنت جحش

كان «زيد بن حارثة» قد سرقه قطاع الطرق وباعوه في سوق عكاظ، فاشتراه حكيم بن حزام وأهداه لعمته السيدة خديجة بنت خويلد عليها السلام التي أهدته بدورها إلى النبي ﷺ بعد زواجها. وقد دفعت أخلاق النبي ﷺ وسيرته الحسنة إلى أن يحبه زيد حباً شديداً إلى آخر عمره، حتى أنّه فضل العيش معه ﷺ على الرجوع إلى أهله.

ولما قرر النبي ﷺ بأمر من الله تعالى أن يحطّم التقاليد الجاهلية في المجتمع العربي، ليعيشوا جميعاً تحت لواء الإنسانية والتقوى إخوة متحابين، فقد زوّج زيداً من ابنة عمته زينب بنت جحش، حفيدة عبد المطلب، مع ما بينهما من الاختلاف في مستوى الانتماء القبلي والمكانة الاجتماعية إلاّ أنّ زواجهما لم يدم طويلاً فافترقا بعد الطلاق. ثمّ تزوجها النبي ﷺ وذلك للتخلّص من تقليد جاهلي آخر مترسب في المجتمع، حيث كان يعتبر الابن المتبنّى كالابن الحقيقي، يعامله مثله تماماً في الحقوق والواجبات. ولذا فقد كلف الله تعالى نبيه ﷺ بأن يقضي على هذا التقليد الجاهلي والسنّة الخاطئة بإجراء عملي ظاهر للعيان، و هو التزوّج من زينب مطلّقة متبنّاه زيد: ﴿ فَلَمّا قَضىٰ زَيدٌ مِنْها وَطَراً زَوَّجْناكَها لِكَي لا يَكُونَ عَلى المُؤمِنينَ حَرَجٌ في أَزواجِ أَدْعيائِهِمْ إِذا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَراً وَكانَ أَمْرُ اللهِ مَفْعُولاً ﴾.[1]

---

١. الأحزاب: ٣٧.

أحداث السنة السادسة
من الهجرة

١. اليهود

كان لابدّ من القضاء على خطر اليهود، إذا أراد المسلمون حياة الاستقرار والأمن، حتى لا تتكرر قضية الأحزاب مرّة أُخرى، فأرسل النبي ﷺ مجموعة من شجعان الخزرج لتصفية هذا العنصر الحاقد، وكان على رأسهم: سلام بن أبي الحقيق، الذي عاش في خيبر، فخرجوا حتى وصلوا خيبر فدخلوها ليلاً، فدخلوا على المفسد وقتلوه، إذ طالما أزعج المسلمين بفتنه ومؤامراته، وعادوا إلى المدينة سالمين.

٢. قبيلة بني لحيان

قرر النبي ﷺ في هذه السنة تخويف هذه القبيلة، التي اعتدت من قبل على عدد من دعاة المسلمين غدراً ودون رحمة، فقام بسلسلة من المناورات العسكرية واستعراض لقواته القتالية، ليرهب أعداء الله الآخرين أيضاً و قريش خاصة فيذعرهم حيث كان الرسول ﷺ وأصحابه قد نزلوا عسفان على مقربة من مكة،

وكان النبي ﷺ من رأيه، أنّه : «لو هبطنا عسفان لرأى أهل مكّة أنّا قد جئنا مكة». كما ذكر جابر بن عبد الله الأنصاري أنّ النبي ﷺ قال عند رجوعه إلى المدينة: «أعوذ بالله من وعثاء السفر، وكآبة المنقلب، وسوء المنظر في الأهل والمال».[١]

٣. بنو غطفان

في ٣ من شهر ربيع الأوّل، اعتدى جماعة من بني غطفان على إبل لرسول الله ﷺ في منطقة الغابة ــ وهي قريبة من المدينة من ناحية الشام ـ و قتلوا رجلاً وأخذوا امرأة، فطاردهم الرسول ﷺ وقاتلهم في ذي قرد، واستعاد منهم المرأة وعدداً من الإبل .

٤. غزوة بني المصطلق

وهم من قبائل خزاعة المتحالفة مع قريش. قرر زعيمها «الحارث بن أبي ضرار» أن يغزو المدينة، فأعد الرسول ﷺ عدّته للقضاء عليهم، فخرج عندما علم من رجال مخابراته بنواياهم، فلقيهم عند ماء «المريُسيع» وقاتلهم فتفرقوا، وغنم المسلمون منهم كثيراً كما سبوا عدداً كبيراً من نسائهم.

وبعد المعركة، حدث أن تقاتل اثنان من المهاجرين والأنصار على الماء، حتى كادت أن تقع حرب بين الطرفين، لولا حكمة الرسول ﷺ الذي تمكن من إخماد الفتنة في مهدها، وتجنيب المسلمين أخطارها. إلاّ أنّ عبد الله بن أُبيّ رئيس المنافقين استغل الموقف فأثار الأنصار ضدّ المهاجرين، على أساس أنّهم أقلّ

---

١. تاريخ الطبري:٢/ ٢٥٤؛ المغازي ٢/ ٥٣٥؛ إمتاع الأسماع:١/ ٢٥٩.

مكانة منهم، ممّا تركت كلماته أثرها في نفوسهم، إذ أنّهم ما زالوا يعانون من بقايا العصبية الجاهلية. وكادت الحركة أن توجه ضربة قاضية إلى صرح الوحدة الإسلامية والإخوة الإيمانية، ولكن زيد بن الأرقم ظهر من بين فتيان المسلمين ليرد عليه بالكلمات القوية: «أنت والله الذليل القليل المبغض في قومك، ومحمّد في عز من الرحمن ومودة من المسلمين، والله لا أحبك بعد هذا أبداً». ثمّ سار إلى النبي ﷺ يخبره بما حدث من المنافق، فأراد الرسول أن يهدّئ الأوضاع، فأمر بالرحيل في ساعة من النهار لم يكن يرتحل فيها عادة، كما أنّه سار ليلاً ونهاراً دون إستراحة إلاّ للصلاة، وذلك حتى يشغلهم عن الذي حدث من عبد الله بن أُبيّ المنافق.

وقد طلب ابنه عبد الله من النبي ﷺ أن يسمح له بقتل أبيه، حيث كان مسلماً حقيقياً أفضل من أبيه، ولكن الرسول ﷺ قال: «بل نترفق به ونحسن صحبته ما بقي معنا».

فما كان من المسلمين إلاّ أن توجّهوا باللوم على ابن أُبيّ، فلحقه من ذلك ذلّ شديد بين الناس ، فلم يعبأ به أحد، ولم يعد له أيّ دور، وعاش بقية حياته محتقراً بين الناس.

وقد تزوّج الرسول ﷺ «الجويرية بنت الحارث بن أبي ضرار» التي كانت من بين سباياهم، فأسلمت وأسلم أهلها، ثمّ أطلق الباقون وهم مائة عائلة من بني المصطلق، إذ اعتبروا من أصهار النبي ﷺ ،وأطلق جميع أسرى بني المصطلق رجالاً ونساء بفضل هذا الزواج المبارك، وبفضل سياسة النبي ﷺ الحكيمة.

وفي هذه السنة خرج جماعة من قريش تنشد اللجوء إلى الحبشة خوفاً من قوة المسلمين، وكان فيهم عمرو بن العاص، الذي قدم الهدايا الكثيرة إلى الملك،

الذي نصحه بأن يعلن إسلامه، إذ لا مفر من انتشار الإسلام في بلاده، فاضطر إلى أن يسلم على يديه، وكتم أمره عن أصحابه.[١]

٥. قصة الإفك

يرى أكثر المحدّثين المفسرين أنّ القصة ترتبط بالسيدة عائشة زوجة الرسول ﷺ، ويذكرون أحداثاً لا يتلاءم بعضها مع عصمة الرسول الأعظم ﷺ ولذا لا يمكن القبول بها[٢] بينما يذهب آخرون إلى المعني فيها هو مارية القبطية زوجة رسول الله ﷺ وأُمّ إبراهيم.

ففي رواية البخاري التي نقلها عن السيدة عائشة، ما يتنافى بقوة مع عصمة النبي ﷺ، لأنّها تكشف عن أنّه وقع ﷺ فريسة بأيدي الشائعات الكاذبة إلى درجة أنّه غيّر سلوكه تجاه السيّدة عائشة، بعد آن شكّ في عفافها وشاور أصحابه في أمرها.[٣] إنّ مثل هذا الموقف مع شخص بريء لا يوجد أي دليل على تهمته، لا يتنافى فقط مع مقام العصمة النبوية، بل حتى مع مقام المؤمن العادي. كما أنّ الآية ١٢ و١٤ من سورة النور توبخ أُولئك الذين وقعوا فريسة الشائعات و ظنوا السوء، ممّا يعني أنّ هذا العتاب والتوبيخ كان يعم الرسول ﷺ أيضاً لو صحت رواية البخاري هذه. ولذا فإنّه يُرفض كلّ الرواية المذكورة في شأن النزول الذي يتناقض مع عصمة الرسول ﷺ.

---

١. لاحظ الإختلاف في الموقف هنا و في أوّل عهد الإسلام بمكة.

٢. الدر المنثور: ٥/ ٢٤.

٣. صحيح البخاري: ٦/ ١٠٢، تفسير سورة النور.

وأمّا بالنسبة لرواية البخاري الأُخرى بشأن النزول، والتي ينقلها عن عائشة ومفادها: أنّه حدث شجار وصدام بين الأوس والخزرج أمام الرسول ﷺ حينما كان يخطب على المنبر، فاتّهموا بعضهم بعضاً بسبب قضية الإفك، حتى أشار عليهم ﷺ بالسكوت فهدّأهم حتى انصرفوا، فهي كذلك لا تتناسب مع أحداث التاريخ الصحيح، إذ أنّ «سعد بن معاذ» رئيس الأوس كان قد توفّي قبل حادثة الإفك، التي جرت وقائعها بعد أحداث معركة بني قريظة، وقد صرح بذلك البخاري نفسه في صحيحه[1]، في باب معركة الأحزاب وبني قريظة، فكيف يمكن أن يحضر مجلس النبي ﷺ ويجادل سعد بن عبادة في قضية الإفك التي وقعت بعد أحداث بني قريظة بعدّة شهور؟

ولذا فمن المهم أن نعرف أنّ حزب النفاق حاول أن يزلزل النفوس بإلقاء التهمة والبهتان إلى إمرأة صالحة ذات مكانة وأهمية في المجتمع الإسلامي. وقد فسر قوله تعالى: ﴿الذي تولّى كبره﴾ بأنّ الذي تحمل القسط الأكبر من هذه العملية الخبيثة هو: «عبد الله بن أُبي» فهو الذي قاد هذه العملية الرخيصة الخطرة، كما صرحت بذلك السيدة عائشة نفسها.[2] فقد كان «عبد الله بن أُبي» يعمل بتجارة الجواري ويضعهن تحت تصرف الرجال للزنا بهن، فيجني أرباحاً طائلة من وراء هذه التجارة البغيضة، حتى بعد انتشار الإسلام في المدينة. ولما كان يكرههن على البغاء، واشتكت إحدى نسائه من ذلك، فقد نزلت الآية الكريمة تشجب عمله الدنيء: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّناً لِتَبْتَغُوا

---

١. صحيح البخاري: ٥/ ١١٣.

٢. السيرة النبوية: ٢/ ٢٩٧، وقد فطن ابن هشام لهذه الناحية فترك ذكر سعد بن معاذ بينما غفل عنها البخاري في صحيحه.

﴿عَرَضَ الحَيَاةِ الدُّنيا﴾ [١] وعندما حدث العداء بينه وبين ابنه بعد واقعة بني المصطلق، عمد إلى فعل كلّ ما يشفي غليله ويذهب غيظه، كترويج الشائعات الكاذبة انتقاماً من المجتمع الإسلامي، ليعمل على بلبلة الرأي العام ويشغله بالتوافه من القضايا، ويصرفه عن القضايا المهمة والمصيرية، إذ أنّ سلاح الشائعات يعتبر من الأسلحة المدمرة،وتستخدم في تشويه سمعة الأفراد الصالحين والمجتمع أيضاً.

أمّا الرواية الأُخرى، فترى أنّ المقصود من الآية مارية القبطية، حيث اتهم فردٌ يدعى جريح بعد وفاة ابنها إبراهيم بأنّه هو والد إبراهيم وليس النبي ﷺ فأرسل ﷺ الإمام علياً ليقتله، فصعد جريح إلى نخلة خوفاً من علي عليه السلام وفتكه به، فتعقّبه عليٌّ، فرمى بنفسه من فوقها فبدت عورته، فإذا ليس له ما للرجال ولا له ما للنساء، فرجع علي عليه السلام إلى النبي ﷺ فأخبره بما رأى، فقال النبي ﷺ: الحمد لله الذي صرف عنّا السوء أهل البيت .[٢] وجميع هذه الروايات ضعيفة فلا يمكن القبول بها في شأن نزول آيات الإفك.

٦. الحديبية: رحلة دينية سياسية

كانت السنة ٦ هـ تقترب من نهايتها حينما رأى الرسول ﷺ في المنام أنّه دخل الكعبة وحلق رأسه وأخذ مفتاح البيت. فقص ﷺ رؤياه على أصحابه، وتفاءل بها خيراً.[٣]

---

١. النور:٣٣.

٢ بالرغم ما ذكر عن الإمام علي عليه السلام أنّه لم ينظر إلى عورة قط، ولذا قيل عنه كرم الله وجهه.

٣. مجمع البيان:٩/ ١٢٦.

إنّ هذه الرحلة الروحانية انتجت مصالح اجتماعية وسياسية، عزّزت مكانة المسلمين في الجزيرة العربية وساعدت على نشر الدين الإسلامي فيها، وذلك لأنّ:

ـ القبائل العربيـة المشركة تصورت أنّ النبي ﷺ خالف كلّ عقائد العرب وتقاليدهـم الموروثة بما فيها الحج والعمرة، فـأكد بذلك الصلـح وتجنّب القتال في الشهر الحرام أنّه لا يعارض تلك الطقوس الدينية، بل يعتبرها فريضة مقدسة مثل والد العرب الأكبر «إسماعيل بن إبراهيم» ويعمل على المحافظة على هذه التقاليد الدينية، ممّا قلل من مخاوفهم تجاه الرسول ﷺ ودعوته.

ـ و لما لم يكن يحمل أسلحة معه على أسـاس حرمة الأشهر الحرم، فإنّ ذلك غيّر من نظرة هؤلاء تجاه دعوة الإسلام حين شاهدوا الرسول ﷺ وهو يحرّم القتال في الشهر الحرام، ويدعو إلى رعاية هذه السنّة الدينية القديمة.

ـ وستكـون مناسبـة يتمكن المهـاجرون فيهـا من زيـارة وطنهم وأهـاليهم وأقربائهم. أمّا إذا منعتهم قريش مـن الدخول فإنّ سمعتها هي تتعرض للخطر، ويتضح عـدوانُها، وينكشف للجميـع بطلان مواقفهـا، نظراً لموقفهـا السّيئ تجاه جماعة مسالمة أرادت أداء مراسم العمرة فقط.

ـ و إذا نجح المسلمون في سعيهم بأداء مناسك العمرة، فإنّه سيكون أفضل إعلام لجميع منـاطق العرب، إذ أنّ نداء الإسلام سينتشر في تلك البقـاع والمناطق التي لم يصلها دعاة النبي ﷺ ومبلغوه حتى هذا الوقت.

ـ و لذا فإنّ الرسول ﷺ أمر أصحابه بالتهيّؤ للعمرة داعياً القبائل المجاورة التـي لم تزل على كفـرهـا وشركها إلى مـرافقة المسلمين في هـذه الـرحلة وبلغـت أعدادهـم ألف وأربعمائة أو ١٦٠٠ أو ١٨٠٠، أحـرموا في ذي الحليفـة فشاع في الجزيرة العربية أنّ المسلمين متجهون صوب مكة للعمرة في شهر ذي القعدة.

وعند عُسفان، أخبروا الرسول ﷺ بأنّ قريشاً ترفض السماح لهم بالدخول إلى مكّة، كما أرسلت كتيبة من أفرادهم بقيادة: خالد بن الوليد، لتنفيذ الأوامر المعلنة، فغيّر الرسول ﷺ طريقه حتى لا يلتقي بخالد، سالكاً طرقاً وعرة حتى وصل الحديبية، التي بركت فيها ناقة الرسول ﷺ فنزلوا في ذلك المكان، إلاّ أنّ خالد بن الوليد تمكن من الوصول بكتيبته وحاط بهم وحاصر موكبهم. ولكن النبي ﷺ لم يكن قد جاء ليحارب في سبيل دخول مكة، ولم يكن هذا هدفه، ولذا فإنّ التفاوض كان من أفضل الحلول لهذه المشكلة، فقال ﷺ: «لا تدعوني قريش اليوم إلى خُطة يسألونني فيها صلة الرحم إلاّ أعطيتهم إيّاها». فبلغ ذلك مسامع الجميع، فقرروا إرسال عدد من أفرادهم إلى الرسول ﷺ للتعرف على هدفه الأصلي من رحلته ومجيئه إلى مكة، فبعثوا إليه بأربعة أشخاص لتفهّم موقف الرسول ﷺ فقال لهم ﷺ: «إنّا لم نجئ لقتال أحد ولكنّا جئنا معتمرين».

إلاّ أنّ المندوبين أكدوا للمسلمين أنّ قريشاً لن تقبل بدخولهم مكة: «يعاهدون الله لا تدخلها عليهم عنوة أبداً». فذهبت كلّ تلك المفاوضات سدى دون جدوى، ممّا جعل الرسول ﷺ يرسل مندوباً عنه إلى قريش يوضح الصورة الصحيحة لهدفهم، وهو زيارة بيت الله وأداء مناسك العمرة، إلاّ أنّ قريشاً ـ خلافاً لكلّ الأعراف الدولية والاجتماعية ـ والتي تقضي بحماية السفراء واحترامهم، عمدت إلى عقر الجمل الذي قدم عليه السفير والمندوب النبوي، بل كادوا أن يقتلوه أيضاً، لولا تدخل جماعة من قادة العرب، فخلّت سبيله ليعود إلى النبي ﷺ. كما أنّ قريشاً أرسلت كتيبة لإرهاب الرسول ﷺ وجماعته و إرعابهم ونهب شيء من أموالهم، إلاّ أنّ الوضع لم يكن في صالحهم فقد أسرهم المسلمون وكانوا خمسين فرداً، فتدخل النبي ﷺ وعفا عنهم و خلّى سبيلهم، ليؤكد لهم أنّه جاء يريد

السلام، وأنّ هؤلاء ينشدون الحرب والقتال.

واختار الرسول ﷺ «عمر بن الخطاب» لمهمة سفارة أُخرى لقريش، لأنّه لم يكن قد أراق دم أيّ من المشركين حتى ذلك الوقت، ولكنّه اعتذر عن تحمّل هذه المسؤولية المحفوفة بالمخاطر قائلاً: «يا رسول الله، إنّي أخاف قريشاً على نفسي، وليس بمكة من بني عدي من يمنعني،ولكنّي أدلّك على رجل أعزّ بها منّي عثمان بن عفان».[1] إلاّ أنّ قريشاً ألقت القبض على عثمان وحبسوه،لعلّهم يتوصلون إلى حلّ فيطلقوه ليبلغ الرسول ﷺ رأيهم. فلمّا أبطأ عثمان عنهم، وأوجد ذلك قلقاً شديداً في نفوس المسلمين، وخاصة إنّه أُشيع أنّ عثمان قتل، فإنّ المسلمين ثاروا وقرروا الانتقام والقتال، ممّا دعا النبي ﷺ إلى أن يجدّد بيعته مع المسلمين، فبايعوه تحت الشجرة على الاستقامة والثبات والوفاء، وحلفوا ألاّ يتخلّوا عنه أبداً، وأن يدافعوا عن حياض الإسلام حتى النفس الأخير، وسميت هذه البيعة: بيعة الرضوان، التي ذكرها القرآن الكريم بقوله: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللهُ عَنِ الْمُؤمِنينَ إِذْ يُبايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرة فَعَلِمَ ما فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَة عَلَيْهِمْ وَأَثابَهُمْ فَتْحاً قَرِيباً﴾.[2] وبذا فإنّ موقف المسلمين تحدّد في: إمّا دخول مكة وزيارة بيت الله، وإمّا القتال فيما لو تصلب موقف قريش الرافض لذلك. ولكن «عثمان بن عفان» رجع إليهم وأخبرهم أنّ اليمين التي التزمت بها قريش بمنعهم من دخول مكة هذا العام، هي التي تجعلهم في موقف متصلب رافض، وأنّهم سيرسلون إلى الرسول ﷺ من يتفاوض معه في هذا الشأن. وكُلّف سهيل بن عمرو بإنهاء هذه

---

١ .السيرة النبوية:٢/ ٣١٥، كما أنّ بينه وبين أبي سفيان قرابة، فهو أموي.

٢. الفتح:١٨.

المشكلة. ونتج عن التفاوض بين الطرفين عقد صلح شامل و واسع بينهما.

وفي الوقت الذي كان المندوب القرشي يتصلب في بعض البنود و المواد، فإنّ النبي ﷺ كان يتساهل معه ويتنازل عنها، ممّا كان له أثر بعيد، فالتسامح الذي أبداه الرسول ﷺ في تنظيم وثيقة الصلح، لا يعرف له نظير في تاريخ العالم، لأنّه أظهر بجلاء أنّ رسول الله ﷺ لم يقع فريسة بيد الأهواء والأغراض الشخصية والعواطف والأحاسيس العابرة، فكان يعلم أنّ الحقائق لا تتبدل ولا تتغير بالكتابة والمحو،وهو ما جعله يتسامح مع مفاوض قريش الذي تصلب في مطالبه غير الشرعية، وذلك حفاظاً على أصل الصلح وحرصاً على السلام. وقد حدث خلال ذلك، أنّ طلب المندوب القرشي بأن يمسح الرسول ﷺ ما كتبه: «بسم الله الرّحمن الرّحيم» ويكتب بدلاً منه: باسمك اللّهمّ. كما طلب مسح كلمة «رسول الله» وإبدالها بمحمد بن عبد الله. فأجابه الرسول ﷺ إلى ذلك.

أمّا صلح الحديبية، فكان من أبرز بنوده:

١. وقف القتال عشر سنين بين الطرفين.

٢. من قدم إلى النبي من قريش دون إذن وليّه، يردّه عليهم، ومن جاء قريشاً من محمّد لا يردّوه إليه.

٣. السماح بدخول أيّ طرف في التحالف مع أيّة أطراف.

٤. يرجع المسلمون هذا العام على أن يقدموا العام القادم للعمرة.

٥. لا يُستكره أحدٌ على ترك دينه، ويعبد المسلمون الله بمكة بحرية وأمان.

٦. احترام الطرفين لأموالهم، فلا خيانة ولا سرقة.

٧. لا تعين قريشٌ على محمّد وأصحابه أحداً، سواء بسلاح أو أفراد.[١]

---

١. بحار الأنوار: ٢٠/ ٣٥٢؛ السيرة الحلبية:٣/ ٢١؛ مجمع البيان:٩/ ١١٧.

ثـمّ كتبـت الوثيقـة بنسختين،ووقـع عليهـا نفـر مـن شخصيات قـريـش والمسلمين شهوداً عليها، وتسلم سهيل بن عمرو نسخة قريش، واحتفظ النبي ﷺ بالنسخة الأُخرى.

وكثيراً ما اعترض المسلمون على بعـض البنود، كالبند القـاضي بتسليم كلّ مسلم سار إلى الرسول ﷺ من قريش، والعكس، فأوضحه الرسول ﷺ.

«من جاءهـم منّا فأبعده الله، ومن جـاءنا منهم رددناه إليهـم، فلو علم الله الإسلام مـن قلبه جعـل له مخرجـاً». فلا قيمـة لإسلام وإيمان مـن يترك المسلمين ويهرب لاجئاً عند المشركين، إذ أنّه يـؤكد بفعله أنّه لم يؤمن حقّـاً بالإسلام، ولذا لم يكن هناك حاجة لقبوله في جماعتهم.

وهذا الميثاق يؤكد نزاهة الإسلام وروحه وحقيقة تعاليمه،وأنّه لم يُطلَب نشره بقوة وإجبار، كما يذكره الأجانب وغيرهم دوماً.

وبعد الانتهاء من تلك المراسيم وعودة جماعة قريش، قام الرسول ﷺ بنحر ما كان معه من الهدي في نفس ذلـك المكان وحلق، وأدّى الآخرون نفس العملية، ثمّ عادوا إلى المدينة بعد ١٩ يوماً من البقاء في أرض الحديبية.

وكان لهذه المعاهدة نتائج وآثار بعيدة المدى، كان من أبرزها وأهمها:

١ . تهيّأت الأرضيـة لنشر الإسلام في المناطـق المختلفة، بعد استقـرار الأمن والسلام بين المسلمين وقريش، فقد كان يقضي ﷺ أكثر وقته في العمل على إفشال المؤامرات والدفاع عن المدينة والدخول في حروب.

٢ . كان لاعتراف قـريش بالكيان الإسـلامي رسمياً، دوره في منـح القبائل حريتها في الانضمام إلى المسلمين إذا شاءوا.

٣. زال الستار الحديدي الذي ضربه المشركون حول المسلمين في المدينة، فتمكن الناس من الارتحال إلى المدينة والتعرف عليها وعلى تعاليم الإسلام العليا، ممّا فسح المجال لهم في اعتناق الإسلام كما تمكن المسلمون من السفر إلى مكة وأجزاء أُخرى، ممّا ساعد في نشر الإسلام في تلك الجهات.

٤. التحق عددٌ كبير من رؤوس الشرك والكفر كـ«خالد بن الوليد و عمرو ابن العاص» بالمسلمين واعتنقوا الإسلام قبل فتح مكة.

٥. زال الحاجزُ النفسي بين قريش و المسلمين، حين أثبت الرسول ﷺ لهم بأنّه معدن عظيم من معادن الخلق الإنساني الكريم، بعد صبره وتجلده وتحمّله تصلّب قادة المشركين وتعنّتهم. فقد شاهدوا موقف النبي الأكرم ﷺ في مخالفته لآراء المعرضين من جماعته لبعض البنود عند توقيع العقد، وذلك في رغبة صادقة منه لإقرار السلام بين الجانبين،فأبطل بذلك كلّ الدعايات والإشاعات المغرضة التي رُوِّجت ضدّه و ضدّ دعوته المباركة، وأثبت أنّه حقّاً رجل سلام وداعية خير للبشرية، حتى لو سيطر على مقاليد الجزيرة العربية، فإنّه سيعامل أعداءه باللطف والحسنىٰ والتسامح.

ويؤكد ذلك قول الإمام الصادق عليه السلام بعد ذلك:«وما كان قضية أعظم بركة منها». إذ لم يكد النبي ﷺ أن يصل إلى المدينة حتى نزلت سورة الفتح التي وعدت المسلمين وبشّرتهم بالانتصار، ممّا اعتبر مقدمة لفتح مكة ﴿**انّا فَتَحْنا لَكَ فَتْحاً مُبيناً**﴾.[1]

وكانت المادة الثانية من المعاهدة، والتي اختلف حولها المسلمون، هي التي

---

١. بحار الأنوار: ٢٠/ ٢٦٣؛ زاد المعاد: ٢/ ١٢٦.

تسبّبت في الفتح بعد ذلك، لأنّ قريشاً طلبت من النبي ﷺ بعد فترة قصيرة من توقيع المعاهدة بإلغاء تلك المادة التي تنص: على الحكومة الإسلامية أن تعيد كلّ مسلم هارب من مكة إلى قريش، وليس عليها أن تعيد كلّ هارب من المسلمين.

ولما أثارت هذه المادة المسلمين، فإنّ النبي ﷺ طمأنَهم حينما ذكر لأحدهم: «إنّ الله جاعلٌ لك ولمن معك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً».

ذلك أنّ بعض هؤلاء المسلمين الهاربين تمكّنوا من تأسيس عصابة خاصة في مراكز بعيدة عن مكة والمدينة، للنيل من قوافل قريش التجارية والتعرض لها وقتل من يقع في أيديهم، الأمر الذي أقلق بال قريش، فراسلوا النبي ﷺ طالبين منه إلغاء هذه المادة للتخلص ممّا هم فيه من قلق وتوتر، فوافق الرسول الكريم ﷺ على ذلك، ولذلك انضم هؤلاء المسلمون المتفرّقون إلى جماعة المسلمين بالمدينة، إلاّ أنّ النبي ﷺ لم يقبل بإعادة المسلمات، كما حدث «لأُمّ كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط» التي هاجرت إلى المدينة فطلبوها، ولكن النبي ﷺ قال: «إنّ الله نقض العهد في النساء».[1]

وقد جاء كلّ ذلك كما حكى القرآن الكريم في سورة الممتحنة:

﴿يا أَيُّهَا الَّذينَ آمَنُوا إِذا جاءَكُمُ المُؤْمِناتُ مُهاجِراتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللهُ أَعْلَمُ بِإِيمانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِناتٍ فَلا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الكُفّارِ لا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَآتُوهُمْ ما أَنْفَقُوا﴾.[2]

---

١. المغازي: ٢/ ٦٣١؛ السيرة النبوية: ٢/ ٣٢٣.

٢. الممتحنة: ١٠.

الفصل الثامن

١. أحداث السنة السابعة من الهجرة

- إعلان النبي ﷺ عن عالمية رسالته
- أحداث خيبر
- قصة فدك
- عمرة القضاء

٢. أحداث السنة الثامنة من الهجرة

- معركة مؤته
- غزوة ذات السلاسل
- فتح مكة
- معركة حنين
- غزوة الطائف

أحداث السنة السابعة
من الهجرة

١. إعلان النبي ﷺ عن رسالته عالمياً

كان من نتائج المعاهدة السابقة، أنّها أعطت الفرصة للنبي ﷺ ليفتح باب الاتّصال مع زعماء وملوك العالم ورؤساء القبائل ورجال الدين المسيحي، فوجّه إليهم الرسائل عبر سفرائه ورسله، وهي خطوة اتّخذها الرسول ﷺ بعد ١٩ عاماً من الصراع مع قريش المتعنّتة، فقد أشغلته الجبهة الداخلية ومشكلاتها وأجبرته على أن يصرف كثيراً من وقته في ترتيب البيت الإسلامي، وشؤون الدفاع عن حياض الإسلام وكيان المسلمين.

ولدينا الآن نصوص ١٨٥ رسالة وكتاب من قِبَل رسول الله ﷺ أرسلها إلى عدّة أطراف وشخصيات محلية وعالمية تدعوهم إلى تقبّل الدين الإسلامي، كما تتضمن عقد مواثيق عقدها مع رؤساءالقبائل، قام بجمعها وضبطها أرباب السير وكُتّاب التاريخ، وهي تكشف عن أُسلوب الإسلام في الدعوة والتبليغ، وأنّه يعتمد على المنطق والبرهان، لا على السيف و القهر، وعلى الإقناع لا الجبر.[1]

---

١. أفضل ما تناول الموضوع من مصادر كتابان: أ. الوثائق السياسية للبروفيسور محمد حميد الله حيدر آبادي الأستاذ بجامعة باريس.

ب. مكاتيب الرسول للعلاّمة المحقّق الشيخ علي الأحمدي. و هو يمتاز بتحقيقات وتحليلات أدبية وتاريخية وسياسية إسلامية في غاية الأهمية.

فالدعوة الإسلامية كانت عالمية منذ ظهور الدعوة المحمدية، ويمكن الرد على المستشرقين المعادين للإسلام، والذين يؤكدون على عدم عالمية الدعوة المحمّدية، وينظرون إليها بعين الشكّ والريبة، في محاولة للتعتيم على الحقيقة، فإنّ القرآن الكريم يظهر بوضوح في آياته التي تشهد بأنّ النبي ﷺ دعا البشر عامة إلى التوحيد وإلى مبادئ رسالته، ولم يقتصر في ذلك على العرب:

- ﴿وَما أَرْسَلْناكَ إِلاّ كافَّةً للنّاسِ بَشيراً وَنَذيراً﴾.[١]

- ﴿وَما هُوَ إِلاّ ذِكْرٌ لِلْعالَمين﴾.[٢]

- ﴿لِيُنْذِرَ مَنْ كانَ حَيّاً﴾.[٣]

- ﴿هُوَ الّذي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالهُدىٰ وَدِينِ الحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُون﴾.[٤]

ولذا فإنّ النبي ﷺ اختار ستة أفراد من خيرة أصحابه حملوا كتبه إلى الملوك، تضمنت دعوته العالمية، إلى مختلف جهات الأرض، فتوجه سفراء الهداية ورسل الدعوة المحمّدية في وقت واحد إلى: إيران والروم والحبشة ومصر واليمامة والبحرين والحيرة، واتخّذ من هذا اليوم الذي كتب فيه الرسائل خاتماً من فضة نقشه ثلاثة أسطر: محمّد رسول الله، في الأعلى لفظة الجلالة، وتليه كلمة رسول ثمّ يليه اسمه الشريف، فختم به الكتب. كما أنّه ختم تلك الرسائل بالشمع أو الطين إمعاناً في السرية وحفاظاً عليها من التزوير.

---

١. سبأ: ٢٨.
٢. القلم: ٥٢.
٣. يس: ٧٠.
٤. التوبة: ٣٣.

ومن أبرز مبعوثيه ورسله إلى العالم:

١. دحية بن خليفة الكلبي: بعثه إلى قيصر الروم في القسطنطينية.

وقد توجه إلى بصرى حيث كان معه رسالة إلى حاكمها، فساعده في الوصول إلى بيت المقدس التي كان قيصر الروم قد اتجه إليها. ولما قيل له أنّ عليه أن يسجد عند مقابلة قيصر، رفض على أساس أنّه لا يسجد لغير الله: «إنّما جئتكم من قِبَلِ نبي لأبلّغ ملككم بأن عهد عبادة البشر قد انقضى وانتهى، وأنّه لا يحق السجود إلاّ لله وحده، فكيف يمكنني ذلك وأنا أحمل هذه الرسالة التوحيدية إليكم؟».[1]

وقرأ ترجمان القيصر كتاب النبي ﷺ إليه: «بسم الله الرّحمن الرّحيم، من محمّد بن عبد الله إلى هرقل عظيم الروم. سلام على من اتّبع الهدى. أمّا بعد، فإنّما عليك إثم الأريسيين. و ﴿**يا أَهْلَ الكِتابِ تَعالَوْا إِلىٰ كَلِمَةٍ سَواءٍ بَيْنَنا وَبَيْنَكُمْ أَلاّ نَعْبُدَ إِلاّ اللهَ وَلاٰ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلاٰ يَتَّخِذَ بَعْضُنا بَعْضاً أَرْباباً مِنْ دُونِ اللهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اُشْهدوا بِأَنّا مُسْلِمُون**﴾[2]. محمد رسول الله».

وكان قيصر قد حصل على معلومات وافية عن الرسول ﷺ من أبي سفيان الذي كان متواجداً في هذا الوقت في الشام في تجارته، كما كتب إلى أحد علماء الروم يسأل عنه ﷺ فأجابه:

«هذا النبي الذي كنّا ننتظره، بشّرنا به عيسى بن مريم». ولذا فإنّه دعا قومه إلى الإيمان به ﷺ وبالإسلام، إلاّ أنّهم رفضوا ذلك وثاروا عليه، فأسكتهم، ثمّ أمر بإكرام دحية، وكتب جواباً على رسالة النبي ﷺ وأرسل معه هدية إليه ﷺ.

---

١. طبقات ابن سعد: ١/ ٢٥٩.

٢. آل عمران: ٦٤.

٢. عبد الله بن حذافة السهمي: إلى البلاط الفارسي.

حكم فارس خسرو برويز ثاني ملك بعد أنو شيروان، فجلس على العرش مدّة ٣٢ عاماً قبل الهجرة النبوية، وتميز عهده بالاضطراب وعدم الاستقرار، بالرغم من أنّ النفوذ الإيراني قد امتدّ حتى شمل آسيا الصغرى حتى مشارف القسطنطينية، كما استولى على صليب عيسى المقدس عند النصارى وأحضره إلى المدائن، إلاّ أنّ الأحوال السيّئة وأساليب الحكم غير الصحيحة أدّت إلى ضعف هذه الدولة وخروج المستعمرات من تحت نفوذها، ممّا ساعد على اجتياح الروم لأراضي إيران،وهروب الامبراطور خسرو برويز، الذي أثار بذلك السخط عليه، فقتله ابنه شيرويه. و برويز هذا هو الامبراطور الذي اشتهر بأنّه مزّق رسالة النبي ﷺوعامل رسوله بجفاء وسوء أدب، وفيما يلي نص الرسالة إليه:

«بسم الله الرّحمن الرّحيم. من محمّد رسول الله إلى كسرىٰ عظيم فارس. سلام على من اتبع الهدى وآمن بالله ورسوله، وأشهد أن لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له وأنّ محمّداً عبده ورسوله، أدعوك بدعاية الله، فإنّي أنا رسول الله كافة لأنذر من كان حياً، ويحق القول على الكافرين. أسلم تسلم. فإن أبيت فعليك إثم المجوس».

وقد مزق الإمبراطور الكتاب عند قراءة أوّل جملة منها ودون أن يعلم ما كان فيها، ثمّ أمر بإخراج الرسول من قصره. وعندما أُخبر النبي ﷺبذلك قال: «اللّهمّ مزّق ملكه».[1]

إلاّ أنّ اليعقوبي، ينفرد برأي آخر، بأنّ الامبراطور الفارسي أرسل هدية من حرير ومسك إلى النبي ﷺ. ويوافقه على رأيه أحمد بن حنبل فقط الذي قال:

١. طبقات ابن سعد:١/ ٢٦٠.

أهدى كسرى لرسول الله ﷺ فقبل منه.[١]

أمّا الإمبراطور المغرور فإنّه طلب من واليه على اليمن باذان ـ التي كانت تتبع فارس ـ بأن يقبض على هذا النبي ويبعثه إليه. فأرسل هذا إليه فارسين طلبا من النبي ﷺ أن يسلّم نفسه للامبراطور الفارسي أو يقتلاه، فردّ عليهما بأن عرض ﷺ عليهما الإسلام، على أن يعودا إليه في اليوم التالي. وفي هذه الفترة، تخلص ابن الامبراطور الفارسي منه بقتله، فأخبر الله تعالى نبيه بذلك، فذكره للفارسين قائلاً: إنّ ربّي قد قتل ربّكما ليلة كذا من شهر كذا بعد ما مضى من الليل كذا، وسلط عليه شيرويه فقتله. وكانت الليلة الثلاثاء من العاشر من جمادى الأُولى ٧هـ. فطلبا السماح لهما بإخبار ملكهم باذان في اليمن بما جرى، فسمح لهما الرسول ﷺ: «نعم أخبراه ذلك عني، إنّ ديني و سلطاني سيبلغ ما بلغ ملك كسرىٰ وينتهي إلى منتهى الخف والحافر، وقولا له: إن أسلمت أعطيتك ما تحت يديك، وملكتك على قومك».

ولما تأكد الوالي باذان في اليمن من صحة أقوال النبي ﷺ وما حدث بفارس، فإنّه أعلن إسلامه مع جميع أعضاء حكومته ـ وهم من الفرس ـ وكتب بذلك إلى النبي ﷺ.[٢]

٣. حاطب بن أبي بلتعة، إلى مصر:

وقد نصت الرسالة إلى المقوقس حاكم مصر: «أسلم يؤتك الله أجرك مرّتين. فإن توليت فإنّما عليك إثم القبط».

---

١. مسند أحمد بن حنبل: ١/ ٩٦.

٢. بحار الأنوار: ٢٠/ ٣٩١.

وقد توجه الرسول إلى الإسكندرية حيث كان يعيش هناك في قصر شامخ، وكان متسامحاً، ممّا جعل حاطباً يتناول في خطابه إيّاه صورة الإسلام وقوّة النبيّ ﷺ كما ذكر التوراة والإنجيل، وأنّ الإسلام هو الصورة الأكمل لدين المسيح، ثمّ إنّ المقوقس طلب منه أن يصف الرسول ﷺ ويبين مضمون دعوته، فقال، بعد أن سمع وصفه: «كنت أعلم أنّ نبياً بقي، وكنت أظن أنّ مخرجه بالشام فأراه قد خرج من أرض العرب. والقبط لا تطاوعني في اتّباعه، وسيظهر على البلاد، وينزل أصحابه من بعد بساحتنا هذه حتى يظهروا على ما هاهنا».

ثمّ كتب كتاباً إلى النبي ﷺ «أمّا بعد فقد قرأت كتابك وفهمت ما ذكرت فيه وما تدعو إليه، وقد أكرمتُ رسولك وبعثتُ إليك بجاريتين لهما مكان عظيم في القبط، وبثياب، وأهديت إليك بغلة لتركبها، والسلام عليك».[1]

وحينما تسلم النبي ﷺ كتابه وهداياه قال: «ضنّ بملكه ولا بقاء لملكه».[2]

٤. عمرو بن أمية الضميري، إلى الحبشة

اختير عمرو لتسليم كتاب النبي ﷺ إلى نجاشي الحبشة الملك العادل، وكان النبي ﷺ قد أرسل إليه من قبل رسائل بشأن المهاجرين المسلمين للاعتناء بهم ورعايتهم.

وشمل كتابه ﷺ هذه المرة دعوته إلى الدين: «أحمد الله الذي لاإله إلّاهو الملك القدّوس السَّلام المؤمن المهيمن، وأشهد أنّ عيسى بن مريم روح الله وكلمته، وإنيّ أدعوك إلى الله وحده لا شريك له، والموالاة على طاعته وأن تتبعني

---

١. طبقات ابن سعد: ١/ ٢٦٠.
٢. طبقات ابن سعد: ١/ ٢٦٠.

وتوقن بالـذي جاءني، فإنّي رسول الله وإنّي أدعوك وجنودك. وقـد بلّغت ونصحت فاقبلوا نصيحتي، والسلام على من اتّبع الهدى».[١]

ونظراً للعلاقات الطيبة بين الطرفين، فإنّ الرسول ﷺ بدأ كتابه بالسلام عليه ومرسلاً تحياته الشخصية، في حين أنّه لم يفعل هذا في الكتب الأُخرى التي أُرسلت إلى كسرى و قيصر والمقوقس، فقد خصّه بالسلام عليه دون غيره من الزعماء.

أمّا النجاشي فقد اعترف بنبوة النبي ﷺ: «أشهد بالله أنّه للنبي الذي ينتظره أهل الكتاب، وإنّ بشارة موسى براكب الحمار كبشارة عيسى براكب الجمل، وأنّه ليس الخبر كالعيان، ولكـن أعواني من الحبشة قليل، فانظـرني حتى أُكثّر الأعوان، وأُليّن القلوب، ولو استطيع أن آتيه لأتيته».[٢]

وكتب بذلك كتاباً إلى النبي ﷺ ذكر فيه: «إلى محمّد رسول الله من النجاشي. سلام عليـك يا نبـي الله ورحمة الله وبركـاته، الـذي لاإله إلاّ هـو الذي هـداني إلى الإسلام. أشهد أنّـك رسول الله وقد بايعتـك وبايعت ابن عمـك وأسلمت على يـديه لله ربّ العـالمين. فإنّي أشهـد أنّ مـا تقول حـقّ. والسلام عليـك ورحمة الله وبركاته».[٣]

كما بعث إليه بهدايا خاصة.

٥. شجاع بن وهب: إلى أمير الغساسنة:

انزعج ملكها «الحارث بن أبي شمر الغسـاني» ممّا قرأ في آخر الكتاب: «وإنّي

١. السيرة الحلبية: ٣/ ٢٤٨؛ إعلام الورى: ٤٥.
٢. السيرة الحلبية: ٣/ ٢٤٨؛ الطبقات الكبرى: ١/ ٢٥٩.
٣. تاريخ الطبري: ٢/ ٢٩٤؛ بحار الأنوار: ٢٠/ ٣٩٢.

أدعوك أن تؤمن بالله وحده لا شريك له يبقى ملكك» فقال: من ينتزع منّي ملكي؟ أنا سائر إليه ولو كان باليمن جئته. وأعدّ الجيوش واستعرض قوته العسكرية أمام سفير النبي ﷺ إرعاباً وتخويفاً، ثمّ أرسل إلى قيصر يخبره بنواياه، إلاّ أنّ قيصر هدّأ من ثائرته وكتب إليه يمنعه من السير إلى رسول الإسلام، ممّا كان له الأثر في تغيير موقفه، فأكرم السفير ومنحه هدايا ثمينة، ووجهه نحو المدينة معززاً مكرماً، وأبلغ السلام إلى النبي الأكرم ﷺ. إلاّ أنّ النبي ﷺ لم يقبل بأُسلوبه الدبلوماسي غير الصادق، فقال: باد ملكه. أي أنّ ملكه سيزول عمّا قريب. فمات الحارث في السنة ٨هـ أي بعد عام واحد.[١]

٦. سليط بن عمرو إلى ملك اليمامة: هوذة بن علي الحنفي:

ونص خطابه ﷺ إليه «إعلم إنّ ديني سيظهر إلى منتهى الخف والحافر (أي يعم الشرق والغرب) فأسلم تسلم واجعل لك ما تحت يديك».

وقد استطاع السفير بما أُوتي من قوّة في المنطق وشجاعة أدبية وخبرة بالأسفار، أن يقنع ملك اليمامة بقبول مبادئه وأهدافه. كما نصحه أحد الأساقفة بتقبل الدين الجديد، وأنّه هو النبي الذي بشّر به الإنجيل. فكتب كتاباً إلى النبي ﷺ قال فيه: «ما أحسن ما تدعو إليه وأجمله، وأنا شاعر قومي وخطيبهم، والعرب تهاب مكاني، فاجعل إليّ بعض الأمر اتّبعك» أي أنّه طلب أن يجعله النبي ﷺ خليفة من بعده. فقال الرسول ﷺ: لا ولا كرامة،لو سألني سيابة من الأرض ما فعلت. اللّهمّ أكفنيه.[٢]

---

١. السيرة الحلبية:٣/ ٢٥٥؛ طبقات ابن سعد:١/ ٢٦١.

٢. نفس المرجع السابق. سيابة من الأرض: أي قطعة من الأرض.

آثار تلك الرسائل ونتائجها

أصبح هؤلاء السفراء والرسل دليلاً قاطعاً على عالمية الرسالة الإسلامية، إذ أنّ شعوباً كبرىٰ تعرفت على النبي العربي محمّد ﷺ الذي تأثر به معظم هؤلاء القادة والملوك، فأصبح ظهوره ﷺ حديث الأوساط والمحافل الدينية بالإضافة إلى المراكز السياسية. فقد تمكنت هذه الرسائل من إثارة مشاعر تلك الشعوب المتحضرة ودفعتهم إلى البحث والتحقيق حول من بشّر به التوراة والإنجيل، وتسابقت أفواجٌ وفرقٌ عدة من رجال الدين وغيرهم بالقدوم إلى المدينة لدراسة أوضاع الدين الجديد والتعرف على مبادئه.

٢. أحداث خيبر: بؤرة الخطر

تقع خيبر على بعد ٣٢ فرسخاً من المدينة، وهي منطقة واسعة خصبة، سكنها اليهود وبنوا فيها الحصُون والقلاع المتينة، وبلغ عدد سكانها ٢٠ ألف فرد.

ولما كانوا ممّن اشتركوا في جيش الأحزاب وساعدوا المشركين في حربهم ضدّ النبي ﷺ والمسلمين، فإنّ النبي ﷺ أسرع للقضاء عليهم وعلى خطرهم نحو الإسلام والمسلمين، إذ هم أشدّ تعصباً لدينهم، من تعصب قريش للوثنية، فقد كان يعلن ألف مشرك وثني إسلامهم في مقابل يهودي واحد. كما أنّ النبي ﷺ تخوّف من استغلال جهات أُخرى معادية كالقيصر أو كسرى، لهؤلاء اليهود في القضاء على الدولة الإسلامية، إذ لا يستبعد منهم ذلك، وخاصة أنّهم كانوا المحرّضين لقريش في محاربة المسلمين.

ولذا فقد أعدَّ النبي ﷺ لغزو آخر مركز من مراكز اليهود في الجزيرة العربية وقال: لا تخرجوا معي إلاّ راغبين في الجهاد أمّا الغنيمة فلا، فخرج معه ألف و٦٠٠

مقاتل.

وعندما وصل إلى المنطقة، قطع الطريق عن أيّة إمدادات عسكرية تأتي من الشمال وذلك بقطع خط الارتباط بين قبائل غطفان وفزارة ويهود خيبر، فلم تستطع هذه القبائل أن تمد حلفاءها اليهود بأيّ شيء طوال شهر هو مدّة الحصار.[1]

ولمّا كانت حصونهم وقلاعهم متينة وقوية وممتنعة بمتاريس قوية شديدة، فإنّه كان لابدّ لفتحها من استخدام تكتيك عسكري مناسب، فكان أوّل عمل قام به الرسول ﷺ هو احتلال كلّ النقاط والطرق الحساسة ليلاً، بالسرعة والسرية.

أمّا اليهود فقد قرروا في اجتماعهم العسكري أن يضعوا الأطفال و النساء في حصن، والذخيرة من الطعام في حصن آخر، بينما يستقر المقاتلون على الأبراج يدافعون عن القلاع والحصون، في الوقت الذي يخرج أبطالهم ليقاتلوا المسلمين ويبارزونهم خارج الحصون، و لذلك فإنّهم تمكنوا من مقاومة الجيش الإسلامي لمدّة شهر، بحيث كانت محاولة فتح كلّ حصن تستغرق عشرة أيّام دون نتيجة.

وقد فتح أوّل حصن وهو ناعم بعد أن استشهد في معاركه: محمود بن مسلمة الأنصاري، وهو أحد فرسان المسلمين، وجرح خمسون مقاتلاً نقلوا إلى منطقة مخصصة للتمريض والعلاج، حيث سمح لبعض نساء بني غفار بالحضور إلى خيبر للمساعدة في التمريض والتضميد وتقديم خدمات أُخرى في المعسكر. ثمّ جرى فتح حصن القموص وأُسرت فيه «صفية بنت حيي بن أخطب» التي

---

١. الأمالي للطوسي: ١٦٤. ويرى ابن هشام في سيرته: ٢/ ٣٢٨ أنّ خروج النبي ﷺ إلى خيبر كان في شهر محرم، بينما ذهب ابن سعد في الطبقات: ٢/ ٧٧ أنّه كان في جمادى الثانية ٧هـ.
ولما كان إرسال الرسل والمندوبين عنه ﷺ في شهر محرم، فإنّ الرأي الثاني هو الأقرب إلى الصحة.

أصبحت زوجة للرسول ﷺ فيما بعد.

ولكن الجوع استولى على المسلمين فاضطروا بسببه إلى تناول ما كره أكله من الأنعام، وكادوا أن يهلكوا، فأمر الرسول ﷺ أن تؤخذ شاتان من غنم اليهود إضطراراً،وأطلق البقية ـ من الأغنام ـ لتدخل الحصن بأمان. وقد سمح النبي ﷺ بذلك للاضطرار الذي يباح معه المحذور بقدره، فدعا ربّه: «اللّهمّ إنّك قدعرفت حالهم، وأن ليست بهم قوّة،وأن ليس بيدي شيء أعطيهم إيّاه، فافتح علىهم أعظم حصونها عنهم غناء وأكثرها طعاماً».[1]

ثمّ بعث رجالاً معروفين من صحابته لفتح الحصون، إلاّ أنّ شيئاً جديداً لم يتم، فقال ﷺ:

«لأعطينّ الراية غداً رجلاً يحبّ الله ورسولَه ويحبُه الله ورسولُه،يفتح الله على يديه، ليس بفرار ــ أو كرّار غير فرّار ـ»[2] فبات كلّ واحد يتمنى أن يكون هو صاحب هذا النوط الخالد العظيم. وعندما بلغ الإمام عليّاً عليه السلام مقالة النبي ﷺ و هو في خيمته قال: «اللّهم لا معطي لما منعت ولا مانع لما أعطيت». وفي الصباح طلب النبي ﷺ علياً فقيل أنّ به رمد، فأُتي به إلى النبي ﷺ فمرر يده الشريفة على عينيه ودعا له بخير فعوفي من ساعته،فدفع إليه اللواء ودعا له بالنصر، وأمره أن يبعث إلى اليهود قبل قتالهم، من يدعو رؤساء الحصون إلى الإسلام، فإن أبوا ورفضوا، أمرهم بتسليم أسلحتهم إلى الحكومة الإسلامية ليعيشوا تحت ظلّها بحريّة وأمان شريطة أن يدفعوا الجزية.[3] وإذا رفضوا قاتلهم. ثمّ قال ﷺ للإمام

---

١. السيرة النبوية:٢/ ٣٢٢.

٢. مجمع البيان :٩/ ١٢٠؛ السيرة الحلبية:٢/ ٣٧؛ السيرة النبوية:٢/ ٣٣٤؛ إمتاع الأسماع:١/ ٣١٤.

٣. صحيح مسلم:٥/ ١٩٥؛ صحيح البخاري: ٥/ ١٨.

علي عليه السلام : «لئن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير من أن يكون لك حمر النعم».[١]

ومن ثمّ توجه الإمام علي عليه السلام إلى القلعتين المحصنتين سلالم والوطيح، والتي عجز المسلمون وقوادّهم عن فتحها،فخرج إليه الحارث، أخو مرحب، فقاتله الإمام عليه السلام و سقط على الأرض جثة هامدة بضربة من ضربات الإمام عليه السلام المشهورة، ممّا أغضب مرحب أخيه فخرج غارقاً في الدروع والسلاح ليقاتل علياً عليه السلام الذي تمكن من شقّ رأسه نصفين، فكانت ضربة قوية بحيث أفزعت من كان مع مرحب من أبطال اليهود، ففروا لاجئين إلى الحصن. وبقي آخرون منهم قاتلوا علياً منازلة، فقضى عليهم الإمام عليه السلام ثمّ لحق بالفارين إلى الحصن، فضربه أحدهم فطاح ترسه من يده، إلاّ أنّ الإمام عليه السلام تناول باباً كان على الحصن فانتزعه من مكانه واستخدمه ترساً يحمي نفسه حتى فرغ من القتال. وبعد ذلك حاول ثمانية من أبطال المسلمين، كان منهم أبو رافع مولى النبي صلى الله عليه وآله أن يقلبوا ذلك الباب أويحرّكوه فلم يقدروا.[٢]

ونقل الشيخ المفيد في إرشاده بسند خاص عن أمير المؤمنين علي عليه السلام بخصوص الباب، قوله: «لما عالجتُ باب خيبر جعلته مجناً لي فقاتلتهم به،فلمّا أخزاهم الله وضعتُ الباب على حصنهم طريقاً ثمّ رميتُ به في خندقهم».[٣]

وأمّا المؤرخون فقد نقلوا قضايا عجيبة حول قلع باب خيبر و عن بطولات الإمام عليه السلام في فتح الحصن، إلاّ أنّ جميعها لا تتمشى و لا تتيسر مع القدرة البشرية المتعارفة، ولا يمكن أن تصدر منها، حتى أنّ الإمام عليه السلام نفسه يرفع كلّ شك في

١. السيرة الحلبية:٢/ ٣٧.

٢. تاريخ الطبري:٢/ ٩٤؛السيرة النبوية:٢/ ٣٤٩؛ تاريخ الخميس:٢/ ٤٧.

٣. إرشاد المفيد: ٦٢.

هذا بقوله: «ما قلعتها بقوّة بشريّة، ولكن قلعتها بقوّة إلهية، ونفسي بلقاء ربّها مطمئنة رضية».[١]

وهكذا انتهت الحرب بانتصار المسلمين، الذي كان وراءه ثلاثة عوامل أساسية:

١. التخطيط العسكري والحربي الدقيق.

٢. حصولهم على معلومات وافرة عن العدو وأسراره.

٣. بطولة الإمام علي عليه السلام.

فقد تمكّن النبي صلى الله عليه وآله من تحييد قبيلة غطفان ومنعها من إمداد المساعدات لليهود، كما تعرف على أحوالهم وأوضاعهم في حصون خيبر، سواء العسكرية منها أو النفسية للمقاتلين والأفراد. بالإضافة إلى بطولة الإمام علي عليه السلام الذي قال: «فلم يبرز إليّ أحد منهم إلاّ قتلته، ولا يثبت لي فارس إلاّ طحنته، ثمّ شددت عليهم شدّة الليث على فريسته حتى أدخلتهم جوف مدينتهم مسدداً عليهم، فاقتلعت باب حصنهم بيدي حتى دخلت عليهم مدينتهم وحدي أقتل من يظهر فيها من رجالها وأسبي من أجد من نسائها، حتى افتتحتها وحدي ولم يكن لي فيها معاون إلاّ الله وحده».[٢]

ثمّ أمر الرسول صلى الله عليه وآله بأن تجمع الغنائم كلّها في مكان واحد، وأن ينادى:

أدّوا الخيط والمخيط، فإن الغلول عار وشنار ونار يوم القيامة.[٣] فالإسلام يشدّد على أهمية الأمانة، حتى اعتبر ردّ الأمانة مهما صغرت من علائم الإيمان،

---

١. بحار الأنوار: ٢١/ ٤٠.

٢. الخصال: ٣٦٩ باب السبعة.

٣. وسائل الشيعة: باب جهاد النفس؛ المغازي: ٢/ ٦٨١.

والخيانة من علائم النفاق.

وفي لحظات الفرح بالانتصار على اليهود، رجعت مجموعة من مسلمي الحبشة المهاجرين إليها بقيادة جعفر بن أبي طالب، فاستقبله النبي ﷺ وقبّل ما بين عينيه وقال: ما أدري بأيّهما أُسرّ، بفتح خيبر أم بقدوم جعفر. ثمّ إنّه ﷺ علّمه الصلاة المعروفة بصلاة جعفر الطيّار.[١]

وبالنسبة لقتلى الجانبين، فقد بلغ عدد شهداء المسلمين ٢٠ فرداً، بينما سجّل التاريخ أسماء ٩٣ رجلاً هم قتلى اليهود.[٢]

وبعد ذلك تمّ الاتّفاق بين الطرفين على:

١. قبول النبي ﷺ لطلب اليهود بأن يسكّنهم في خيبر كما كان الوضع.

٢. ترك أراضيهم وبساتينهم لهم.

٣. حصول المسلمين على نصّف محاصيلها سنوياً.

فالنبي ﷺ لم يجبرهم على شيء بل تركهم أحراراً في ممارسة شعائرهم والبقاء على ما كانوا يعتقدونه من أُصول دينهم، إذ أنّه لم يحارب أهل خيبر إلّا عندما تحولت إلى بؤرة خطرة للمؤامرات والكيد للإسلام والمسلمين، فقد أمدّوا الكفار والمشركين بكلّ ما يحتاجون للقضاء على الحكومة الإسلامية الناشئة، ممّا اضطر معه النبي ﷺ إلى إعلان الحرب عليهم وقتالهم وتجريدهم من السلاح ليعيشوا تحت ظل الدولة الإسلامية، ويدفعوا الجزية لقاء دفاع الحكومة الإسلامية عنهم وحمايتهم من الأعداء، وهو ما يعني حماية أنفسهم وأنّ أموالهم مؤمنة لهم من قبل

---

١. فروع الكافي: ١/ ١٢٩؛ الخصال: ٢/ ٨٢؛ إمتاع الاسماع: ١/ ٣٢٥.

٢. بحار الأنوار: ٢١/ ٣٢.

المسلمين.

وعند جمع الغنائم حصل المسلمون على قطعة من التوراة طلب اليهود إعادتها، فأمر النبي ﷺ بإعادتها إليهم، ممّا يكشف عن احترام النبي ﷺ للشرائع والأديان الأُخرى.

وقد توجه النبي ﷺ بعد خيبر إلى وادي القرى التي شكلت مركزاً آخر لليهود،ففتحها وعقد صلحاً مع أهلها على غرار معاهدة خيبر. وبذا فإنّ الحجاز طهُرت من فتنة اليهود،وجرّدوا من أسلحتهم،ووضعوا تحت حماية المسلمين ومراقبتهم.[1]

إلاّ أنّ بعضهم خطّط بعد فترة من الهدوء والاستقرار، للتخلص من النبي ﷺ فقدّمت زينب بنتُ الحارث شاة مشوية سمّمت كتفها التي يحبها النبي ﷺ فأثّر به السم بعد ذلك وتوفي ﷺ من أثره. ولم ينتقم منها النبي ﷺ بل عفا عنها، فالنبي ﷺ لم يكن كبعض القادة والزعماء الذين يصبغون الأرض بدماء من ظنّ أنّهم قصدوا قتله،أو يملأون السجون بهم، أو يخضعونهم لأشد أنواع العذاب والتعذيب الجسدي والنفسي.

٣. قصة فدك

وتبعد فدك عن المدينة بما يقرب من ١٤٠ كم، و هي منطقة زراعية خصبة، اعتبرت نقطة ارتكاز هامة لليهود بعد خيبر. وقد تميّزت العلاقات بين رئيسها يوشع بن نون و القيادة الإسلامية بالسلام والأمان، حيث تعهد بأن يسلم نصف

---

١. الكامل في التاريخ:٢/ ١٥٠.

محاصيلها سنوياً إلى الرسول ﷺ ليعيشوا تحت راية الحكومة الإسلامية، على ألا يقوموا بأي أمر يعكر صفو السلام و الأمن بين الطرفين، وتتعهد الحكومة الإسلامية في مقابل ذلك بتوفير الأمن في المنطقة كلها.[١]

ومن الجدير بالذكر أنّ الأراضي التي يسيطر عليها المسلمون بالحرب والقتال، تعود ملكيتها إلى عامّة المسلمين بإدارة القائد الأعلى للأُمّة، أمّا الأراضي التي لا يستخدمون القوّة في احتلالها، فتصبح ملكاً للرسول ﷺ والإمام من بعده يتصرف فيها كما يشاء، فيهبها أو يؤجرها،وعلى هذا الأساس وهب رسول الله ﷺ فدكاً لابنته الطاهرة فاطمة الزهراء عليها السلام، حيث ابتغى من وراء ذلك تحقيق أمرين:

١. أن يستفيد منها الإمام في أداء واجباته ومتطلبات الناس عندما يدير الحكم من بعده، إذ أنّه سيكون في حاجة إلى ميزانية كبيرة.

٢. وأن تعيش أُسرة النبي ﷺ بعده بصورة تليق بمقامه ﷺ وشرفه ومكانته السامية.

وفي ذلك يذهب معظم العلماء والمفسرين والمحدّثين الشيعة وبعض علماء السنّة، أنّه عند نزول قوله تعالى: ﴿وَآتِ ذَا القُربىٰ حَقَّهُ وَالمِسْكينَ وَابْنَ السَّبِيلِ﴾[٢] أوصى النبي ﷺ فدكاً إلى ابنته الزهراء عليها السلام . ولذلك فقد أعاد المأمون العباسي بعد فترة من هذا الوقت، فدكاً إلى أبناء الزهراء عليها السلام بعد توضيح شأن نزول هذه الآية له، كما أنّ الإمام علياً عليه السلام قد صرّح بملكيته لفدك في إحدى رسائله إلى واليه على البصرة: «عثمان بن حنيف»:«بلى كانت في أيدينا فَدَك من كلّ ما أظلته السماء فشحّت عليها نفوسُ قوم، و سخت عنها نفوسُ قوم آخرين ونعم الحكم الله».[٣]

---

١. السيرة النبوية:٢/ ٣٥٣؛ إمتاع الاسماع:١/ ٣٣١؛ فتوح البلدان:٤٢.

٢. الإسراء:٢٦.

٣. نهج البلاغة: الكتاب ٤٥.

فدك بعد النبي ﷺ

عندما حُرمت ابنة رسول الله ﷺ من ملكها الخاص بعد وفاة أبيها ﷺ عمدت إلى إثبات حقّها و استرداد ملكها من جهاز الدولة، عن طريق القانون، فأحضرت الدلائل بالرغم من أنّه لا يُطلب من فرد له يد على شيء ـ أي يكون تحت تصرفه ـ أن يقيم دليلاً على ملكيته ذلك الشيء. وكان شاهدها: الإمام علي عليه السلام و أُمّ أيمن التي شهد لها النبي ﷺ بأنّها من نساء الجنة [١]، إضافة إلى رباح الذي كان النبي ﷺ قد أعتقه حسب رواية البلاذري [٢]، إلاّ أنّ كلّ ذلك لم ينفع في إرجاع الأرض إلى صاحبتها.

وفي العصر الأموي وزع معاوية بن ابي سفيان فدكاً بين ثلاثة: مروان بن الحكم، عمرو بن عثمان، و يزيد. وعندما حكم مروان استولى عليها تماماً ووهبها لابنه عبد العزيز الذي سلّمها لولده عمر، الذي أزال أوّل بدعة وهي إعادة فدك إلى بني فاطمة عليها السلام فقد كان الخليفة المعتدل، ولكن حكّام بني أُميّة تداولوها ثانية حتى نهاية دولتهم.

أمّا في العصر العباسي فقد ردّها السفاح أبو العباس إلى عبد الله بن الحسن ابن الحسن، ثمّ قبضها أبو جعفر المنصور من بني الحسن، ثمّ ردّها المهدي ابنه إليهم، حتى جاء المأمون فردّها على أصحابها الشرعيين بصورة رسمية.

وقد استغل الأمويون والعباسيون فدكاً استغلالاً سياسياً بجانب الاستفادة الاقتصادية و اضطرب أمرها بين السلب والردّ.

---

١. الإصابة: ٤/ ٤٣٢.

٢. فتوح البلدان: ٤٤

٤. عمرة القضاء[٣]

بعد مضي عام و احد على توقيع معاهدة صلح الحديبية، وعلى ضوء المادة التي تسمح للمسلمين بأداء العمرة في العام التالي، فقد قرروا التوجه إلى مكّة، وخاصّة أنّهم كانوا قد تركوها سبعة أعوام بعدوا فيها عن وطنهم. فاستعد ألفان للانضمام إلى النبي ﷺ في أداء العمرة، كان من ضمنهم شخصيات بارزة ملازمة له ﷺ طوال فترة وجوده في المدينة. وكان ذلك يوم الإثنين ٦ من شهر ذي القعدة. كما أنّ النبي ﷺ تحسباً لأي طارئ أعدّ مائتين من الأفراد مسلّحين وضعهم خارج مكة على مقربة من الحرم للتدخل في أية مشكلة تصدر حيالهم.

وفي مكة خرج الأهالي منها إلى رؤوس الجبال وقالوا: لا ننظر إلى محمد ولا إلى أصحابه، فكانوا يراقبون المشهد من بعيد.

وقد بهرت أصوات المسلمين مكبّرين كلَّ سكان مكة وسحرت قلوبهم وجلبت عطفهم على المسلمين،مثلما أرعب اتّحادهم ونظامهم والتفافهم حول النبي ﷺ أفئدة المشركين.

وطاف الرسول ﷺ بالبيت على راحلته،وأمر عبد الله بن رواحة أن يردّد هذا الدعاء بلحن ونغم خاص: «لاإله إلاّ الله وحده وحده، صدق وعده، ونصر عبده،وأعزّ جنده، وهزم الأحزاب وحده» فردّدها المسلمون وراءه. ثمّ أمر ﷺ بلالاً أن يؤذن على ظهر الكعبة لصلاة الظهر، فانزعجوا بسبب الأذان، وأحرجتهم مضامينه التي كانت ضدّ ما يحملونه من معتقدات باطلة موروثة.

---

١. سميت عمرة القضاء لأنّها كانت بدلاً عن العمرة التي منع النبي والمسلمون عنها في العام السابق لها.

وبعد أداء المناسك، ذهب المهاجرون إلى منازلهم التي تركوها منذ سبعة أعوام فجدّدوا اللقاء بأقربائهم.

إلاّ أنّ تأثير أوضاع المسلمين في نفوس أهل مكة، وتخوّفهم من إحداث إنقلاب روحيّ فيهم، إذ أنّ هذه الرحلة الدينية، اعتبرت دعائية وإعلامية، أثّرت في نفوس عدد من أهل مكّة فدخلوا الإسلام، ممّا دعا إلى أن يطلب زعماء قريش من النبي ﷺ مغادرة مكة بعد انقضاء المدّة المحددة و المقررة بينهم: «إنّه قد انقضى أجلك فاخرج عنّا».

وممن تأثر بالوضع، ميمونة أُخت زوجة العباس ـ أُمّ الفضل ـ لما شهدت من مشاعر المسلمين، فطلبت الزواج من النبي ﷺ الذي وافقها، فقوى بذلك علاقاته مع قريش، إلاّ أنّهم لم يسمحوا للنبي ﷺ بالاحتفال بمناسبة الزواج في مكّة، فطلب ﷺ من أبي رافع أن يُحضِر زوجته بعد ذلك.

وبذا فقد تحقّقت رؤيا النبي ﷺ قبل عام من هذا، في أنّه دخل البيت وحلق رأسه، ونزلت آية الفتح التي تناولت تحقيق هذا الوعد:

﴿لَقَدْ صَدَقَ اللهُ رَسُولَهُ الرُّؤيا بِالحَقِّ لَتدخُلُنَّ المَسْجِدَ الحَرامَ إِنْ شاءَ اللهُ آمِنينَ مُحَلِّقينَ رءُوسكُمْ وَمُقَصِّرينَ لاٰ تَخافُون فَعَلمَ ما لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذٰلِكَ فَتْحاً قَرِيباً﴾.[1]

---

١. الفتح:٢٧،

أحداث السنة الثامنة
من الهجرة

١. معركة مؤتة

بعد وقوع الأحداث السابقة، واستقرار الأمن في الحجاز بين المسلمين وقريش والأطراف المعادية الأُخرى، وضعف نفوذ اليهود وسطوتهم، فكّر النبي الأكرم ﷺ في أن يركز في دعوته على سكان مناطق الحدود عند الشام، فوجه لهذا الغرض «حارث بن عمير الأزدي» يحمل كتاباً إلى أمير الغساسنة: الحارث بن أبي شمر الغساني، الذي حكم بصرى، فقبض على سفير النبي ﷺ في مؤتة وقتله مخالفاً بذلك كلّ الأعراف الدولية التي تقضي باحترام السفراء وحصانتهم، ممّا أغضب الرسول ﷺ والمسلمين، فقرر الاقتصاص من قاتل سفيره.

وبالإضافة إلى ذلك، فإنّ النبي ﷺ كان قد بعث في شهر ربيع الأوّل من هذه السنة ١٥ رجلاً إلى منطقة ذات أطلاح من أرض الشام خلف وادي القرى، لدعوة الناس إلى الإسلام، إلاّ أنّ الأهالي قتلوهم عن آخرهم مؤثرين عز الشهادة على ذل الأسر، إلاّ جريحاً منهم تمكن من الوصول إلى النبي ﷺ ليخبره بالحادث.

وقد أثر هذان الحادثان على الوضع السياسي بين الجانبين، فأمر النبيّ ﷺ بالخروج إلى الجهاد في شهر جمادى، ووجه جيشاً قوامه ٣ آلاف مقاتل لتأديب هؤلاء المخربين والغدرة، وعين القائد عليهم «جعفر بن أبي طالب» فإن قتل فزيد ابن حارثة، فإن أصيب، فعبد الله بن رواحة، فإن اصيب فليرتضي المسلمون بينهم رجلاً عليهم.

وقد خرج النبيّ ﷺ بنفسه مع جماعة من أصحابه مشيّعاً لهم وودّعهم

قائلاً: «دفع الله عنكم وردكم سالمين غانمين صالحين».

ومن المؤكد أنّ القائد الأوّل لهذا الجيش كان جعفراً ثمّ زيداً فعبد الله، فلا مجال لتغيير الوضع الذي ذهب إليه بعض الرواة والمحدّثين، الذين اختلقوا ترتيباً آخر، بوضع زيد كقائد ثمّ جعفر كمعاون له ثمّ ابن رواحة، إذ أنّ وضع هذا الترتيب بهذا الشكل أُقرّ لدوافع سياسية وأغراض أُخرى لا مجال لذكرها هنا،وتبعهم في ذلك كتاب السيرة دون تمحيص وتحقيق.[١]

وفي الشام أعدّ الحاكم الحارث ١٠٠ ألف فارس لإيقاف تقدّم المسلمين، كما أعدّ القيصر ١٠٠ ألف آخرين في البلقاء كقوّة احتياطيّة تتدخل عند اللزوم.[٢]

ومن الواضح أنّه لم يكن هناك أيّ تكافؤ بين الجيشين الإسلامي والروماني، سواء في نوعية المعدات الحربية والأجهزة القتالية أو وسائل النقل أو عدد الجنود، والأرض وساحة المعركة الغريبة عن المسلمين، وقيامهم بدور الهجوم لا الدفاع الذي اتّخذه الروم ونفذوه في أرضهم وبلادهم.

وقد تواجه الجيشان في منطقة مشارف، ولكن المسلمين تراجعوا نحو مؤتة، فبدأت المبارزات الفردية أوّلاً، فقُتل جعفر بعد مبارزة شجاعة، ثمّ قُتل زيد بن حارثة، وأيضاً ابن رواحة، فاختار الجنود خالد بن الوليد قائداً، فعمد إلى استخدام تكتيك عسكري لم يعرف من قبل، إذ أمر بالعسكر أن يحدث بعض التغييرات في صفوفه بالليل دون صوت، ويذهب عدد منهم إلى مكان بعيد ثمّ يلتحقوا بالمسلمين عند الصباح مكبرين، فيظن العدو بوصول إمدادات عسكرية بشرية جديدة إلى جانب المسلمين. ولذا تمكن المسلمون من مواجهتهم وقتالهم،

---

١. السيرة النبوية:٢/ ٣٨٠.

٢. المغازي:٢/ ٧٦٠؛السيرة النبوية:٢/ ٣٧٥.

وقتل أعداد كبيرة منهم، فهدأت الأحوال، فرجع الجيش الإسلامي مستفيداً من هذا التكتيك ونَجَوا بأنفسهم من خطر فناء ساحق وأكيد.[١]

إلاّ أنّ المسلمين في المدينة رفضوا منطق الانسحاب من المعركة وفضلوا الاستشهاد في ساحة المعارك على الانسحاب، فهم كانوا يعدون الموت والشهادة في سبيل الله أفضل من الانسحاب.

وقد تأثر النبي ﷺ لشهادة جعفر وبكى بشدة، فكان كلّما تذكر جعفراً وزيداً بكى.[٢]

٢. غزوة ذات السلاسل

إنّ الاطّلاع المبكر على أسرار العدو العسكرية، ومعرفة حجم طاقاته ومبلغ استعداداته واكتشاف خططه، يعد من العوامل الجوهرية المؤثرة في الانتصار عليه. والنبي ﷺ هو أوّل من ابتكر في تاريخ الإسلام جهازاً خاصاً بهذا العمل في صورة منظمة، وتبعه الخلفاء من بعده، حين استعانوا بجواسيس وعيون للعمل في المجالات العسكرية والإدارية.

واستطاع الرسول ﷺ في غزوة ذات السلاسل أن يطفئ نار فتنة باستخدام معلومات دقيقة علمها عن العدو، قبل أن يخسر الكثير بغير ذلك. فقد علم من عناصر المخابرات الخاصة به ﷺ أنّ أعداداً كبيرة متحالفة تجمعوا في منطقة وادي اليابس هدفوا إلى التوجّه نحو المدينة للقضاء على قوّة الإسلام والمسلمين، وقتل النبي ﷺ والإمام علي عليه السلام خاصة. فأمر الرسول بنداء «الصلاة جامعة» أي دعوة

---

١. السيرة النبوية: ٢/ ٣٨١.

٢. بحار الأنوار: ٢١/ ٥٤؛ المغازي: ٢/ ٧٦٦.

الناس إلى الاجتماع به ﷺ فقال ﷺ: «يا أيّها الناس، إنّ هذا هو عدو الله وعدوكم قد عمل على أن يبيّتكم فمن لهم؟».

فخرجت جماعة بقيادة أبي بكر ساروا مسافة حتى واجهوا قبيلة بني سليم الذين قاوموا القوّة الإسلامية، فقرر أبو بكر الانسحاب والرجوع من حيث أتى. إلاّ أنّ النبي ﷺ لم يقبل بهذا الوضع، فانزعج لعودة الجيش بهذه الصورة المهينة، فأمر عمر بن الخطاب بتولّي القيادة، ولكنّه لم يحارب أيضاً لقوة العدو فانسحب أيضاً إلى المدينة. وطلب عمرو بن العاص من النبي ﷺ أن يبعثه إلى هؤلاء الأعداء على أساس أنّه من دهاة العرب، إلاّ أنّ بني سليم قاتلوه فهزموه وقتلوا عدداً من جماعته، فلم ييأس النبي ﷺ ونظم جماعة جديدة واختار الإمام علياً عليه السلام قائدها، فاستعد الإمام عليه السلام وتعصب بعصابة كان يشدها على جبينه في اللحظات الصعبة، ولبس بردين يمانيين، وحمل رمحاً هندياً، ثمّ توجه نحو الهدف سالكاً طريقاً غير معروفة ولا مطروقة حتى يعمّي بذلك على العدو، فتمكن من الانتصار عليهم وذلك للأسباب التالية:

١. لم يشعر العدو بتحركاته، وذلك لتغييره مسيره، واستخدامه أُسلوب الكتمان في ذلك، إذ سار ليلاً وكمن نهاراً واستراح خلاله.

٢. كما أنّه فاجأ العدو حين صعد بجنوده إلى قمة الجبال ثمّ انحدر بهم بسرعة فائقة إلى الوادي مركز إقامة بني سليم، فأحاطوا بهم وهم نيام، وحاصروهم وأسروا منهم، وفرّ آخرون.

٣. ثمّ أنّ شجاعة الإمام علي عليه السلام وبسالته النادرة أرعبت العدو، وأفقدته القدرة على المواجهة والمقاومة، حيث فرّوا من أمامه تاركين الغنائم وراءهم.

وبذا فإنّ النبي ﷺ استقبله بحفاوة وقال له عندما نزل من فرسه: «إركب فإنّ الله ورسوله راضيان عنك».

وكانت تضحية الإمام عليه السلام وشجاعته من الأهمية بحيث نزلت فيها سورة العاديات كاملة: ﴿وَالعادِياتِ ضَبْحاً* فَالمُورِياتِ قَدحاً* فَالمُغِيراتِ صُبْحاً* فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعاً* فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعاً﴾.[١]

وهناك عدد من المؤرّخين كالطبري، نقلوا هذه الواقعة بنحو آخر مختلف عمّا ذكرناه، فلا يبعد أن تكون ذات السلاسل اسماً لغزوتين، وقد نقل كلٌّ من الفريقين ـ السنّة والشيعة ـ واحدة منها وأعرض عن الأُخرى لأسباب خاصّة.[٢]

٣. فتح مكّة

أخلّت قريش باتفاقية الحديبية ونقضتها، حينما زودت قبيلة بني بكر بالأسلحة، وهي من كنانة المتحالفة معها، وحرضتهم على أن يبيتوا لخزاعة المتحالفين مع المسلمين فيغيروا عليهم ليلاً ، يقتلون فريقاً ويأسرون آخرين. و أُبلغ النبي صلى الله عليه وآله بما حدث لخزاعة على أيدي بني بكر، فوعدهم النصرة. ولكن قريشاً ندمت على فعلتها من تأليب بني بكر على خزاعة، واشتراكهم معها في العدوان، فأرسلوا زعيمهم أبا سفيان إلى المدينة لتطييب خاطر النبي صلى الله عليه وآله وتسكين غضبه وتأكيد احترام قريش لمعاهدة الصلح، إلاّ أنّه عندما وصل إلى بيت ابنته أُمّ حبيبة زوجة الرسول صلى الله عليه وآله لم يجد التقدير والاحترام المطلوب لديها على أساس أنّه مشرك نجس، فتوجه إلى الرسول صلى الله عليه وآله وكلّمه حول إمكانية تجديد العهد، فلم يرد عليه وهو ما يعني عدم اعتنائه به، فسار إلى بعض أصحابه يطلب منهم أن يشفعوا له عند الرسول صلى الله عليه وآله وإقناعه بتجديد ميثاق الصلح، ولكن دون جدوى. فذهب إلى

---

١. العاديات:١ ـ ٥.

٢. تاريخ الطبري:٢/ ٣١٥؛ السيرة الحلبية:٣/ ١٩٠؛ المغازي:٢/ ٧٦٩.

منزل الإمام علي عليه السلام والسيدة فاطمة الزهراء عليها السلام فرد عليه الإمام عليه السلام : «والله لقد عزم رسول الله صلى الله عليه وآله على أمر ما نستطيع أن نكلّمه». فالتفت إلى السيدة الزهراء عليها السلام وهو يطلب شفاعتها أو شفاعة الحسنين لدى النبي صلى الله عليه وآله: يا ابنة محمد، هل لك أن تأمري و بُنَيّك هذا فيجير بين الناس فيكون سيد العرب إلى آخر الدهر؟ فقالت عليها السلام وهي تعلم بنواياه الشريرة:« ذلك إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وإنّهما صبيان وليس مثلهما يجير».[1] فطلب النصيحة من الإمام عليه السلام فقال له: «ما أجد لك شيئاً أمثل من أن تقوم فتجير بين الناس ـ أي تعطي الأمان للمسلمين ـ ثمّ إلحق بأرضك». فأدّى ما طلبه منه، ورجع إلى مكّة وأخبر سادة قريش بما صنع، فاجتمعوا للتشاور فيما يطفئ غضب المسلمين ويثني الرسول صلى الله عليه وآله عن عزمه.[2]

أمّا النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله فقد أعلن التعبئة العامة بهدف فتح مكة، وتحطيم أقوى قلعة من قلاع الوثنية، وإزالة حكومة قريش الظالمة، التي كانت أقوى الموانع والعقبات في طريق تقدم الدعوة الإسلامية وانتشار الإسلام.

وطلب من الله سبحانه و تعالى في دعائه أن يعمي عيون قريش وجواسيسهم كيلا يعلموا بحركة المسلمين وهدفهم: «اللّهم خُذ على قريش أبصارهم فلا يروني إلّا بغتةً ولا يسمعون بي إلّا فجأة».[3]

واجتمع في مطلع شهر رمضان الكثيرون، فقد شاركت قبائل وطوائف مختلفة في هذا الفتح العظيم، اشتهر منهم:

ـ المهاجرون: ٧٠٠+٣ ألوية إضافة إلى ٣٠٠ من الخيل.

---

١. إمتاع الأسماع:١/ ٣٥٩.

٢. المغازي:٢/ ٧٨٠؛ السيرة النبوية:٢/ ٣٨٩؛ بحار الأنوار: ٢١/ ١٠٢.

٣. المغازي:٢/ ٧٩٦.

ـ الأنصار: ٤٠٠٠ + ألوية كثيرة إضافة إلى ٧٠٠ من الخيل.

ـ قبيلة مزينة: ألف مع مائة فرس، ولواءان.

ـ قبيلة جهينة: ٨٠٠ مع خمسين فرساً و ٤ ألوية.

ـ قبيلة بني كعب: ٥٠٠ مع ثلاثة ألوية.

هذا بالإضافة إلى اشتراك عدد آخر من قبائل غفار وأشجع وبني سُليم.[١]

ويذكر ابن هشام، أنّ جميع من شهد فتح مكّة من المسلمين بلغوا عشرة آلاف، من بني سليم ٧٠٠، ويقول بعضهم ألف، ومن بني غفار ٤٠٠، ومن أسلم ٤٠٠، ومن مزينة ألف و٣٠٠ نفر، وسائرهم من قريش والأنصار وحلفائهم وطوائف العرب من تميم وقيس وأسد.[٢]

إلاّ أنّ أخبار هذه الحملة الكبيرة وصلت إلى قريش، فقد أخبر جبرائيل عليه السلام النبي صلى الله عليه وآله أنّ أحد المسلمين أرسل كتاباً إلى قريش يخبرهم فيه بتوجههم إلى مكة، وأنّ امرأة تدعى «سارة» وهي مغنية، تريد توصيل الكتاب لهم لقاء حصولها على مال. وقد ساعد النبي صلى الله عليه وآله والمسلمون هذه المغنية من قبل، عندما تركت عملها في مكة واتجهت إلى المدينة، ورغم ذلك فإنّها خانتهم بعملها جاسوسة تعمل لصالح قريش. ممّا جعل النبي صلى الله عليه وآله يطلب من الإمام علي عليه السلام والمقداد و الزبير أن يلحقوا بها ويدركوها ويصادروا منها الكتاب. وتمكّنوا من اللحاق بها عند روضة الخاخ ـ الخليقة ـ إلاّ أنّها أنكرت وجود كتاب لديها في رحلها، فهددها الإمام عليه السلام: لتخرجنّ لنا هذا الكتاب أو لنكشفنّك. فاستخرجت الكتاب.[٣]

---

١. المغازي: ٢/ ٨٠٠؛ إمتاع الإسماع: ١/ ٣٦٤.

٢. السيرة النبوية: ٤/ ٦٣.

٣. بيّن القرآن الكريم ذلك في عدّة آيات من سورة الممتحنة.

وهكذا أعد النبي ﷺ للحركة الكبرى، دون أن يعلم أحد وجهته على وجه التحديد، وكان ذلك في يوم ١٠ رمضان. وفي الطريق أفطر على الماء وأمر جنده بالاقتداء به: «إنّكم مصبحوا عدوكم،والفطر أقوى لكم». إلاّ أنّ البعض منهم أمسك عن الإفطار ظناً منهم أنّ الجهاد أفضل في حالة الصوم، فغضب النبي ﷺ لذلك و قال عنهم: «أُولئك العصاة».[1]

وفي هذا الوقت، خرج العباس بن عبد المطلب من مكة متوجهاً إلى المدينة ليلتحق بالرسول ﷺ خلال الطريق، فهو سيؤدي دوراً بارزاً هاماً في عملية الفتح العظيم. كما التحق به عدوّان له أحجما عن الإيمان برسول الله والاستجابة لدعوته و هما: أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب وعبد الله بن أبي أُمية بن المغيرة، فقد كانا من أشدّ المعارضين للرسول ﷺ والمؤذين له، بالرغم من أنّ أبا سفيان هذا كان ابن عمّ الرسول ﷺ وأخاه من الرضاعة، وعبد الله هو أخو أُمّ سلمة ابنة عاتكة عمّة الرسول ﷺ. وحاولا مقابلة النبي ﷺ إلاّ أنّه لم يأذن لهما، ولم تنفع الوسائط في ذلك، إلاّ ما ذكره لهما الإمام علي عليه السلام ، بأن يقولا للنبي ﷺ: ﴿ قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ ﴾[2] فسوف يعفو عنهما كما فعل يوسف عليه السلام مع إخوته.وقد حدث ما اقترحه الإمام عليه السلام فقبل إسلامهما.

وحينما وصل الجيش الإسلامي إلى مشارف مكّة، عمد النبي ﷺ إلى إرعاب أهلها وتخويفهم بإشعال النيران فوق الجبال والتلال، وزيادة في التخويف وإظهار القوة، أمر بأن يشعل كلّ فرد منهم ناراً في شريط طويل على الأرض.

وهنا اتّجه «العباس بن عبد المطلب» ليؤدّي دوره العملي لصالح الطرفين،

---

١. وسائل الشيعة: ٧/ ١٢٤؛ السيرة الحلبية:٣/ ٩٠؛ المغازي:٢/ ٨٠٢.

٢. يوسف:٩١.

فيقنع قريشاً بالتسليم وعدم المقاومة، إذ أخبرهم بقوّة المسلمين وعددهم ومحاصرتهم لمكّة المكرمة، واصطحب معه أبا سفيان حتى يطلب له الأمان و لهم كذلك من الرسول ﷺ، فأجاره عند الوصول إلى معسكر المسلمين، خاصة عندما حاول «عمر بن الخطاب» أن يقضي عليه ـ أي يقتل أبا سفيان ـ كما أنّه حاول إعادة قتله أمام النبي ﷺ على أساس أنّه عدو لله فلابدّ أن يقتل.

وتحدث النبي ﷺ في خيمته مع أبي سفيان قائلاً: «ألم يأن لك أن تعلم أنّه لاإله إلاّالله؟» فقال أبو سفيان: بأبي أنت و أُمّي ما أحلمك وأكرمك وأوصلك، والله لقد ظننت أن لو كان مع الله إله غيره، لقد أغنى عني شيئاً بعد. فقال الرسول ﷺ: «ألم يأن لك أن تعلم أنّي رسول الله؟ »فقال: أما والله فإنّ في النفس منها حتى الآن شيئاً. فغضب العباس من عناده و قال: أسلم واشهد ألاّ إله إلاّالله وأنّ محمّداً رسول الله قبل أن يُضرب عنقك. فشهد شهادة الحقّ وأسلم ودخل في عداد المسلمين. فارتفع بذلك أكبر سد، وانزاح أكبر مانع من طريق الدعوة الإسلامية. ومع ذلك فقد أمر النبي ﷺ العباس بحبسه لأنّه لم يأمن جانبه بعد، قبل أن يتم فتح مكّة: «يا عباس احبسه بمضيق الوادي عند خطم الجبل ـ أي أنفه ـ حتى تمر به جنود الله فيراها». فطلب العباس من النبي ﷺ: إنّ أبا سفيان رجل يحب الفخر فاجعل له شيئاً. فاستجاب له النبي ﷺ وقال:

«من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن،ومن دخل المسجد فهو آمن، ومن طرح السلاح فهو آمن». وذلك بالرغم من أخلاق أبي سفيان المنحدرة وأعماله السيئة تجاه النبي ﷺ والمسلمين، طيلة السنوات الماضية».

وكان النبي ﷺ قد عزم على أن يفتح مكة دون إراقة دماء وإزهاق أرواح

وتسليم العدو دون شروط. وقد تم ذلك نتيجة التخطيط السليم،وتحييد موقف أبي سفيان العدائي وهـوقائد قريش،ولما كانـت القطع العسكرية الإسـلامية تمر من أمام أبي سفيـان، كان العبـاس يوضـح له اسمهـا وخصوصيـاتها، فمرت كتيبـة النبي ﷺ فقال للعبـاس: ما لأحـد بهؤلاء قبل ولا طـاقة يـا أبا الفضـل، والله لقد أصبح ملـك ابن أخيـك الغداة عظيماً. فـرد عليه العبـاس موبخـاً: ويحك يا أبـا سفيان، ليس بملك، إنّها النبوة.

وحينئذٍ أطلق النبي ﷺ أبا سفيان ليرجع إلى مكّـة فيخبرهم بما رأى من قوّة الجيش الإسلامي، ويحذرهـم من مغبة المواجهة والمقاومة، والتسليم لـلأمر الواقع بإلقاء السلاح والاستسلام دون قيد أو شرط. فصاح في أهل مكّة: يا معشر قريش، هذا محمّد قد جاءكم فيما لا قبل لكـم به، أو قال: هذا محمّد في عشرة آلاف، فمن دخل دار أبي سفيان فهو آمـن، و من ألقى السلاح فهو آمن، ومـن دخل المسجد فهو آمن،ومن أغلق بابه فهو آمن.

وأضاف النبي ﷺ إلى ذلك: و من دخل تحت لواء أبي رويحة فهو آمن. وهو موقع خامس عينه الرسول ﷺ للتأمين من القتل.

وأدّى كلّ ذلك إلى إضعاف نفوس أهل مكّة، حتى القياديين الأعداء، ركنوا إلى المطالبة بالتسليم دون مقاومة.

وبالرغم من أنّ النبي ﷺ قد أمر جنوده بعدم بدء القتال، فلا يقاتلوا إلّا من قاتلهم، إلّا أنّه أمر بقتل عشرة من الأفراد وإن وجدوا تحت أستار الكعبة وهم:

١. عكرمة بن أبي جهل

٢. هبار بن الأسود

٣.عبد الله بن أبي السرح

٤. قيس بن حبابة الكندي

٥. الحويرث بن نقيند

٦. صفوان بن أمية

٧. وحشي بن حرب، قاتل حمزة

٨. عبد الله بن الزبعرى

٩. حارث بن طلالة

١٠. عبد الله بن خطل

وأربعة نساء.[١]

وكان كلّ واحد من هؤلاء إمّا قتل أحداً، أو ارتكب جناية أو شارك في مؤامرة أوحرب ضدّ الإسلام والمسلمين.

وفي دخول مكّة أخذ النبي ﷺ الحيطة والحذر، ففرّق الجنود، على أن يدخلوها من أسفلها، وآخرون يتخذون طريقاً من أعلاها، وأعداداً أُخرى تدخل من جميع المداخل والطرق المؤدية إلى داخل مكّة، فدخلت الفرق كلّها مكّة دون قتال، إلاّ ما حدث مع جبهة خالد بن الوليد، الذي قابلته مقاومة صغيرة تمكن من السيطرة على الوضع بعد هروب المعتدين.

أمّا النبي الأكرم ﷺ فقد دخل مكة من ناحية أذاخر وهي أعلى نقطة في مكّة، فضربت له قبة من أدم بالحجون ــ عند قبر عمّه العظيم أبي طالب ـ ليستريح فيها، فقد أبى أن ينزل في بيت من بيوتها. واغتسل بعد الاستراحة، فركب راحلته القصواء متوجهاً إلى المسجد الحرام لزيارة بيت الله المعظم والطواف به على راحلته، حيث لم يترجل،وكبّر فكبّر المسلمون، حتى ارتجت مكة لدويّ صوتهم،

١. السيرة النبوية:٢/ ٤١٠؛ تاريخ الخميس:٢/ ٩٠.

فسمعه المشركون الذين تفرّقوا في الجبال ينظرون المشهد المثير. وحينما كان يمر على أي صنم من أصنام المشركين، يقول و هو يشير بقضيب في يده: ﴿جاءَ الحَقُّ وزَهَقَ البٰاطِلُ إنَّ البٰاطِلَ كٰانَ زَهُوقاً﴾[1]، فيقع الصنم لوجهه، ثمّ أمر بتحطيم أكبر الأصنام على مرأى من المشركين.

وبعد أخذ استراحة، طلب من عثمان بن طلحة أن يأتيه بمفتاح الكعبة، فقد كان هو سادن الكعبة، حيث كانت السدانة تتوارث جيلاً بعد جيل. وفتح النبي ﷺ باب الكعبة و دخل البيت، و دخل بعده، أُسامة بن زيد، و بلال وعثمان. ثمّ أمر ﷺ بإغلاق الباب، الذي قام خالد بن الوليد بحراسته ومنع الناس عنه.

ولمّا كانت جدران الكعبة من الداخل مغطاة بصور الأنبياء والملائكة وغيرهم، فإنّ النبي ﷺ أمر بمحوها جميعاً وغسلها بماء زمزم.

وقد اشترك الإمام علي عليه السلام في كسر بعض الأصنام الموضوعة في الكعبة، وحاول النبي ﷺ أن يصعد على كتفيه، إلاّ أنّ ضعف الإمام عليه السلام لم يساعده في ذلك، فطلب منه النبي ﷺ أن يصعد ـ عليٌ ـ على كتفه قائلاً: «يا عليّ اصعد على منكبي»، فصعد على منكبه، فألقى صنم قريش الأكبر وأصنام أُخرى محطمة إلى الأرض.[2] ثمّ وقف النبي ﷺ على باب الكعبة وقال: «الحمد لله الذي صدق وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده». ثمّ اتجه إلى الناس الذين يشاهدون الرسول ﷺ وهو يكسر الأصنام ويحمد الله، فسألهم:

«ماذا تقولون وماذا تظنون؟» فقالوا: نقول خيراً ونظن خيراً. أخ كريم وابن

---

١. الإسراء: ٨١.

٢. مسند أحمد بن حنبل: ١/ ٨٤؛ السيرة الحلبية: ٣/ ٨٦؛ تاريخ الخميس: ٢/ ٨٦.

أخ كريم، وقد قدرت. فقال ﷺ: «فإنّي أقول لكم كما قال أخي يوسف: ﴿قالَ لا تَثْريبَ عَلَيْكُمُ اليَومَ يَغْفِرُ اللهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرّاحِمين﴾[1]».

وبهذا أعلن ﷺ العفو العام والشامل عن أهل مكة بقوله: «ألا لبئس جيران النبي كنتم، لقد كذّبتم، وطردتم وأخرجتم وآذيتم ثمّ ما رضيتم حتى جئتموني في بلادي تقاتلونني، اذهبوا فأنتم الطلقاء».[2]

وكان الوقت ظهراً فحان وقت الصلاة، فصعد بلال سطح الكعبة ورفع نداء التوحيد و الرسالة ـ الأذان ـ وبعدها ردّ مفتاح الكعبة على عثمان بن طلحة و قال له:

«هاك مفتاحك يا عثمان، اليوم يوم برّ ووفاء». فالنبي ﷺ هو أوّل من يلتزم بالتعليم الإلهي في أداء الأمانة إلى أهلها، فيعيد مثل تلك الأمانة الكبرى إلى صاحبها. ثمّ ألغى جميع مناصب الكعبة السائدة في الجاهلية، إلاّ ما كان نافعاً للناس، كالسدانة، والحجابة ـ و هي القيام بشؤون أستار الكعبة ـ و سقاية الحجيج.[3]

وفي حديث له ﷺ إلى أقاربه، في اجتماع ضم بني هاشم و بني عبد المطلب، أوضح لهم أنّ صلة القربى التي تربطهم به ﷺ لا تبرر لأحد منهم أن يتجاهل قوانين الحكومة الإسلامية، فيتخذ من انتسابه إلى زعيمها ذريعة وغطاء لارتكاب ما لا يحل للآخرين.

وهو ﷺ بهذا قد شجب كلّ تمييز وتفضيل غير صحيح وسليم، داعياً إلى لزوم العدل ومراعاة المساواة بين جميع الطبقات: «يا بني هاشم، يا بني عبد

---

١. يوسف: ٩٢.

٢. بحار الأنوار: ٢١/ ١٠٦؛ السيرة الحلبية: ٢/ ٤١٢.

٣. بحار الأنوار: ٢١/ ١٣٢.

المطلب، إنّي رسول الله إليكم وإنّي شفيق عليكم، لا تقولوا أنّ محمّداً منّا، فوالله ما أوليائي منكم ولا من غيركم إلاّ المتّقون، فلا أعرفكم تأتوني يوم القيامة تحملون الدنيا على رقابكم، ويأتي الناس يحملون الآخرة. ألا وإنّي قد أعذرت فيما بيني وبينكم وفيما بين الله عزّوجلّ وبينكم، وإنّ لي عملي ولكم عملكم».[1]

ثمّ دعا إلى اجتماع تاريخي كبير عند بيت الله الحرام، حضره حشد كبير من أهالي مكة، وألقى فيهم خطاباً تاريخياً عالج الأمراض الاجتماعية الخاصة بالمجتمع العربي في ذلك العصر وحتى عصرنا الحالي، ومن أهمّ ما ورد وتناوله ﷺ في هذا الخطاب:

١. **التفاخر بالنسب:** فقد كان من الأمراض المستحكمة في البيئة العربية الجاهلية، إذ كان من أكبر أمجاد المرء أن ينتسب إلى قبيلة معروفة، أو يتفرع نسبه عن عشيرة بارزة كقريش مثلاً. فأبطل الرسول ﷺ في خطابه هذه العادة السيئة بقوله: «أيّها الناس إنّ الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتفاخرها بآبائها، ألا إنّكم من آدم و آدم من طين».

وبذا فإنّه ﷺ صنّف الشخصية بالتقوى و الورع: «ألا إنّ خير عباد الله عبد اتقاه» فأعطى الفضيلة والمنزلة لأهل التقوى والورع خاصة.

٢. **التفاضل بالقومية العربية:** فقد اعتبروا الانتساب إلى العرق العربي مفخرة، فقال ﷺ: «إنّ العربية ليست بأب والد، ولكنّه لسان ناطق، فمن قصر عمله لم يبلغ به حسبه».

٣. **المساواة بين أفراد البشر:** فقد دعا إلى دعم المساواة بين الأفراد والجماعات: «إنّ الناس من ادم إلى يومنا هذا مثل أسنان المشط، لا فضل للعربي

---

١. بحار الأنوار: ٢١/ ١١١.

على العجمي، ولا للأحمر على الأسود، إلاّ بالتقوى». وبذلك ألغى التمييز العنصري مؤسساً بذلك ميثاق حقوق الإنسان قبل أيّ جهة عالمية.

٤. **الأحقاد والحروب الطويلة**: إذ أنّ الحروب المتلاحقة بين القبائل العربية أدت إلى نشأة الحقد و الضغينة، فلم يجد طريقاً للقضاء عليها إلاّ بالطلب من الناس أن يتنازلوا عمّا لهم من دماء في أعناق الآخرين، سفكت في عهد الجاهلية، فتعتبر ملفات العهد القديم باطلة. وقال في ذلك«ألا إنّ كلّ مال ومأثرة ودم في الجاهلية تحت قدمي هاتين».

٥. **الأُخوة الإسلامية**: حيث دعا إلى اتّحاد المسلمين ووحدة كلمتهم وحقّ المسلم على أخيه المسلم، فهو من أهمّ مميزات الدين الإسلامي، وهو بهذا يرغّب غير المسلم في اعتناق الإسلام إذا سمع ورأى مثل هذه الحقوق والعلاقات المتبادلة بين المسلمين:«المسلم أخو المسلم، و المسلمون إخوة، وهم يد واحدة على من سواهم، تتكافؤ دماؤهم ليسعى بذمّتهم أدناهم».[١]

وبعد ذلك تفرّغ النبي ﷺ للحكم على بعض المجرمين والمؤذين،حيث كان هناك عدد من المجرمين المكيّين، كان لابدّ من عقابهم على ما فعلوا من أعمال سيئة، وذلك بالرغم من إصدار العفو العام، وقد طارد الإمام علي عليه السلام اثنين منهم لجآ إلى بيت أُمّ هانئ أُخت الإمام عليه السلام التي أجارتهما،ولكن الإمام عليه السلام طلب منها أن يعلم النبي ﷺ بأمانها ليعطي رأيه في جوارها وأمانها كمرأة، فقبل ﷺ ذلك وقال: «قد أجرنا من آجرت، وأمّنا من أمّنت، فلا يقتلهما».[٢] وهو بهذا وضع

---

١. روضة الكافي:٢٤٦؛ السيرة النبوية:٢/ ٤١٢؛ مغازي الواقدي:٢/ ٨٣٦؛ بحار الأنوار:٢١/ ١٠٥.

٢. الإرشاد:٧٢.

قاعدة تقبل جوار المرأة وأمانها. كما أنّ عبد الله بن أبي السرح الذي ارتدّ عن الإسلام وأمر النبي ﷺ بقتله،نجا من القتل بشفاعة عثمان بن عفان له. وكذلك عكرمة بن أبي جهل الذي فرّ إلى اليمن، وتشفّعت فيه زوجته، فنجا من القتل. كما أمّن أيضاً كبير المجرمين صفوان بن أُمية حينما طلب «عمير بن وهب» من النبي ﷺ أن يعفو عنه، فأمهله أربعة أشهر ليعلن إسلامه بعد التفكير.

وكذلك وضع ﷺ قاعدة مبايعة النساء له ﷺ، فقد بايعته المرأة للمرّة الأُولى في بيعة العقبة بهذه الكيفية: [حيث أمر الرسول ﷺ بإحضار قدح ماء، ثمّ ألقى في الماء شيئاً من الطيب والعطر فأدخل يده فيه،وتلا الآية التي وردت فيها الأُمور المذكورة، ثمّ نهض من مكانه و قال لهن: من أرادت أن تبايع فلتدخل يدها في القدح، فإنّي لا أصافح النساء].[1] وقد أجرى البيعة بهذا الأسلوب، لوجود عدد كبير من النساء الفاسدات بينهن، فكان لابدّ من ذلك حتى لا تستأنف إحداهن عملهن القبيح بعد ذلك في السرّ.

هدم بيوت الأصنام

وللقيام بهذه المهمة الضرورية، أرسل النبي ﷺ فرقاً عسكرية إلى ضواحي مكة وداخلها وفي بيوتها لهدم الأصنام المتواجدة فيها، كما أعلن ﷺ: «من كان في بيته صنم فليكسره». و أرسل خالد بن الوليد إلى تهامة لدعوة قبيلة جذيمة بن عامر وهدم أصنامهم، ونهاه النبي ﷺ عن القتل أو إراقة الدماء. إلاّ أنّه لما كانت هذه القبيلة قد قتلت أيّام الجاهلية عمّ خالد ووالد عبد الرحمن بن عوف، فإنّه

---

١. في سورة الممتحنة ١٢: ﴿ألاّ يشركن بالله شيئاً ولا يسرقن ولا يزنين ولا يقتلن أولادهنّ ولا يأتين ببهتانٍ يفترينه بين أيديهنّ وأرجلهنّ ولا يعصينك في معروف﴾.

حقد عليهم، وأمر بقتل عدد منهم، الأمر الذي أغضب النبي ﷺ عندما علم بذلك، فأرسل مالاً كثيراً مع الإمام علي عليه السلام ليدفع دية هؤلاء المقتولين وقال: «اللهمّ إنيّ أبرأ ممّا صنع خالد بن الوليد».[١] وارتاح بعد ذلك لما أقدم عليه الإمام علي عليه السلام من معاملة طيبة لأهالي المنكوبين و قال: «والله ما يسرني يا عليّ أنّ لي بما صنعت حمر النعم، أرضيتني رضي الله عنك، أنت هادي أُمّتي».[٢]

٤. معركة حنين

وبعد أن استقر النبي ﷺ في مكة مدّة خمسة عشر يوماً، غادرها إلى أرض قبيلة هوازن و ثقيف، بعد أن عيّن معاذ بن جبل ليُعلّم الناس القرآن وأحكام الإسلام، وعتاب بن أسيد لإدارة الأُمور والصلاة بالناس جماعة في مكة المكرمة.

وقد بلغ الجيش الذي سار به إلى هوازن: ١٢ ألف مسلحاً، إذ شاركه هذه المرة ألفان من شباب قريش الذين أسلموا بعد الفتح بقيادة أبي سفيان.[٣] إلاّ أنّ كلّ ذلك العدد الكبير لم يساعد في النجاح والانتصار كما ذكر القرآن الكريم: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ فِي مَواطِنَ كَثيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيئاً وَضاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِما رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرين﴾[٤] وقد برز من طرف العدو: مالك بن عوف النصري الذي عرف بالفروسية والشجاعة، كما أنّه أدار الاتّصالات المكثفة بين هوازن وثقيف، لإخراج خدعة عسكرية توجه منها

---

١. السيرة النبوية: ٢/ ٤٢٠؛ الكامل: ١/ ١٧٣؛ إمتاع الأسماع: ١/ ٤٠٠.

٢. مجالس ابن الشيخ: ٣١٨.

٣. طبقات ابن سعد: ٢/ ١٣٩؛ مغازي الواقدي: ٣/ ٨٨٩.

٤. التوبة: ٢٥.

ضربة إلى جيش الإسلام، فقد اقترح بوضع الأطفال والنساء والأموال وراء ظهور الرجال حتى يضطروا إلى أن يقاتلوا عنهم، كما أرسلوا الجواسيس ورجال مخابراتهم للتجسس على المسلمين، مثلما بعث النبي ﷺ رجاله إلى ديار الأعداء.

وحسب الوضع والموقع، قرّر مالك بن عوف أن يخفي الجنود خلف الصخور وفوق الجبال ليباغتوا المسلمين في الوادي، الذي دخلته أوّل كتيبة، من بني سليم بقيادة خالد بن الوليد فبادرهم العدو و أخذ يرشقهم بالاحجار والنبال ويضربونهم بالسيوف، فوقعوا فيهم ضرباً وقتلاً، ممّا أدّى إلى إصابة المسلمين بالفوضى وبلبلة الموقف وخلخلة الصفوف فالفرار، الأمر الذي جعل النبي ﷺ يأمر العباس بن عبد المطلب بأن ينادي على هؤلاء الفارّين والهاربين ويرجعهم، فبلغت صرخاته مسامعهم فثارت حميتهم ونادوا: لبيك لبيك. وبذا فقد تمكن النبي ﷺ من تنظيم صفوف جيشه من جديد، وحملا حملة رجلٍ واحدٍ على العدو لغسل ما لحق بهم من عار الفرار، وتمكّنوا من النيل منهم وإجبارهم على الانسحاب من الموقع والفرار من أمامهم وذلك بتشجيع وحماس من الرسول ﷺ: «أنا النبي لا كذب، أنا ابن عبد المطلب». ممّا كان الأثر الفعال في إلقاء الهزيمة المنكرة بقبيلة هوازن، تاركين وراءهم أموالهم ونساءهم وصبيانهم الذين كانوا قد وضعوهم خلف ظهورهم حسب أوامر وخطة قائدهم.

أمّا النتيجة النهائية للمعركة، فكانت شهادة ثمانية أفراد من المسلمين، وأسر ستة آلاف من العدو، وغنائم كثيرة من الحيوان وأربعة آلاف أوقية فضة.[1]

وأعطى النبي ﷺ أوامره بإرسال الغنائم والأسرى إلى الجعرانة ــ بين مكة والطائف ـ و بلغ من حنق المسلمين على المشركين في هذه المعركة، أن قتلوا

١. ٤ آلاف أوقية تساوي ٨٥٢ كيلو غرام.

الرجال وذرّيتهم، فلمّا بلغ ذلك النبي ﷺ قال: «ألا لا تُقتَل الذرية». وعندما قيل له: إنّما هم أولاد مشركين. قال ﷺ: «أو ليس خياركم أولاد المشركين؟ كلّ نسمة تولد على الفطرة حتى يعرب عنها لسانها، وأبواها يهوّدانها أو ينصّرانها».[1]

٥. غزوة الطائف

سكنت قبيلة ثقيف، واشتركوا مع هوازن في قتال المسلمين، وهربوا بعد المعركة السابقة إلى الطائف متحصنين في قلاعها وحصونها، فأمر النبي ﷺ بالإعداد لمطاردتهم وملاحقتهم حتى ديارهم. فأرسل فريقاً عسكرياً بقيادة أبي موسى الأشعري لملاحقتهم في أوطاس، فأحرز انتصاراً كبيراً على العدو. وأمّا النبي ﷺ فقد توجه بجيشه إلى الطائف، حيث هدم حصن مالك بن عوف في طريقه، وسواه بالأرض، حتى لا يستغله العدو فيما بعد.

واشتهرت حصون الطائف وقلاعها بالمنعة وارتفاع الجدران، فتمكنوا من ردّ المسلمين عن طريق حذفهم ورميهم، الذي أدّى إلى تراجعهم. فاقترح سلمان الفارسي أن يرمى الحصن بالمنجنيق ـ الّذي يأخذ دور الدبابة في الحروب الحديثة ـ فبدأوا برمي الحصون وأبراجها بالحجارة طوال عشرين يوماً، ممّا أصاب عدداً من المسلمين في هذه الأعمال.[2]

وممّا يذكر أنّ سلمان الفارسي هو الذي صنع جهاز المنجنيق، وعلّم المسلمين كيفية استخدامه، بينما يرى آخرون أنّ المسلمين حصلوا على هذا السلاح

---

١. إمتاع الاسماع: ١/ ٤٠٩.

٢. السيرة النبوية: ٤/ ١٢٦ ويرى ابن هشام أنّ النبي ﷺ هو أوّل من استخدم المنجنيق في الجزيرة العربية.

من يهود خيبر، وأنّ سلمان ربما أدخل عليه تحسينات إضافة أنّه علم المسلمين أسلوب استعماله.

كما أنّ الرسول ﷺ كان قد حصل على بعض الآليات الحربية من خلال ما ترك في حروبه لقبيلة دوس التي استخدمتها في معاركها ضدّ المسلمين، فاستفاد منها النبي ﷺ في غزو الطائف.

إلاّ أنّ نتائج تلك العمليات والآليات لم تأت بنتيجة حاسمة، فاتجه النبي ﷺ إلى جانب آخر قد يكون أكبر قوّة وأثراً من الجانب العسكري، وهو الناحية النفسية والاقتصادية. إذ أنّ أرض الطائف كانت زراعية، ذات نخل وأعناب، ممّا فكر به الرسول ﷺ لتهديدهم وتخويفهم لأنّه سيعمد إلى قطع الأعناب وإفناء المزارع، إذ استمر المعتصمون بالحصون في المقاومة. وعندما لم يرضخوا للتهديد، نفذ المسلمون عملياً أوامر النبي ﷺ بالقطع والحرق والإتلاف، ممّا أزعج الأهالي وطلبوا من النبي ﷺ أن يأمر رجاله بالكف عن ذلك، فتركوا العمل بهذا التكتيك. وقام بمحاولة أخيرة للتخلص منهم، فنادى: أي عبد نزل من الحصن وخرج إلينا فهو حر. فنزل عدد منهم ملتحقاً بالمسلمين، وعرف منهم الرسول ﷺ بعض الأخبار المرتبطة بالحصن، وأنّه لا نية لهم للاستسلام، و لديهم الاستعداد للمقاومة حتى لو طال الحصار عاماً واحداً، فلن يقعوا في أزمة أو ضيق بسبب طول الحصار. ولذا فإنّ الجيش الإسلامي رأى أنّه من الأصلح الرجوع عن ساحة القتال، وذلك للأسباب التالية:

١. مقتل عدد من المسلمين، من قريش والأنصار، كما أنّ شهر شوال كان قد انتهى وبدأ شهر ذي القعدة وهو من الأشهر الحرم، وللحفاظ على هذه السُّنّة، فقد رأى النبي ﷺ أن ينهي الحصار في أقرب وقت.

٢. كما أنّ موسم الحجّ كان قد اقترب، وخاصة أنّ إدارة الموسم ومناسكه أصبحت في يد المسلمين الآن، وليس بيد المشركين كما في السابق.

ولكلّ ذلك ترك النبي ﷺ الطائف متوجهاً إلى الجعرانة حيث حفظت الغنائم والأسرى، فاستقر فيها ١٣ يوماً وزع فيها الغنائم بأسلوب جدير بالدراسة والتأمل: فقد أخلى سبيل بعض الأسرى، وخطط لإخضاع وإسلام مالك بن عوف قائد المعارك ضدّ المسلمين، وكان من بين المشركين مع هوازن، قبيلة بني سعد التي أرضعت إحدى نسائها ـ حليمة السعدية ـ النبي ﷺ وكبر بينهم وعاش معهم خمس سنوات، ولذا فإنّ جماعة مسلمة منهم قدمت إلى النبي ﷺ يطلبون سراح الأسرى من هذه القبيلة، وذكّروه بكلّ حياته بينهم في تلك السنوات. فردّ عليهم النبي ﷺ محسناً إليهم بأكثر ممّا قدموا، وتنازل عن نصيبه في الأسرى، فتبعه المهاجرون والأنصار و الآخرون، فارجعوهم إلى ذويهم. كما أنّ النبي ﷺ دعا أُخته شيماء وبسط لها رداءه ورحب بها، ودمعت عيناه، وسألها عن أُمّه وأبيه من الرضاعة، فأخبرته بموتهما، فقال: إن أحببت فأقيمي عندنا محببة مكرمة، وإن أحببت أن أُمتعك وترجعي إلى قومك فعلت. فاختارت الرجوع إلى أهلها بعد أن أسلمت طوعاً ورغبة، ومنحها ثلاثة عبيد وجارية.[١]

وقد أدّت معاملات النبي ﷺ هذه، وإطلاق الأسرى إلى رغبة هوازن في الإسلام، فأسلموا من قلوبهم، ففقدت الطائف آخر حليف لها.

أمّا بالنسبة لمالك بن عوف فقد رأى النبي ﷺ فرصة طيبة للسيطرة عليه، وهو رئيس المتمردين، فقال لوفد بني سعد: أخبروا مالكاً إنّه إن أتاني مسلماً

١. البداية والنهاية: ٢/ ٣٦٣؛ الإمتاع: ١/ ٤١٣.

رددت عليه أهله وماله وأعطيته مائة من الإبل. وعندما بلغه ذلك، وعلم بقوّة الإسلام وأخلاق النبي ﷺ وعظمته، قرر الالتحاق بالنبي ﷺ فخرج من الطائف لإدراك النبي ﷺ في مكة أو الجعرانة، حين ردّ عليه ماله وأهله وأعطاه الإبل، فأسلم وحسن إسلامه، وجعله قائداً على من أسلم من قومه حارب بهم ثقيف.

وأمّا الغنائم، فقد قسمها بين المسلمين، ووزع الخمس الّذي هو حقّه الخاص، بين أشراف قريش حديثي العهد بالإسلام ليتألّفهم، مثل: أبي سفيان ومعاوية ابنه، وحكيم بن حزام، والحارث بن هشام و سهيل بن عمرو، وحويطب ابن عبد العزى، والعلاء بن جارية، وصفوان بن أمية، وغيرهم ممّن كانوا أعداءه بالأمس القريب، لكلّ واحد منهم مائة بعير.[1] وهذا الفريق يصطلح عليه في الفقه الإسلامي: المؤلّفة قلوبهم. وهم يشكّلون إحدى مصارف الزكاة بنص القرآن الكريم.

إلاّ أنّ بعضهم لم يستحسن أسلوب النبي ﷺ في التوزيع، ورأى أنّه لم يعدل حين وزع خمس الغنيمة على أبناء قبيلته، ومن أشهرهم:

ـ ذو الخويصرة التميمي، الذي رفض أُسلوب النبي ﷺ ممّا دعا عمر بن الخطاب أن يستأذن النبي ﷺ لقتله. ولكن النبي ﷺ قال: دعه فإنّه سيكون له شيعة (أي تَبع) يتعمّقون في الدين حتى يخرجوا منه كما يخرج السهم من الرمية.[2] وقد أصبح فعلاً زعيماً لفرقة الخوارج في عهد الإمام علي ﷺ.

كما اشتكى عدد من جانب الأنصار، حول كيفية توزيع الخمس، فخطب

---

١. المحبّر: ٤٧٣؛ مغازي الواقدي: ٣/ ٩٤٤؛ السيرة النبوية: ٣/ ٤٩٣.

٢. وجاء في السيرة الحلبية أنّه أصل الخوارج.

فيهم النبي ﷺ موضحاً موقفه من هذا التوزيع في تأليف القلوب: «أفلا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاة والبعير، وترجعوا برسول الله إلى رحالكم. والذي نفس محمّد بيده، لولا الهجرة لكنت إمرئً من الأنصار، ولو سلك الناس شعباً وسلكت الأنصار شعباً، لسلكت شعب الأنصار».[1] ثمّ ترحم عليهم قائلاً: «اللّهمّ ارحم الأنصار وأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار».

فأثار بهذه الكلمات مشاعرهم فبكوا بشدّة وقالوا: رضينا يا رسول الله حظاً وقسماً. ويكشف ذلك عن عمق حكمة النبي ﷺ وحنكته السياسية، وأُسلوب معالجته للمشكلات بروح الصدق واللطف.

وبعد ذلك خرج النبي ﷺ معتمراً من الجعرانة، ثمّ انصرف راجعاً إلى المدينة فوصلها في أواخر ذي القعدة أو أوائل شهر ذي الحجّة، مستخلفاً على مكّة: عتاب بن أسيد، الذي بلغ من العمر عشرين عاماً، و قُدّر له راتبٌ يوميٌّ، درهم واحد، ولما احتجّ بعضهم على هذا التعيين، قال: «لا يحتج منكم في مخالفته بصغر سنه، فليس الأكبر هو الأفضل، بل الأفضل هو الأكبر، وهو الأكبر في موالاتنا وموالاة أوليائنا، ومعاداة أعدائنا، فلذلك جعلناه الأمير عليكم والرئيس عليكم، فمن أطاعه فمرحباً به، ومن خالفه فلا يبعدُ الله غيره».[2]

وأكد بذلك النبي ﷺ معيار الأهلية والجدارة والكفاءة في حيازة المناصب الاجتماعية والأُمور الاجتماعية الأُخرى.

ومن أحداث هذه السنة أيضاً:

---

١. السيرة النبوية: ٢/ ٤٩٨؛ مغازي الواقدي: ٣/ ٩٥٧.

٢. بحار الأنوار: ٢١/ ١٢٢؛ إمتاع الأسماع: ١/ ٤٣٢.

وفاة زينب بنت الرسول ﷺ وهي التي كان زوجها ابـن خالتها أبي العاص الـذي بقـي على شركـه بعـد أن آمنت هـي بـأبيهـا، ولكنّـه آمـن في الفترةالأخيرة وأعاد النبي ﷺ إليه زوجته.

كما أنّ النبي ﷺ رزق في أواخر هذا العام ولداً سمّاه إبراهيم من زوجته مارية القبطية، فأهدى المولدة هدية ثمينة، وعق له في اليوم السابع وحلق شعره وتصدق بوزنه فضة في سبيل الله.[1]

١. تاريخ الخميس:٢/ ١٣١.

الفصل التاسع

١. أحداث السنة التاسعة من الهجرة

- عام الوفود
- هدم الأصنام
- غزوة تبوك
- مسجد ضرار
- وفد ثقيف
- إعلان البراءة من المشركين

٢. أحداث السنة العاشرة من الهجرة

- وفد نجران و المباهلة
- وفود القبائل على المدينة
- حجّة الوداع - الخلافة بعد النبي (صلّى الله عليه وآله وسلّم)
- وضع أساس التعامل مع: المرتدين و الأخطار الخارجية
- مرض النبي ﷺ
- وفاة ابنه إبراهيم عليه السلام

٣. أحداث السنة الحادية عشرة من الهجرة

- الكتاب الذي لم يكتب
- اللحظات الأخيرة

أحداث السنة التاسعة

من الهجرة

١. عام الوفود

انتهت السنة الثامنة بسقوط أكبر قاعدة من قواعد الوثنية والشرك، في أيدي المسلمين، الذين انتصروا على أعدائهم تماماً، فأخذت القبائل المتمردة تتقرب إليهم تدريجياً، وتوالت وفودُها على النبي ﷺ تقدم ولاءها وتعلن إسلامها وتتقبل الرسالة المحمّدية، ممّا دعت تلك الكثرة من الأعداد الوافدة على النبي ﷺ أن يسمى بعام الوفود.[١]

إنّ دراسة الوفود وما دار بينهم و بين الرسول ﷺ تفيد بوصوح بأنّ الإسلام انتشر في الجزيرة العربية عن طريق الدعوة والتبليغ. وتحدث القرآن الكريم في سورة خاصة عن حضور تلك الوفود على النبي ﷺ وما حقّقه الإسلام من فتح وانتصار: ﴿إِذٰا جاءَ نَصْرُ اللهِ وَالْفَتْح * وَرَأَيْتَ النّاسَ يَدْخُلُونَ في دِينِ اللهِ أَفْواجاً* فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كانَ تَوّاباً﴾.[٢]

إلاّ أنّه بالرغم من ذلك فإنّ النبي ﷺ أعدّ في هذا العام عدّة سرايا بعثها إلى

---

١. سجل المؤرخ محمد ابن سعد في الطبقات: ١/ ٢٩١، أسماء ٧٣ وفداً قدموا على الرسول ﷺ طوال السنة ٩هـ.

٢. سورة النصر.

جهات معينة، من جملتها سرية الإمام علي عليه السلام إلى أرض طيء، وقد اختصت لهدم مظاهرالوثنيّة.

كما وقعت غزوة واحدة مثل غزوة تبوك، وإن لم يقاتل فيها النبي صلى الله عليه وآله أحداً، إلاّ أنّها كانت تمهيداً لفتح المناطق الحدودية.

٢. هدم الأصنام

أدرك النبي صلى الله عليه وآله في ضوء تعاليم الوحي أنّ الوثنية كجرثومة الكوليرا، تهدم فضائل الإنسان وشرفه، وتقضي على مكارم الأخلاق، وتحط من مكانة الإنسان الرفيعة، وتجعله كائناً حقيراً أمام الطين والحجر. وعلى هذا الأساس أمره الله تعالى أن يجتث جذور الشرك من كيان ذلك المجتمع الموبوء، بإزالة كلّ مظاهر الوثنية وأنواعها وأشكالها، مستخدماً القوة تجاه الجماعات المعارضة. وعلم صلى الله عليه وآله أنّ في قبيلة طيء صنماً كبيراً يقدَّس حتى ذلك الوقت، فأرسل الإمام علياً عليه السلام مع ١٥٠ فارساً ليحطم هذا الصنم ويهدم بيته.

ونجح الإمام عليه السلام في مهمته، وعاد بالغنائم والأسرى إلى المدينة، وهرب رئيسها «عدي بن حاتم الطائي» إلى الشام ملتحقاً بأهل دينه، لأنّه كان نصرانياً حسب ما ذكر بنفسه، وترك أُخته في قومه. إلاّ أنّ النبي صلى الله عليه وآله أرجعها إلى أخيها بالشام، فأخذت توبخه ممّا صنع من هروبه مع أهله، وتركها وحيدة، ثمّ طلبت منه أن يذهب إلى النبي صلى الله عليه وآله ويعلن إسلامه، فاحترمه النبي صلى الله عليه وآله عندما قدم إليه في المدينة، وقدم له ما يليق به كأمير وسيد على قومه.

ولما شاهد من سيرته وأفعاله ما يدل ويؤكد على أنّه نبي الله، أسلم على

يديه ﷺ.[١]

٣. غزوة تبوك: وهي قلعة قويّة في طريق حجر والشام.

أعدّ إمبراطور الروم قوّة عسكرية لمهاجمة المسلمين الذين ازدادت قوّتهم وأعدادهم وخطرهم على الدولة الرومانية. وتألفت هذه القوّة من ٤٠ ألف فارس و كانت مجهزة بأحدث الأسلحة و المعدات، وتقدمت إلى منطقة البلقاء، فأمر النبي ﷺ عندها أصحابه بالتهيّؤ والاستعداد لغزو الروم، في موسم شديد الحرارة، وجدب وعسرة، إلاّ أنّ الدوافع المقدّسة والجهاد في سبيل الله غَلَبَ على كلّ تلك الأُمور الدنيوية، فشارك ٣٠ ألف من المسلمين في هذه الغزوة تحددت نفقاتها من الزكاة من أهل الغنى والثروة. وقد اعتبرت هذه الغزوة خيرَ مَحَكٍّ لمعرفة المجاهدين الصادقين من المنافقين والمبدعين، إذ أنّ بعضهم تخلّف بحجّة الخوف من أن يفتتن بالنساء الروميات، وهو عذر صبياني أقبح من الذنب: ﴿**وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ٱئْذَنْ لِي وَلَا تَفْتِنِّي أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ**﴾.[٢]

وكان منهم أيضاً المنافقون الذين تظاهروا بالإسلام، فثبَّطوا الناس عن النبي ﷺ وخوفوهم من قوّة الرومان، و اعتذروا بالحر الشديد: ﴿**وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ**﴾.[٣]

كما أنّ مجموعة من الخونة ألّفت شبكة جاسوسية في المدينة، تمكن النبي ﷺ من القضاء عليها بهدم المكان الذي اجتمعت به وحرقة، وهو بيت سويلم اليهودي.

---

١. مغازي الواقدي: ٢/ ٩٨٨؛ السيرة النبوية: ٣/ ٥٧٨؛ الدرجات الرفيعة في طبقات الشيعة الإمامية: ٣٥٢.
٢. التوبة: ٤٩.
٣. التوبة: ٨١.

وكذلك تخلّف عنهم المخلّفون الثلاثة، الذين جاء ذكرهم في القرآن الكريم، حينما قالوا بأنّهم سيلحقون بركبه ﷺ بعد ما يفرغون من الحصاد، فوبّخهم الله تعالى وعاقبهم، ليكونوا عبرةً لغيرهم. كما تخلف عن الغزوة ولكن بنية صادقة البكاؤون، وذلك لعدم تمكّنهم من المشاركة في الجهاد، لفقرهم و عدم حصولهم على دواب تحملهم، ولم يستطع النبي ﷺ أن يجهز ذلك لهم فقال: لا أجد ما أحملكم عليه. كما لم يشارك فيها الإمام عليّ عليه السلام فقد أبقاه النبي ﷺ في المدينة، خوفاً من إثارة فتنة أو قيام انقلاب خلال غيابه، بمساعدة القوى المضادة للإسلام. وبالرغم من أنّ النبي ﷺ قد استخلف على المدينة «محمد بن مسلمة» فإنّه قال للإمام علي عليه السلام : «أنت خليفتي في أهل بيتي ودار هجرتي و قومي» فكأنّه تعيّن كقائد عسكري في المدينة يحفظ الأمن والاستقرار فيها. ولذا فإنّ المنافقين استغلوا ذلك فرصة لنشر الشائعات والأقاويل في عدم اصطحاب النبي ﷺ للإمام علي عليه السلام معه في الجيش، ممّا جعل الإمام عليه السلام يسير إلى الرسول ﷺ وهو على بعد ثلاثة أميال من المدينة ليسأله عن هذا الأمر قائلاً: «يا نبي الله، زعم المنافقون أنّك إنّما خلّفتني أنّك استثقلتني وتخففت عني» فقال الرسول ﷺ حينئذٍ كلمته التاريخية الخالدة التي اعتبرت من الأدلة القاطعة على إمامته وخلافته بعده ﷺ: «كَذِبوا ولكنّي خلّفتُك لما تركتَ ورائي، فارجع فاخلفني في أهلي وأهلك، أفلا ترضى يا عليّ أن تكون منّي بمنزلة هارون من موسى إلاّ أنّه لا نبيّ بعدي».[1]

وهكذا فقد استعرض النبي ﷺ المعسكر قبل تحرّك الجيش، وألقى فيهم خطاباً هاماً لتقوية معنويات المجاهدين، وشرح فيه هدفه من هذه التعبئة العامة الشاملة.

---

١. إمتاع الأسماع: ١/ ٤٥٠.

وفي الطريق واجه متاعبَ ومشاق كثيرة، ولذا سمى هذا الجيش بجيش «العسرة»، إلاّ أنّ إيمانهم العميق، وحبّهم للهدف المقدس، سهّل عليهم الأمر. وعندما مروا بأرض ثمود، غطى النبي ﷺ وجهَه بثوبه وأمر أصحابه بسرعة السير: «لا تدخلوا بيوت الذين ظلموا إلاّ وأنتم باكون خوفاً أن يصيبكم مثلما أصابهم». كما نهاهم أن يشربوا من مائها ولا يتوضأوا به للصلاة ولا يطبخ به طعام.[1] ولكنّهم شربوا عندما وصلوا إلى البئر التي كانت تشرب منها ناقة صالح عليه السلام فنزلوا عليها بأمر الرسول ﷺ.

كما أنّ النبي ﷺ أظهر في الطريق بعض الأُمور الغيبية حتى لا يؤثّر شكّ بعضهم في إيمان الآخرين، مثلما جرى لناقته التي ضلت الطريق، وبدأ المنافقون في التقليل من قوّة النبي ﷺ واتّصاله بالله سبحانه و تعالى، فأخبرهم بموقعها، بعلم من الله تعالى. وتنبأ عن أبي ذر و ما سيجري له عندما تأخّر عنهم فقال: رحم الله أبا ذر يمشي وحده ويموت وحده ويبعث وحده.[2]

على كلّ حال، وصل الجيش في مطلع شهر شعبان إلى أرض تبوك، دون أن يجدوا أثراً لجيش الروم الذي كان قد انسحب إلى داخل بلاده مفضلاً عدم مواجهة المسلمين، ومؤكدين حيادهم تجاه الحوادث والوقائع التي تجري في الجزيرة العربية. فجمع النبي ﷺ القادة و شاوَرَهم في أمر التقدّم في أرض العدو، أو العودة إلى العاصمة. فقرروا العودة ليستعيد الجميعُ نشاطَه بعد المشاق والتعب، إضافة إلى أنّهم حقّقوا هدفهم بتخويف العدو وإلقاء الرعب في قلوبهم، فقالوا للنبي ﷺ: إن كنت أُمرت بالسير فَسِرْ، فقال ﷺ: «لو أُمرت به ما استشرتُكم

١. السيرة النبوية: ٢/ ٥٢١؛ السيرة الحلبية: ٣/ ١٣٤.
٢. السيرة النبوية: ٢/ ٥٢١؛ السيرة الحلبية: ٣/ ١٣٤.

فيه».[١] فاحترم الرسول ﷺ آراء هؤلاء وقرر العودة إلى المدينة.

ورأى النبي ﷺ أنّ الوقت مناسب للاتّصال ببعض حكّام ورؤساء المناطق الحدودية، ليعقد معهم معاهدات أمن وعدم إعتداء، ليأمن جانبهم. فاتصل شخصياً بزعماء أيلة وأذرح والجرباء. وعندما قدم يوحنا بن رؤبة زعيم أيلة، إلى النبي ﷺ قدم له فرساً أبيض وأعلن عن طاعته له ﷺ، فاحترمه ﷺ وصالحه وكساه برداً يمانياً، وقبل أن يدفع جزية قدرها ٣٠٠ دينار سنوياً على أن يبقى على دينه المسيحي، ووقع الطرفان على كتاب أمان، فضمن بذلك أمن المنطقة الإسلامية شمالاً.

وفي طريق تبوك تقع منطقة دومة الجندل ذات الخضرة والماء، وتبعد عن الشام ٥٠ فرسخاً، وعن المدينة عشرة أميال، حكمها رجلٌ مسيحي هو: أكيدر بن عبد الملك. فأرسل النبي ﷺ قوّة بقيادة خالد بن الوليد لإخضاعه، فتمكن من السيطرة عليهم وإحضار أكيدر إلى الرسول ﷺ، فأعلن خضوعه وقبل دفع الجزية والبقاء على دينه، وكتب عهداً وصالحه، وأهداه، ثمّ أوصله إلى بلده بحراسة خاصة.[٢] فانتهت بذلك الأعمال العسكرية في تبوك.

ويمكن تقييم نتائج تلك العمليات العسكرية كما يأتي:

١. إبراز مكانة وسمعة الجيش الإسلامي في المناطق الخارجية، ممّا أثر في القبائل هناك فتسارعوا بالقدوم والوفود على الرسول ﷺ بعد عودته من تبوك، لتعلن خضوعها وطاعتها، حتى سمّي ذلك العام بعام الوفود.

٢. ضمان أمن الحدود بعد توقيع المعاهدات والاتفاقيات مع حكّام تلك

---

١. مغازي الواقدي: ٣/ ١٠١٩.

٢. بحار الأنوار: ٢١/ ٢٤٦؛ طبقات ابن سعد: ٢/ ١٦٦.

المناطق.

٣. تمهيد الطريق للمسلمين لفتح الشام بعد ذلك، عندما تعلموا منه ﷺ أساليب تكوين وإعداد الجيوش الكبرى لمحاربة القوى العظمى.

٤. تمييز المؤمن عن المنافق.

وبعد أن مكث ﷺ عشرين يوماً في تبوك، توجه إلى المدينة، إلاّ أنّ اثني عشر منافقاً تآمروا لاغتيال النبي ﷺ قبل أن يصل إلى عاصمته، كان ثمانية منهم من قريش والآخرون من أهل المدينة، وذلك بتنفير ناقته في العقبة ـ بين المدينة والشام ـ ليطرحوه في الوادي، غير أنّه ﷺ علم بمؤامرتهم فأرعبهم بصياحه فيهم، فتركوا العقبة هاربين، ورفض ﷺ أن يرسل من يقضي عليهم أو اللحاق بهم. ثمّ وصل الجيش إلى المدينة فرحين مسرورين معتزين بما حقّقوه من انتصار على الأعداء، وإلقاء الرعب في قلب دولة كبيرة، ولما أرادوا التفاخر والتباهي على الذين تخلّفوا بعذر وقلوبهم مع جنود الإسلام، فإنّ النبي ﷺ منعهم من ذلك، لأنّ النيّة الصالحة والفكر الطيّب يقوم مقام العمل الصالح الطيّب.

ثمّ أقدم ﷺ على معاقبة الثلاثة الذين تخلّفوا عن الجيش بأعذار واهية وهم: هلال بن أُمية، كعب بن مالك، ومرارة بن الربيع، فقد أعرض بوجهه الكريم عنهم، ولم يكترث بهم حينما قدّموا التهنئة بعودتهم مظفرين، وقال فيهم: لا تكلّموا أحداً من هؤلاء الثلاثة، ممّا أثر في التعامل معهم تجارياً، فكسدت بضائعهم، وانقطعت روابطهم مع أقربائهم، فأثر ذلك في نفسياتهم: ﴿حَتّىٰ إِذا ضاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرضُ بِما رَحُبَتْ وَضاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفسُهُمْ﴾.[1] فقاموا بالتوبة إلى

---

١. التوبة:١١٨.

الله، فأعلن النبي ﷺ عفوه عنهم، ورفع المقاطعة عنهم.[١]

وكانت هذه آخر معركة اشترك فيها الرسول ﷺ إذ لم يشارك بعدها في أيّ قتال.

٤. مسجد ضرار

أصبح أبو عامر والد حنظلة غسيل الملائكة، الذي استشهد في أُحد، من المتعاونين مع المنافقين، الذين خططوا دائماً للتخريب و إفساد أعمال الإسلام، ولذا قرر النبي ﷺ اعتقاله فهرب إلى مكّة و منها إلى الطائف ثمّ إلى الشام، فقاد منها شبكة تجسسية لصالح المنافقين. وكتب في إحدى رسائله إلى جماعته، يطلب منهم أن يبنوا مسجداً في قباء في مقابل مسجد المسلمين ليتخذوه مركزاً لتخطيط وتنفيذ مؤامراتهم. وكان النبي ﷺ قد رفض من قبل طلبهم هذا قبل مسيره إلى تبوك، فاستغلوا غيابه فأقاموه. و لمّا عاد النبي ﷺ طلبوا منه أن يؤدي ركعتين فيه ليسبغوا عليه الصفة الشرعية، إلاّ أنّ جبرائيل عليه السلام أوحى إليه ﷺ بحقيقة الأمر والنية، وسمّاه مسجد ضرار ووصفه بأنّه مركز لإيجاد الفرقة والتآمر بين المسلمين: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِداً ضِراراً وَكُفْراً وَتَفْرِيقاً بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصاداً لِمَنْ حارَبَ اللهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُن إِنْ أَرَدْنا إِلاّ الحُسْنىٰ وَاللهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكاذِبُونَ* لا تَقُمْ فِيهِ أَبَداً لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلى التَّقْوىٰ مِنْ أَوَّلِ يَومٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ﴾.[٢]

---

١. السيرة الحلبية: ٣/ ١٦٥.

٢. التوبة: ١٠٧.

ممّا دعا الرسول ﷺ أن يأمر فوراً بتدميره وإحراقه وتسويته بالأرض، فتحول مكانه إلى مزبلة فيما بعد.[١] وكان ذلك ضربة قويّة للمنافقين، إذ انتهى حزبهم الخبيث وهلك حاميهما الوحيد عبد الله بن أُبي بعد شهرين من غزوة تبوك.

٥. وفد ثقيف

وهي من القبائل العنيدة التي تصلبت في موقفها أمام المسلمين، وخاصة عندما حاصرهم الجيش الإسلامي، فلم يتنازلوا أو يسلموا، إلاّ أنّ موقفهم تغيّر بعد غزوة تبوك التي أشهرت قوّة المسلمين، وخوفت عدّة جهات، ممّا دفع عروة بن مسعود الثقفي أحد سادتهم إلى أن يقدم إلى المدينة ويعلن إسلامه على يدي الرسول ﷺ ثمّ يرجع إلى قومه داعياً لهم إلى الإسلام، فرشقوه بالنبال والسهام حتى استشهد.

إلاّ أنّ موقفهم المتصلب تغيّر بعد فترة حينما علموا أنّ مصالحهم التجارية وغيرها معرضة للخطر إذا لم يحسنوا علاقاتهم بالمسلمين، فقرروا التوجه إلى النبي ﷺ وإعلان إسلامهم، فأوفدوا عنهم عبد ياليل مع خمسة رجال للتفاوض مع النبي ﷺ، وهناك أمر النبي ﷺ بإكرامهم، وعين «خالد بن سعيد» قائماً بشؤون صيافتهم.

وفي المفاوضات التي جرت بين الطرفين، اشترط عليهم الرسول ﷺ أن يهدموا الأصنام فرفضوا أوّل الأمر، ولكنّهم أطاعوه بالتالي على أن يقوم أشخاص غرباء ـ ليسوا من قبيلتهم ـ بهدمها. كما طلبوا إعفاءهم من الصلاة، فقال ﷺ: «لا خير في دين لا صلاة فيه». ثمّ وقّع الطرفان على شروط المعاهدة التي تمّت

١. السيرة النبوية: ٢/ ٥٣٠؛ بحار الأنوار: ٢٠/ ٢٥٣.

بينهما، واختار ﷺ منهم عثمان بن أبي العاص[١] الذي حرص على التفقّه في الدين وتعلّم القرآن، فأمّره عليهم وجعله نائباً دينياً وسياسياً عنه في قبيلة ثقيف، وأن يصلي بالناس جماعة، مراعياً أضعفهم: «يا عثمان تجاوز في الصلاة ـ أي خفف الصلاة وأسرع فيها ـ وأقدر الناس بأضعفهم، فإنّ فيهم الكبير والصغير والضعيف وذا الحاجة». ثمّ كلّف ﷺ أبا سفيان و المغيرة بن شعبة، للتوجه معهم لهدم الأصنام هناك.[٢]

٦. إعلان البراءة من المشركين في منىٰ

في أواخر هذا العام ـ ٩هـ ـ نزل جبرائيل عليه السلام على النبي ﷺ مع عدّة آيات من سورة البراءة، يطلب أن يتلوها رجل يختاره الرسول ﷺ في موسم الحج. وقد تضمنت الآيات رفع الأمان عن المشركين، وإلغاء جميع العهود ـ إلّا ما التزم بها أصحابها ولم ينقضوها ـ فيبلغ ذلك إلى رؤوس المشركين ليوضحوا موقفهم تجاه الدولة الإسلامية خلال أربعة أشهر، فإذا لم يتركوا ما هم عليه من شرك ووثنية خلال الأربعة أشهر، نزعت عنهم الحصانة ورفع عنهم الأمان. أمّا الدوافع التي كانت وراء صدور هذا العهد: البراءة:

١. كان التقليد السائد عند العرب جاهلياً أن يعطي زائر الكعبة ثوبه الذي يدخل به مكة إلى فقير، ويطوف بثوب آخر، وإذا لم يكن له ثوب آخر، فإنّه يستعيره ليطوف به حول البيت، وإن لم يجد طاف عرياناً بادي السوأة، حتى لو كانت إمرأة، فإنّها تطوف عارية بالبيت على مرأى من الناس، وهو الأمر الذي انطوى

---

١. كان أحدثهم سناً.

٢. السيرة النبوية: ٢/ ٥٣٧؛ السيرة الحلبية: ٣/ ٢١٦؛ أُسد الغابة: ١/ ٢١٦.

على نتائج سيئة.

٢. كما أنّه بعد انتشار الإسلام وإظهار قوّته في خلال عشرين عاماً، رأى النبي ﷺ أن يستخدم القوّة لضرب كلّ مظاهر الوثنية، على أنّها نوع من العدوان على الحقوق الإلهية والإنسانية، فكان لابدّ من استئصال جذور الفساد باستخدام القوّة العسكرية كآخر وسيلة.

٣. ثمّ إنّ الحجّ كان أكبر العبادات والشعائر الإسلامية، فكان على الرسول ﷺ أن يقوم بتعليم المسلمين مناسك الحجّ على الوجه الصحيح بعيداً عن تأثير أيّ نوع من الشوائب والزوائد، فكان لابدّ من اشتراك النبي ﷺ بنفسه في تعليمهم هذه العبادة بصورة عملية، ولكن بشرط أن تخلو منطقة الحرم ونواحيها من المشركين العابدين للأصنام، ليصبح الحرم الإلهي خالصاً للموحدين والعباد الواقعيين.

٤. والنبي ﷺ لم يحارب لفرض العقيدة لأنّ العقائد لا تخضع لأيّ قهر أو فرض، بل انحصر نضاله في القضاء على مظاهر الاعتقاد بالأوثان، بواسطة هدم بيوت الأصنام.

ولكلّ ذلك فإنّ النبي ﷺ اختار أبا بكر بعد أن علمه تلك الآيات من سورة البراءة، ووجه صوب مكة يرافقه أربعون رجلاً، ليتلوها على مسامع الناس يوم عيد الأضحى، إلاّ أنّ جبرائيل عليه السلام أخبره ﷺ «إنّه لا يؤدّي عنك إلاّ أنت أو رجل منك» ممّا جعل النبي ﷺ أن يطلب من الإمام علي عليه السلام القيام بهذه المهمة: «إلحق أبا بكر فخذ براءة من يده و إمض بها إلى مكّة و انبذ بها عهد المشركين إليهم، أي إقرأ على الناس الوافدين إلى منىٰ من شتى أنحاء الجزيرة العربية براءة، بما فيها النقاط الأربع التالية:

١. لا يدخل المسجد مشرك.

٢. لا يطوف بالبيت عريان.

٣. لا يحج بعد هذا العام مشرك.

٤. من كان له عهد عند الرسول ﷺ فهو له إلى مدّته، أي يحترم ميثاقه وماله و نفسه إلى يوم انقضاء العهد، ومن لم يكن له عهد ومدّة من المشركين فإلى أربعة أشهر، فإن أخذناه بعد أربعة أشهر قتلناه، ويسري هذا ابتداء من اليوم العاشر من ذي الحجّة. ويعني هذا أنّ هذا الفريق من المشركين، عليه أن يحدد موقفه من الدولة الإسلامية، فإمّا الانضمام إليها وترك مظاهر الشرك، و إمّا القتال.[1]

وقد أدرك الإمام عليه السلام أبا بكر في الجُحفة وأبلغه أوامر النبي ﷺ فأعطاه الآيات، ورجع أبو بكر إلى المدينة مستفسراً عن سبب موقف النبي ﷺ فأخبره بما أمره جبرائيل عليه السلام.

ولم يمض على قراءتها المدّة المعلومة، حتى اعتنق أكثر المشركين الإسلام، فتم بذلك استئصال جذور الوثنية في أواسط السنة ١٠ هـ، ويؤكد هذا الموقف على نيّة النبي ﷺ بالكشف عملياً عن أهلية الإمام علي عليه السلام وصلاحيته للقيام بأُمور الدولة في المستقبل.

---

١. فروع الكافي: ١/ ٣٢٦.

أحداث السنة العاشرة
من الهجرة

١. ورود وفد نجران، و المباهلة

نفع نجران على الحدود بين الحجاز و اليمن، واعتنق أهلها المسيحية، وكان النبي ﷺ قدكتب إلى أُسقف نجران أبو حارثة يدعوه إلى الإسلام أو دفع الجزية، أو الحرب بين الطرفين، فتشاور مع رجاله وشخصيات دينية كان من ضمنهم شرحبيل الذي عرف بالعقل والحكمة والتدبير فقال: قد علمتُ ما وعد الله إبراهيم في ذرّية إسماعيل من النُبوّة. ثمّ اتّفقوا على إرسال وفد منهم إلى النبي ﷺ ضمّ ستين شخصاً من أهل العلم بقيادة ثلاثة من أساقفتهم:

ـ أبو حارثة بن علقمة: أسقف نجران الأعظم والممثل الرسمي للكنائس الرومية في الحجاز.

ـ عبد المسيح : رئيس الوفد.

ـ الأيهم: من الشخصيات المقدّرة عندهم.[1]

وحينما وصلوا المدينة ودخلوا المسجد لمقابلة النبي ﷺ في ملابسهم الخاصة من ديباج وحرير وذهب، والصلبان في أعناقهم، انزعج النبي ﷺ لذلك فأخبرهم الإمام علي عليه السلام بأن يضعوا حللهم وخواتيمهم ثمّ يعودوا إليه، فدخلوا من ثمّ

---

١. السيرة الحلبية:٣/ ٢١١.

على النبي الأكرم ﷺ الذي احترمهم وتقبّل هداياهم، ثمّ طلبوا الإذن بالصلاة ـ أي صلاتهم ـ فأذن لهم ﷺ مدلّلاً بذلك على التسامح الديني الذي تميز به الرسول الأكرم ﷺ والإسلام.

ثمّ جرت المفاوضات و المناقشات الدينية بينهم و بين النبي ﷺ وخاصة فيما يرتبط بالسيد المسيح، فأوضح لهم النبي ﷺ ما جاء حوله مفصلاً في القرآن الكريم، و أنّه بشر وليس إلهاً ولكنّهم لم يرضخوا لمنطق النبي ودلائله فدعاهم إلى المباهلة بعدما نزلت عليه الآيات: ﴿فَمَنْ حاجَّكَ فيهِ مِنْ بَعْدِ ماجاءَكَ مِنَ العِلْمِ فَقُلْ تَعالَوْا نَدْعُ أَبْناءَنا وَأَبْناءَكُمْ وَنِساءَنا وَنِساءَكُمْ وَأَنْفُسَنا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَعْنَتَ اللهِ عَلى الكاذِبين﴾.[1]

واتّفق الطرفان على إجراء المباهلة في الصحراء خارج المدينة، فاختار الرسول ﷺ من أهله أربعة أشخاص فقط هم: الإمام علي عليه السلام والسيدة فاطمة الزهراء عليها السلام والإمامان الحسن و الحسين عليهما السلام فلم يكن غيرهم أطهر نفساً وأقوى وأعمق إيماناً. وفي الموعد المحدد سار النبي ﷺ إلى الموقع بأسلوب مميز، فقد احتضن الإمام الحسين عليه السلام وأخذ بيد الإمام الحسن عليه السلام وسارت السيدة الزهراء عليها السلام خلفه، والإمام علي عليه السلام خلفها، وهو يقول: إذا دعوتُ فأمّنُوا

وكان زعماء الوفد النجراني قد قرروا أنّه إذا خرج النبي ﷺ بأهله فقط، لم يباهلوه فإنّ ذلك يدل على صدقه وثقته بحاله، فلما شاهدوا ذلك بأنفسهم اندهشوا له، فكيف خرج النبي ﷺ بابنته الوحيدة وأفلاذ كبده المعصومين للمباهلة، فأدركوا أنّه ﷺ واثق من نفسه ومن دعوته، إذ لو لم يكن كذلك لما خاطر بأحبائه ولما عرضهم للبلاء السماوي، ولهذا قال أُسقف نجران: يا معشر

١. آل عمران: ٦١.

النصارى، إنّي أرى وجوهاً لو شاء الله أن يزيل جبلاً من مكانه لأزاله بها، فلا تباهلوا فتهلكوا ولا يبقى على وجه الأرض نصراني إلى يوم القيامة. فاتّفقوا بذلك على عدم أداء المباهلة، واستعدادهم لدفع الجزية سنوياً للنبي ﷺ في مقابل قيام الدولة الإسلامية بالدفاع عنهم.

وجاء عن السيدة عائشة: أنّ رسول الله ﷺ خرج يوم المباهلة وعليه مرط ـ كساء ـ مرجّل من شعر أسود فجاء الحسن فأدخله ثمّ جاء الحسين فأدخله، ثمّ فاطمة ثمّ علي، ثمّ قال: ﴿إِنَّما يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾.[1]

ويؤكد الزمخشري، أنّ ذلك دليل قويّ على فضل أصحاب الكساء، وبرهان على صحّة نبوّة النبي ﷺ.

وأمّا عن وقت حدوث المباهلة، فقد جاء أنّه لا خلاف بين المؤرخين بأنّ كتاب الصلح كتب عام ١٠ هـ وفي يوم ٢٥ من شهر ذي الحجّة. ويذكر السيد ابن طاووس أنّه كان يوم ٢٤ وهو الأصح، بينما رأى فريق آخر أنّه كان في يوم ٢١ أو ٢٧ من الشهر نفسه.[2]

وقد جاء عن السيد ابن طاووس قصة المباهلة في كتاب الإقبال بصورة مفصّلة لم ترد في أيّ كتاب آخر، مشيراً بأنّ محتوياته اقتبست من كتابين:

١. كتاب المباهلة لأبي الفضل محمّد بن عبد المطلب الشيباني.[3]

٢. كتاب عمل ذي الحجّة تصنيف الحسن بن إسماعيل بن إشناس.[4]

أما رأينا حول توقيت المباهلة، فإنّ الدراسة العلمية تثبت أنّ الواقعة لم

---

١. الأحزاب: ٣٣.
٢. الإقبال: ٧٤٣.
٣. يرى النجاشي أنّ له فترتين من الحياة، كان في إحداها موثوقاً به، وفي الأُخرى لم يكن موثوقاً به.
٤. من مشايخ الطائفة الإمامية، توفي ٤٦٠ هـ ونقل أحاديث المباهلة.

تحدث في شهر ذي الحجّة عام ١٠هـ أنّ الرسول ﷺ كان قد توجه إلى مكّة لتعليم مناسك الحجّ في هذه السنة، وفي اليوم ١٨ من هذا الشهر ــ و هو يوم الغدير، نصب علياً عليه السلام في غدير خم[1] خليفة على المسلمين من بعده، ولم تكن حادثة الغدير بالأمر الهيّن حتى يتابع النبي ﷺ سفره فوراً إلى المدينة، إذ أنّه نصب خيمة جلس فيها الإمام علي عليه السلام ليدخل عليه المهنّئون،واستمر ذلك حتى ليلة ١٩ من ذي الحجّة، حيث بدأت أُمّهات المؤمنين في التهنئة عند نهاية المراسيم، فلا يمكن لذلك أن يغادر الرسول ﷺ غدير خم في يوم ١٩، نظراً لوجود الكثير من الحجّاج الذين كانوا يودعون النبي ﷺ في هذه البقعة.

والشواهد التاريخية تؤكد أنّ النظرية المذكورة في توقيت المباهلة لا تحظى بالاعتبار الكافي، فلابدّ لمعرفة زمن الحادثة التي هي من مسلمات القرآن والتفسير والحديث، تحرّي المزيد من التحقيق والدراسة والتقصّي. وأمّا سبب اختيار العلماء للوقت والزمن، فذلك لأنّ الشيخ الطوسي اختاره استناداً إلى روايات نَقَلها في كتابه، مع وجود رجال غير ثقات ضمن سنده.

وتعتبر قصة مباهلة الرسول ﷺ مع وفد نجران من أحداث التاريخ الإسلامي الجميلة و المثيرة، وإن قصّر بعض المفسرين والمؤرخين في رواية تفاصيلها وتحليلها، إلاّ أنّ عدداً من العلماء كالزمخشري في الكشاف، والإمام الفخر الرازي في تفسيره، وابن الأثير في الكامل، تناولوها بدقائقها.[2]

---

١. تبعد عن الجحفة ميلين، والجحفة على ٦ أميال من البحر الأحمر،وتقرب من رابغ الآن، و٤ أميال من مكة. أمّا بحساب المقاييس الحديثة فهي تبعد عن مكّة ٢٢٠ كم. والميل عبارة عن ٣ آلاف ذراع، والفرسخ يساوي ٩ آلاف ذراع، و قيل إنّ الميل ٤ آلاف ذراع،والفرسخ ١٢ ألف ذراع. و الميل ثلث الفرسخ،والفرسخ يعادل ٣ أميال.

٢. الكشاف: ١/ ٣٨٢؛ مفاتيح الغيب للرازي:٢/ ٤٧١؛ الكامل: ٢/ ١١٢.

كما أنّها وما نزل فيها من القرآن الكريم تعتبر أكبر فضيلة تدعم موقف الشيعة، في الكشف عن مقام ومكانة من باهل بهم رسول الله ﷺ والذين يتخذهم الشيعة أئمّة وقادة لهم، فالآية الكريمة اعتبرت الإمام الحسن والحسين عليهما السلام أبناء للرسول ﷺ والسيّدة فاطمة الزهراء عليها السلام هي المرأة الوحيدة التي ترتبط بالرسول ﷺ وعبّر عن علي عليه السلام بأنفسنا، فكان بحكم هذه الآية بمنزلة نفس رسول الله ﷺ، أي من حيث الصفات النفسية والمؤهلات الروحية.

٢. وفود القبائل في المدينة

بعد إعلان البراءة من المشركين والوثنيين في موسم حج ٩هـ ارتبكت القبائل فعمدت إلى إيفاد مندوبين عنها إلى عاصمة الإسلام للحوار والتعرف على الدين الجديد والخضوع للدولة الإسلامية. وهو ما يكشف عن أنّه في عام ١٠هـ فَقَد هؤلاء كلَ حصن يمنعهم عن رسول الله ﷺ، إذ لم تنته الفترةُ المقررة لإعلان موقفهم ـ سواء بالرفض أو القبول ـ بعد أربعة أشهر، إلاّ وقد دخَلَت كلّ مناطق الحجاز تحت راية التوحيد، بالإضافة إلى سكان اليمن والبحرين واليمامة.

وقد بعث ﷺ إلى اليمن: معاذ بن جبل لينشر دين التوحيد ويشرح لهم التعاليم فأوصاه قائلاً: «يسّر ولا تعسّر، وبشّر ولا تنفّر» إلاّ أنّ النبي ﷺ رأى أن يرسل الإمام علياً عليه السلام إلى تلك الجهات ليزيل المشكلات التي تعرقل تقدّم الإسلام في تلك الديار. ولكن الإمام عليه السلام تواضَعَ في ذلك وقال: يا رسول الله تبعثُني وأنا شابٌّ أقضي بينهم ولا أدري ما القضاء ــ أي ما فعلته قبل هذا ـ فضربَ الرسول ﷺ بيده على صدره و قال: «اللّهم اهد قلبه و ثبّت لسانه» ثمّ أوصاه بوصايا أربع هامة قائلاً: «يا علي أُوصيك : بالدعاء فإنّ معه الإجابة،

وبالشكر فإنّ معه المزيد، وإيّاك أن تخفر عهداً أو تعين عليه، وأنهاك عن المكر فإنّه لا يحيق المكر السيّءُ إلّا بأهله، وأنهاك عن البغي، فإنّه من بُغي عليه لينصرنّه الله».

وفي اليمن دخلت قبيلة همدان كلّها في الإسلام في يومٍ واحد، حينما قرأ عليهم كتاب رسول الله ﷺ فكتب الإمام عليه السلام بذلك إلى النبي ﷺ فاستبشر وابتهجَ وخَرَّ ساجداً شكراً لله وقال: «السلام على أهل هَمْدان». وعلى أثر إسلام همدان تتابع أهل اليمن على الإسلام.[1]

وقد حاولت جماعةٌ من القبائل اغتيال النبي ﷺ فقد اتّفق ثلاثة من أفراد قبيلة بني عامر المعروفة بالشر و الطغيان أن يدخلوا المدينة على رأس وفد بني عامر متظاهرين بالتفاوض مع الرسول ﷺ واغتياله غدراً. والثلاثة هم: عامر، أربد، و جبار. وشملت خطتهم أن يتحدث عامر إلى الرسول ﷺ في الوقت الذي يعد فيه أربد لضربه بالسيف، إلّا أنّ الوضع لم يجرِ كما خُطِّطَ له، فقد هاب أربد النبي ﷺ وانصرف عن نيّته، فغضب عامر و هدّد بمحاربة النبي ﷺ وغادر المجلس بعد أن دعا عليه النبي ﷺ وعلى صاحبه، فاستجاب الله دعاءه سريعاً حيث مات في الطريق بمرض الطاعون، واحترق أربد بصاعقة وهو في الصحراء.

٣. حجّة الوداع

في عام ١٠ هـ أمر اللهُ تعالى نبيّه الكريم ﷺ أن يشارك في مراسم الحجّ، ويعلّم مناسكه للناس، ويوقفهم على واجباتهم في هذه العبادة الكبرى عملياً، كما يقوم بإزالة كلّ ما ارتبط بها من زوائد طيلة السنوات الماضية، ويعيّن حدود

١. الكامل: ٢/ ٣٠٥؛ بحار الأنوار: ٢١/ ٣٦٠.

عرفات ومنىٰ و يوم الإفاضة منها. ولـذلك فقد تهيّأ عددٌ كبير من المسلمين لمرافقة النبي ﷺ في هذه الرحلة المباركـة، فخرج الرسول ﷺ من المدينة يـوم ٢٦ من ذي القعدة حتى بلغ ذي الحُليفة ـ قرب مسجـد الشجرة ـ فأحرم ودخل الحَرم ملبّياً: «لبيك اللّهـمّ لبيك، لبيـك لا شريك لـك لبيك، إنّ الحَمـدَ والنعمة لـك والملك لبيك، لا شريك لك لبيك» وهو نداء إبراهيم عليه السلام . وكان يكرّر التلبية كلّما شاهد راكباً أو علا مـرتفَعاً من الأرض أو هبط واديـاً، وعندما شارف مكـة قطع التلبية. فدخل مكّة في اليوم الرابع من شهر ذي الحجّة متوجّهاً نحو المسجد الحرام رأساً، ودخله مـن باب بني شيبة وهـو يحمد الله ويثني عليه ويصلّي على إبـراهيم عليه السلام ، فبدأ مـن الحَجَر الأسـود فاستلمـه أوّلاً[1]، ثـمّ طاف سبعـة أشـواط حول الكعبـة المعظمة، ثمّ صلّى ركعتين خلف مقـام إبراهيم عليه السلام ثمّ توجـه نحو الصفا والمروة للسعي بينهما، ثمّ التفت إلى حُجّاج بيت الله الحرام وقال: «من لم يسق منكم هدياً فليحلّ وليجعلهـا عمرة (أي فليقصّر فيحل له مـا حرم عليه الإحرام) ومـن ساق منكم هدياً فليقم على إحرامه».

إلاّ أنّ البعض منهم كره أن يحل إحرامه والنبي ﷺ مُحرم، فأمرهم بتنفيذ ما قال: «لو كنت استقبلت من أمري ما استدبرتُ لفعلتُ كما أمرتكم». أي أنّني لو كنت أعلـم بالمستقبل وعـرفت موقـف الناس المتردد وخـلافهم هذا مـن قبل، لما سقت الهدي، وفعلتُ ما فعلتموه، ولكن ما العمل وقد سُقتُ الهديَ فلا يمكنني الإحـلال مـن الإحرام حتـى يبلـغ الهديُ محلّـه. فمـن الواجـب عليّ أن أبقـى في

١. استلمه يعني مسح الحجر الأسود باليدين قبل الشروع بالطواف، واستلامـه نوع من تجديد الميثاق مع الخليل إبراهيم عليه السلام والعمل على نصرة عقيـدة التوحيد على نحـو ما فعل إبـراهيم عليه السلام . وقد اعتمر النبي ﷺ في الفترة المدنية مـرّتين، واحدة في عام ٧هـ و الأُخـرى عام ٨ هـ بعد فتـح مكة، فهذه كانت ثالث عمرة له مع الحجّ.

إحرامي، أي أنحر هديي بمنى كما أمر الله سبحانه و تعالى، وأما أنتم فمن لم يسق الهدي منكم فإنّ عليه أن يحلّ إحرامه، واحسبوها عمرةً ثمّ احرموا للحجّ مرّة أُخرى.

وقد كره النبي ﷺ خلال فترة الحجّ أن يمكث في دار أحد، ولذا فإنّه كان يأمر بضرب ـ أي بإعداد ـ خيمة له خارج مكّة. وقصد النبي ﷺ عرفات في اليوم الثامن من ذي الحجّة عن طريق منىٰ التي توقّف فيها إلى طلوع الشمس من اليوم التاسع، فركب بعيره نحو عرفات، ونزل في خيمة أُعدَّت له في نمرة، وألقى هناك خطاباً تاريخياً هاماً وهو على ناقته، في جموع بلغت ١٠٠ ألف.

وبدأ خطابه قائلاً: «أيّها النّاس اسمعوا قولي واعقلوه، فإنّي لا أدري لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا بهذا الموقف أبداً، أيّها النّاس، إنّ دماءكم وأموالكم ـ وأعراضَكم ـ عليكم حرام إلى أن تلقوا ربّكم كحرمة شهركم هذا وكحرمة بلدكم هذا، وكحرمة يومكم هذا».

وقد ألغى في هذا الخطاب عادات الثأر الجاهلية المشؤومة بادئاً بأقربائه، مثل الانتقام، والخيانة، أي أداء الأمانة، والربا، كما استوصى بالنساء خيراً.

«وقد تركتُ فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلوا أبداً، أمراً بيناً كتاب الله وسنّة نبيّه. والمسلمُ أخو المسلم، والمسلمون إخوة، ولا نبي بعدي ولا أُمّة بعدكم. ألا كلّ شيء من أمر الجاهلية موضوعٌ تحت قدمي».

ثمّ سار بعد الغروب إلى المزدَلَفة، ووقف فيها من الفجر إلى طلوع الشمس، وتوجه في اليوم العاشر إلى منى وأدّى مناسكها، ثمّ توجه نحو مكّة لأداء بقية المناسك.

وكان الإمام علي عليه السلام يومذاك في اليمن، فعلم بتوجّه النبي ﷺ إلى مكّة، فخرج مع جنوده للمشاركة في الموسم واصطحب معه شيئاً من بز اليمن وحريرها

أخذها جزية من أهل نجران. وبعد أن أدّى مناسك العمرة، رجع الإمام عليه السلام إلى جنوده حسب ما أمره الرسول ﷺ فوجد أنّ نائبه الذي عينه أثناء غيابه قد وزّع على كلّ فرد منهم حلّة من البز، كان يريد تسليمها إلى النبي ﷺ، فطلب منهم ردّها مع الأشياء الأُخرى من جزية أهل نجران.

٤. الخلافة بعد النبي ﷺ

هل الخلافة منصبٌ تعييني أو انتخابي؟ يرى الشيعة أنّ القيادة منصب تعييني فيه نصٌّ،فلابدّ أن يتعيّن خليفة النبي ﷺ من جانب الله سبحانه و تعالى، بينما يرى أهلُ السنّة أنّها منصب انتخابي جمهوري، أي تقوم الأُمّة هي بعد النبي ﷺ باختيار فرد منهم يتولّى إدارة البلاد. و لكلّ من الاتّجاهين دلائل ذكرها أصحابها في الكتب العقائدية.

إنّ الظروف السائدة في تلك الفترة حتمت بأن يعيّن النبي ﷺ خليفةً له، وذلك لما كان عليه الوضع من تهديد العدو للدولة الإسلامية، فأوجب مواجهة الأخطار الخارجية بتعيين قائدٍ سياسيّ يمكنه السيطرة على الوضع، كما أنّ خطر حزب النفاق كان لا يزال له دوره في تقويض دعائم الكيان الإسلامي داخلياً، وقد بيّن دورهم التخريبي وخطرهم الأكيد، القرآن الكريم في عدّة سور.

ولذا فإنّه مع وجود تلك الأخطار الخارجية والداخلية، التي كانت تنتهز الفرص للقضاءعلى الدولة الإسلامية الحديثة، فإنّه كان لابدّ من تعيين قائد ديني سياسي، يمكنه القضاء على ما يظهر من اختلاف وانشقاق بعده ﷺ في المجتمع الإسلامي، ويكون بذلك ضماناً لبقائه واستمراريته.

وبالإضافة إلى تلك الأحوال الاجتماعية والسياسية للمسلمين، فإنّ هناك

روايات وأخباراً أكدت صحّة الموقف والرأي الذي ذهب إليه علماء الشيعة، وثبتت في المصادر المعتبرة، أنّ النبيّ ﷺ نصّ على خليفته مراراً، إذ لم ينص على خليفته ووصيه في أواخر حياته فحسب، بل بادر إلى ذلك في بدء الدعوة، وخاصة في الفترة التي أمره فيها سبحانه وتعالى بأن ينذر عشيرته الأقربين ويدعوهم إلى عقيدة التوحيد، حينما وقف خطيباً في أربعين رجلاً من زعماء بني هاشم: «أيُّكم يؤازرني على هذا الأمر على أن يكون أخي ووصيي وخليفتي فيكم؟» فأحجم القوم و قام علي عليه السلام وأعلن مؤازرته له، فقال الرسول ﷺ: «إنّ هذا أخي ووصيي وخليفتي فيكم فاسمعوا له وأطيعوا».[1]

وعُرف هذا الحديث بحديث يوم الدار، وحديث بدء الدعوة.

كما أنّ حديث الغدير يُعدّ من أهمّ الأحداث والوقائع التي تؤكّد صراحة على خلافته عليه السلام إذ أنّه في الطريق إلى المدينة، بلغ موكب الحجّ العظيم رابغ[2] حيث نزل جبرائيل عليه السلام على رسول الله ﷺ بمنطقة تدعى غدير خم و بلغه الآية التالية: ﴿يا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ ما أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَما بَلَّغْتَ رِسالَتَهُ وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النّاسِ﴾[3] وكان ذلك الأمر هو الإعلان عن خلافة الإمام علي عليه السلام أمام ١٠٠ ألف شاهد.

وقال في خطابه: «إنّي تارك فيكم الثقلين ما إن تمسّكتم بهما لن تضلّوا أبداً، كتابَ الله سببٌ، طرفٌ بيد الله، وطرفٌ بأيديكم، فتمسّكوا به؛ والآخر عترتي، وإن

---

١. تاريخ الطبري: ٢/ ٢١٦؛ الكامل في التاريخ: ٢/ ٦٢.

٢. تقع الآن على طريق مكة ـ المدينة، وتبعد عن الجحفة ثلاثة أميال، والتي هي من مواقيت الإحرام، وتتشعب منها طرق أهل المدينة ومصر والعراق.

٣. المائدة: ٦٧.

اللطيف الخبير نبّأني أنّهما لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض، فلا تقدموهما فتهلكوا، ولا تقصروا عنهما فتهلكوا». ثمّ رفع يَدَ الإمام علي عليه السلام قائلاً: «يا أيّها الناس من أولى الناس بالمؤمنين من أنفسهم؟» قالوا: الله ورسوله أعلم. فقال ﷺ: «إنّ الله مولاي و أنا مولى المؤمنين، وأنا أولى بهم من أنفسهم، فمن كنت مولاه فعليٌّ مولاه.[1] اللّهمّ وال من والاه وعاد من عاداه، وانصر من نصره، واخذل من خذله، وأحب من أحبّه، و ابغض من أبغضه، وأدر الحقّ معه حيث دار».

وفي الحقيقة إنّنا قلّما نجد حادثةً تاريخية حظيت في العالم في التاريخ الإسلامي والأُمّة الإسلامية بمثل ما حَظِيَت به واقعة الغدير. فقد استقطبت اهتمام فئاتٍ مختلفة من المحدثين والمفسرين والفلاسفة والكتاب والشعراء والأُدباء والخطباء وأرباب السير والتراجم، واعتنوا بها أشدّ الاعتناء. و من أسباب خلودها واستمراريتها، نزول آيتين حولها في القرآن الكريم.[2] كما أنّ المسلمين سابقاً والشيعة بصورة خاصة ، اتّخذوا هذا اليوم عيداً ومناسبةً مفرحةً، جعله خالداً حتّى الآن. فقد كان يوم ١٨ من شهر ذي الحجّة معروفاً بيوم عيد الغدير عندهم، حتى أنّ بعض المؤرخين أرّخوا به بعض الأحداث، كما أنّ أبا ريحان البيروني والثعالبي، اعتبراه من الأعياد الإسلامية.[3]

كما أنّ النبي ﷺ أمر المهاجرين والأنصار، ونساءه بالدخول على الإمام علي عليه السلام لتقديم التهنئة له بهذه الفضيلة الكبرى، مثلما ذكر زيد بن أرقم، وأنّ أوّل من صافق النبي ﷺ وعلياً: أبو بكر و عمر و عثمان وطلحة والزبير، وباقي

١. كرر النبي ﷺ هذه العبارة ثلاث مرات دفعاً لأيّ التباس.

٢. المائدة:٦٧و٣.

٣. وفيات الأعيان:١/ ٦٠؛ الآثار الباقية: ٣٩٥؛ ثمار القلوب: ٥١١.

المهاجرين والأنصار والناس.

كما أنّ ١١٠ صحابياً تناولوا هذه الواقعة التاريخية الهامة بالرواية والحديث، كما رواه أيضاً ٨٩ تابعياً، و ٣٦٠ شخصاً من علماء أهل الشيعة وفضلائهم، وصحّحه جمع كبير من الآخرين. فقد رواه في القرن ٣هـ: ٩٢ عالماً، وفي القرن ٤هـ: ٤٤ عالماً، إلى القرن ١٤ هـ حيث رواه عشرون عالماً. وألّف الطبري في ذلك كتاباً أسماه: الولاية في طرق حديث الغدير روى فيه الحديث عن النبي ﷺ بـ٥٧ سنداً. كما رواه عدد من علماء الحديث أمثال: ابن حجر العسقلاني، وأبو سعيد السجستاني، والنسائي، وأبو العلاء الهمداني. وبلغ عدد من ألّف رسالة خاصة أو كتاباً مستقلاً حول الواقعة و تفاصيلها ٢٦ شخصاً. أمّا علماء الشيعة فقد تناولوا فيها كتباً و مؤلفات قيّمة، أشملُها الغدير الذي كتبه العلاّمة القدير آية الله الشيخ الأميني.[١]

وبعد نزول الآية السابقة، والإجراءات التي أقدم عليها النبي ﷺ نزلت الآية: ﴿اليَومَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دينَكُمْ وَأَتْمَمتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتي وَرَضيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِيناً﴾.[٢]

فكبّر النبي ﷺ بصوت عال وقال: «الحمد لله على إكمال الدّين، وإتمام النعمة، ورضى الربّ برسالتي، وولاية علي بن أبي طالب بعدي». ثمّ قام حسّان ابن ثابت الأنصاري واستأذن النبي ﷺ في أن ينشد أشعاراً بهذه المناسبة.

---

١. يشتمل على ١١ مجلد في ٦ آلاف صفحة.

٢. المائدة: ٣.

٥. المرتدّون من المتنبّئين

في نهاية عام ١٠هـ قدم نفران من اليمامة وسلّما النبي ﷺ كتاباً من مسيلمة (الكذّاب) يدّعي فيه النبوة ويُشرِك نفسَه مع رسول الإسلام في أمر الرسالة، يريد بذلك أن يعرّف الرسول الكريم ﷺ بنبوته هذه: فإنّي قد أُشركتُ في الأمر معك، وإنّ لنا نصف الأرض، ولقريش نصفُ الأرض، ولكن قريشاً قومٌ يعتدون.[1] فالتفت النبيّ ﷺ إلى رسولي المتنبئ و قال: «أما والله لولا أنّ الرسل لا تُقتل لضربت أعناقكما لأنّكما أسلمتما من قبل و قبلتما برسالتي فَلِم اتبعتما هذا الأحمق وتركتما دينكما ؟».

ثمّ كتب ﷺ إليه كتاباً مقتضباً: «بسم الله الرّحمن الرّحيم، من محمّد رسول الله إلى مسيلمة الكذّاب السّلام على من اتّبع الهدى، أمّا بعد فإنّ الأرض لله يورثُها من يشاء من عباده، والعاقبة للمتّقين».[2]

كما ادّعى النبوة في نفس الوقت، الأسود بن كعب العنسي، في اليمن، إلاّ أنّ الخلفاء من بعد الرسول ﷺ تمكّنوا من القضاء على تلك الحركات المرتدة، إذ أنّها كانت أوّل أعمال الخلفاء الراشدين.

٦. الأخطار الخارجية

وكان خطرُ الروم أشدَّ الأخطار الخارجية، فاعتبره النبي ﷺ أمراً جدّياً لا يمكن التقليل من شأنه، ولذا فإنّه أعدّ جيشاً كبيراً في(سنة ٨هـ) لمحاربتهم، كما

---

١. لم يبدأ كتابه باسم الله أو مثل ما كان يفعله المشركون في العهد الجاهلي.

٢. السيرة النبوية:٢/ ٦٠٠.

سار إلى تبوك في (سنة٩هـ)لإظهار قوّة المسلمين أمامهم. ثمّ رأى بعد حجّة الوداع أن يُعدَّ جيشاً من المهاجرين والأنصار، واشترك فيه أشخاصٌ بارزون في الدولة أمثال: أبي بكر وعمر وأبي عبيدة و سعد بن أبي وقاص، وكلّ من هاجر إلى المدينة خاصّة، وأمر بقيادته: أُسامةَ بن زيد، وقال له: «سِر إلى موضع قتل أبيك فأوطئهم الخيلَ، فقد وليتك هذا الجيش، فاغز صباحاً وشنّ الغارة على أهل أُنبى».[1]

وقد أرادَ النبي ﷺ بتعيين قائد صغير السنّ على هذا الجيش الكبير، أن يؤكّد أساس الكفاءة الشخصية في تولّي المناصب والمسؤوليات، فهي لا ترتبط بالسن والعمر، بل بالكفاءة والمؤهلات المطلوبة.

ولذا فإنّه لم يكن هناك مبررٌ لاعتراض البعض على تولّي قيادته من حيث السنّ وعمر الشباب.[2]

ذلك أنّ هؤلاء غفلوا عن المصالح و الأهداف التي توخّاها الرسول ﷺ من هذا الإجراء، فقدّروا كلَّ عمل بعقولهم المحدودة، و قايسوها بمقاييسهم الشخصية، ممّا أثر ذلك في تأخير تحرك الجيش من معسكر الجرف[3] الذي استقر به أُسامة منتظراً من سيلحق به من المسلمين.

---

١. أنبى، من مناطق البلقاء في سوريا قرب مؤتة بين عسقلان و الرملة.

٢. ذهب بعض إلى أنّه كان في عمر ١٧ سنة، و آخرون بأنّه كان في ١٨ سنة، على أنّهم اتّفقوا على أنّه لم يتجاوز العشرين.

٣. الجرف: على بعد ٣ أميال من المدينة نحو الشام.

٧. مرض النبي ﷺ

وبعد يوم من إعداد الجيش السابق، مَرِض النبي ﷺ بصداع شديد تركه طريحَ الفراش، وهو المرض الذي قضىٰ فيه ﷺ. وقد علم الرسول ﷺ أنّ هناك من تخلّف عن الجيش، ومن يعرقل التوجه إلى موقعه، ومن يطعن في قيادة أُسامة، فغضب لذلك بشدّة وخرج معصّباً جبهته إلى مسجده، يحذرهم من عواقب أعمالهم غير السليمة وخاطبهم بقوله:

«لئن طَعنتم في إمارتي لأُسامة، فقد طعنتم في إمارتي أباه من قبله، وأيمُ الله كان للإمارة خليقاً، وأنّ ابنه من بعده لخليق للإمارة، وإنّه كان لمن أحبّ الناس إليّ، واستوصُوا به خيراً فإنّه من خياركم».

ونظراً لأهمية هذا الجيش، فإنّ النبي ﷺ كان يقول و هو في الفراش: «جهّزوا جيش أُسامة، لَعَنَ اللهُ من تخلّف عنه».[1]

وفي الوقت الذي استعدّ فيه أُسامة وآخرون من المهاجرين والأنصار للسير نحو الجرف، انتشر بينهم خبرُ تدهورِ صحّة النبي ﷺ ممّا جعلهم يعدلون عن قصدهم حتى يوم الإثنين، إلاّ أنّه ﷺ حثّه على الخروج قائلاً: «اغدُ على بركة الله».[2] فتهيّأ الجيشُ للتحرّك والمغادرة، إلاّ أنّ خبر احتضار الرسول ﷺ جعلهم يعودون إلى المدينة متجاهلين أوامرَ النبي ﷺ.

وقد ذكر المؤرخون أنّ النبي ﷺ خرج في الليلة التي توفّي في صبيحتها، مع الإمام علي عليه السلام إلى البقيع مع عدد آخر، فقال لهم: «إنّي أمرت أن استغفر لأهل

---

١. الملل و النحل: ١/ ٢٣؛ طبقات ابن سعد: ٢/ ١٩٠.

٢. طبقات ابن سعد: ٢/ ١٩٠.

البقيع»، و عندما وصل إلى المكان سلّم على أهل القبور قائلاً:

«السّلامُ عليكم أهل القبور، ليهنئكم ما أصبحتم فيه ممّا أصبح الناس فيه، أقبَلَت الفتن كقِطَع اللّيل المظلم يتبع بعضها بعضاً، يتبع آخرها أوّلها». ثمّ التفت إلى الإمام علي عليه السلام و قال:

«يا علي، إنّي خيّرت بين خزائن الدنيا والخلود فيها أو الجنة، فاخترت لقاء ربّي والجنّة. إنّ جبرائيل كان يعرض عليّ القرآن كلّ سنة مرّة، وقد عرضه عليّ العام مرّتين،ولا أراه إلاّ لحضور أجلي».[1]

٨. وفاة ابنه إبراهيم

وفي هذه السنة، و بعد ١٨ شهراً من ولادته، توفّي إبراهيم ابن النبي صلى الله عليه وآله فحزن عليه. و كان النبي صلى الله عليه وآله قد فَقَد خلال السنوات الماضية، ثلاثة من أولاده: القاسم و الطاهر والطيّب. وثلاثة من بناته: زينب ورقية و أُمّ كلثوم. وبقيت له بنت واحدة هي السيّدة **فاطمة الزهراء** عليها السلام من خديجة عليها السلام.

واعتبر النبيّ صلى الله عليه وآله الحزنَ على الميت رحمةً إذ قال: «إنّما هذا رحمة، ومن لا يرحم لا يُرحَم،ولكن نُهيت عن خمش الوجوه، وشقّ الجيوب، ورنّة الشيطان».[2]

---

١. بحار الأنوار: ٢٢/ ٤٦٦؛طبقات ابن سعد:٢/ ٢٠٤.

٢. السيرة الحلبية:٣/ ٣١٠.

أحداث السنة الحادية عشرة من الهجرة

١. الكتاب الذي لم يكتب

قرر الرسول ﷺ بهدف الحيلولة دون انحراف مسألة الخلافة عن محورها الأصلي، والحيلولة دون ظهور الاختلاف و الافتراق، أن يعزز مكانة علي عليه السلام ويدعم إمارته وخلافته، و أهل بيته، بإثبات ذلك في وثيقة خالدة تضمن بقاء الخلافة في خطها الصحيح.

ففي خلال زيارة بعض الصحابة له أثناء مرضه قال: «إئتوني بدواة وصحيفة، أكتب لكم كتاباً لا تضلّون بعده». فبادر عمر قائلاً: إنّ رسول الله قد غلبه الوجع، حسبنا كتاب الله.[١] فكثر اللغَط والنقاش حول إحضار ما طلبه النبي ﷺ أو عدمه، ممّا أغضب النبي ﷺ فقال: «قوموا عنّي لا ينبغي عندي التنازع»، وقال ابن عباس: الرزية كلّ الرزية ما حال بيننا وبين كتاب رسول الله.[٢]

وقد نَقل هذه الواقعة فريقٌ كبيرٌ من محدّثي الشيعة والسنة ومؤرخيهم، وتُعتَبر من الروايات الصحيحة. وإذا سأل أحد عن عدم إصرار النبي ﷺ على كتابة ذلك الكتاب، فذلك لأنّه ﷺ إذا أصرّ على موقفه، لأصرّ هؤلاء في الإساءة

---

١. الملل والنحل: ١/ ٢٢.

٢. صحيح البخاري: ١/ ٢٢؛ صحيح مسلم: ٢/ ١٤؛ مسند أحمد: ١/ ٣٢٥.

إلى النبي ﷺ وخاصة أنّهم قالوا عنه، أنّه غلبه الوَجَع أو هجر، ثمّ قيامهم بعد ذلك بإشاعة الأمر بين الناس.

وقد روى ابن حجر العسقلاني، أنّ النبي ﷺ قال لأصحابه وقد امتلأت بهم الحجرة وهو في مرضه: «أيّها الناس يوشك أن أُقبضَ سريعاً فينطلق بي، وقد قدمت إليكم القولَ معذرةً إليكم، إلاّ أنّي مخلفٌ فيكم كتابَ الله ربّي عزّوجلّ وعترتي أهل بيتي».

ثمّ أخذ بيد علي عليه السلام وقال :«هذا عليّ مع القرآن والقرآن مع عليّ، خليفتان نصيران لا يفترقان حتى يردا عليّ الحوض فاسألهما ماذا خلفت فيهما».[1]

ومن الواضح أنّ النبي ﷺ لفت الأنظار إلى حديث الثقلين مرّة أُخرى، برغم ما ذكره في مواضع متعدّدة، حتّى يؤكد أهمية الثَّقلين، وتدارك ما فات من كتابة الكتاب الذي لم يوفّق لكتابته.

وفي هذه اللحظات، طلب بعضاً من الدنانير كان قد وضعها عند إحدى زوجاته، وأمر علياً عليه السلام ليتصدّق بها.

وكان النبي ﷺ قد سُقي دواءً خطأً في علاجه،فقد تخيلت «أسماء بنت عميس» أنّ مرضَه ـ ذات الجنب ـ تعلمت علاجه من عقار مركب من نبات وأعشاب من الحبشة، إلاّ أنّ النبيّ ﷺ لما عَلِمَ بالدواء، ذكر بأنّ مرضه ليس ذات الجنب.

٢. اللحظات الأخيرة

في هذه الفترة الحرجة، كانت السيدة الزهراء عليها السلام تلازم فراش والدها ﷺ لا

---

١. الصواعق المحرقة ، : ٥٧، باب ٩؛ كشف الغمّة: ٤٣.

تفارقه لحظة، وفجأة طلب منها أن تقرب رأسها إلى فمه ليحدّثها، فراح يكلّمها بصوت خفيفٍ لم يُعرَف،ولكن الزهراء عليها السلام بكت بشدّة، إلاّ أنّ النبي صلى الله عليه وآله أشار إليها مرّة أُخرى فحدّثها بشيء آخر، فرحت به وتبسمت مستبشرة. ولم تكشف عن ذلك إلاّ بعد وفاة النبي صلى الله عليه وآله بناء على إصرار عائشة: «أخبرني رسول الله صلى الله عليه وآله أنّه قد حضر أجلُه وأنّه يُقبَض في وجعه، فبكيت، ثمّ أخبرني أنّي أوّل أهله لحوقاً به فضحكت».[1]

وفي آخر لحظة من حياته الشريفة طلبَ الإمام عليّاً عليه السلام قائلاً: «أُدعوا لي أخي». فعرف الجميع بأنّه يريد عليّاً عليه السلام فدعَوا له عليّاً، فقال له: «أُدن منّي فدنا منه، فاستند إليه فلم يزل مستنداً إليه يكلّمه».[2]

وسأل رجل ابن عباس: هل توفّي رسول الله صلى الله عليه وآله في حِجر أحد؟ قال: توفّي وهو مستند إلى صدر عليّ،وهو الذي غسّله وأخي الفضلُ بن عباس.

وقيل إنّ آخر جملة نطق بها الرسول صلى الله عليه وآله هي:«لا، إلى الرفيق الأعلى». فكأنّ ملك الموت خيّره عند قبض روحه الشريفة في أن يصح من مرضه أو يلبّي دعوة ربّه، فاختار اللحاق بربّه.

وسأل كعب الأحبار عن آخر كلمة قالها الرسول صلى الله عليه وآله فقال الإمام علي عليه السلام : أنّه قال: الصلاة الصلاة.

وقد ترك الدنيا صلى الله عليه وآله يوم الإثنين ٢٨ صفر، فَسُجّي ببرد يماني، ووُضع في حجرته بعض الوقت، وارتفعت صرخات العيال، وعلا بكاء الأقارب، وانتشر نبأ وفاته في كلّ أنحاء المدينة التي تحولت إلى مأتم كبير.

وقام الإمام علي عليه السلام بغسل جسده الشريف وكفّنه، إذ أنّه كان قد ذكر:

---

١. طبقات ابن سعد:٢/ ٢٦٣؛ الكامل في التاريخ: ٢/ ٢١٩.

«يغسّلني أقربُ الناس إليّ». وصلّى عليه مع المسلمين، وتقرر دفنُه في حجرته المباركة. وحفر قبره أبو عبيدة بن الجراح وزيد بن سهل، ودفنه الإمام علي عليه السلام يساعده الفضل بن العباس.

و لمّا فرغ الإمام عليه السلام من غسله صلى الله عليه وآله كشف الإزار عن وجهه صلى الله عليه وآله وقال والدموع تنهمر من عينيه: بأبي أنت و أُمّي، طبتَ حيّاً وطبتَ ميّتاً، انقطع بموتك ما لم ينقطع بموت أحد ممّن سواك من النبوة والأنباء. ولولا أنّك أمرت بالصبر ونهيت عن الجزع، لأنفدنا عليك ماءَ الشؤون، ولكان الداءُ مماطلاً، والكمَدُ محالِفاً وقلاّ لك، ولكنّه ما لا يُملَك ردّه ولا يستطاع دفعه! بأبي أنت و أُمّي أُذكرنا عند ربّك واجعلنا من بالك».[1]

وهكذا غربت شمس أعظم شخصية غيّرت مسار التاريخ البشري بتضحياته الكبرى وجهوده المضنية، وأعظم رسولٍ إلهيٍ فتح أمام الإنسانية صفحات جديدة ومشرقة من الحضارة والمدنية.

ومن هنا فإنّنا نختم حديثنا هذا بالشكر لله تعالى على هذه النعمة الكبرى، والحمد لله ربّ العالمين.[2]

جعفر السبحاني

قم المقدّسة الحوزة العلمية

شعبان المعظم ١٣٩٠هـ

---

١. نهج البلاغة: خطبة رقم ٢٣٥.

٢. تمّ تدوين هذه المحاضرات وتوثيقها وتحقيقها في شهر شعبان المعظم عام ١٤٠٩هـ في مدينة قم. جعفر الهادي.

الفصل العاشر

حكايات وروايات مؤثرة

جاء ذكرها في الكتاب

العادات و التقاليد

في جزيرة العرب قبل الإسلام

وأد البنات

متى بدأت عادة وأد البنات؟ وقد تأكّد أنّ بني تميم هي أوّل قبيلة أقدمت على هذه الجريمة النكراء، حينما امتنعوا عن دفع الضرائب لمَلِكِ الحيرة النعمان بن المنذر، فحاربهم واستولى على أموالهم ونسائهم، فكلّموه في إرجاع نسائهم،فقرر أن تختار المرأةُ نفسها العودة أو البقاء، فاختار بعضهن البقاء وعدم العودة إلى أهاليهن،وخاصة بنت قيس بن عاصم الذي نذر أن يدسّ كلَّ بنت تُولد له منذ ذلك الوقت. فسنّ بذلك لقومه وأد البنات، وأخذتها بقية القبائل.

وقد سأل النبيّ ﷺ قيساً عن عدد البنات اللائي وأدهن في الجاهلية فقال: اثنتا عشرة بنتاً له، بل قيل أكثر من ذلك!!

وروى عن ابن عباس، أنّ الحامل إذا قربت ولادتها حفرت حفرةً فمخضت رأسها فإذا ولدت بنتاً رمت بها في الحفرة، وإذا كان ولداً حبسته!!

موقف النبي ﷺ من الخرافات التي سادت الجزيرة العربية

كافَح الرسول ﷺ الخرافات والأساطير والأفكار الفاسدة الباطلة، فلمّا مات

إبراهيم ابنه ﷺحزن عليه و بكى بشدّة، في الوقت الذي حدث كسوف للشمس، فذهب المولعون بالخرافات على عادتهم إلى ربط هذه الظاهرة بموت إبراهيم، على أنّه دليل على عظمة المصاب، فقالوا: انكسَفَت الشمس لموت إبراهيم ابنِ رسول الله ﷺ، إلاّ أنّه ﷺصعد المنبر فقال: «أيّها النّاس إنّ الشمسَ والقمر آيتان من آيات الله يَجريان بأمره ومطيعان له لا ينكسفان لموتِ أحد ولا لحياته، فإذا انكسفا أو أحدهما صلّوا».

ثمّ نزل فصلّى صلاة الكسوف وهي صلاة الآيات.[1]

الحالة الاجتماعية في إيران الساسانية

يذكر الشاعر الفارسي: الفردوسي قصة وقعت في العهد الذهبي للدولة الساسانية، تتناول التعليم، وخاصّة ما يتعلّق بتعليم الفقراء و حرمانهم من اكتساب الثقافة، فقد وصل الحال السيّء للدولة أن رغبت في أموال كثيرة تكفي نفقات الحروب المستمرة، لإعداد ٣٠٠ ألف مقاتل، فاستدعى الملك أنوشروان وزيره بزرجمهر يطلب مساعدته في توفير المال اللازم، فاقترح عليه بتحصيلها عن طريق القروض الشعبية، فأرسل مندوبيه إلى المدن الإيرانية لتحصيل المال اللازم من التجار وأصحاب الثروة، وظهر من بينهم رجل حذّاء أبدى استعداده لتحمّل نفقات الجيش بمفرده، بشرط السماح لولده بتحصيل العلم، إلاّ أنّ الملك غضب على الوزير ونهره قائلاً: دع هذا، ما أسوأ ما تطلبه، إنّ هذا لا يكون، لأنّ ابن الحذّاء بخروجه من وضعه الطبقي يهدم التقليد الطبقي المتّبع فينفرط عقد الدولة، ويكون ضررُ هذا المال علينا أكثر من نفعه، وشرّه أكثر من خيره.

---

١. بحار الأنوار: ٩١/ ١٥٥.

ويستمر الفردوسي في شرحه لهذا الوضع عن لسان أنوشروان: إذا أصبح ابن الحذّاء عالماً وكاتباً، فإنّه عندما يجلس ولدُنا في الحكم واحتاج إلى كاتب فإنّه سيضطر إلى تعيين ذلك الولد، وهو من عامة الشعب ومن أبناء الطبقة الدنيا، في حين جرت العادة أن نستعين بأبناء الأشراف والنبلاء. وإذا حصل هذا الحذّاء على العلم والمعرفة حصل على عيون بصيرة، وآذان سميعة، فيرى ما يجب ألاّ يراه،ويسمع ما يجب ألاّ يسمعه، فتحدث الحسرة والأسف لأبناء الملوك بعدئذ!!

وبذا فإنّ الملك رفَضَ طلبه وأعاد ماله إليه. وهذا الملك هو ما يصفه البعض بالعدل «أنوشروان العادل» مع أنّه لم يحل المشكلة الثقافية في مجتمعه، كما ذكر عنه، أنّه دفن في القبور أحياء ما يقرب من ٨٠ ألفاً ومائة ألف فرد، خلال فتنة مزدك، التي اندلعت بسبب الظلم الاجتماعي والتمايز الطبقي واحتكار الثروات والمناصب، وحرمان أكثرية الشعب من حقوقها الأوّلية.

ومن هنا يظهر بطلان الحديث المروي عن النبي ﷺ:«وُلدتُ في زمن الملك العادل أنو شروان».

وقد ذُكر الكثير عن البذخ والترف في البلاط الساساني، من كثرة المجوهرات والأشياء الثمينة والرسوم، سَحرت العيون وخلبت الألباب. وممّا اشتهر منها، سجادة بيضاء كبيرة فرشت في إحدى الصالات، واسمها: بهارستان كسرى، إذاجلسوا عليها وقت الشراب وتعاطي الخمر، فكأنّهم كانوا جالسين في حدائق ورياض. صنعت أرضيتها من الذهب و وشيها بفصوص وجواهر وحرير، وكانت ٦٠×٦٠ ذراعاً، وقيل ١٥٠×٧٠ ذراعاً، ومنسوجة من خيوط الذهب والمجوهرات الغالية!!

وممّا قيل عن كسرى خسرو برويز، أنّه جمع الأموال مالم يجمع مثله من

الملوك، إذ كان أرغب الناس في اقتناء الجواهر واللآلئ و الأواني.

حفر زمزم

نَزَلت عندها قبيلة جُرهم التي رأست مكّة لسنين طويلة، وتستفيد من مياه العين. إلاّ أنّه بعد تفشي المفاسد والشهوات فقد جفّت العين. وعندما هددت خزاعة جرهم، أمر زعيمهم بإلقاء الغزالين الذهبين والسيوف الغالية المهداة إلى الكعبة، في مقر زمزم و ملئها بالتراب، حتى لا يستولي عليها خصومُه، ومتى عاد إلى مكّة استخرج الكنز واستفاد منه. إلاّ أنّ قتالاً نشب بين الطرفين، فاضطرت جرهم وأبناء إسماعيل مغادرة مكة إلى اليمن دون الرجوع إليها ثانية، فتزعم مكة: خزاعة، ثمّ سيطر عليها قصيّ بن كلاب، حتى عبد المطلب الذي ترأسها وقرر حفر بئر زمزم، التي لم يُعرَف موقعها إلاّ بعد بحث طويل، كما أنّ الآخرين رَفَضوا انفراده بالحفر، طالبين الاشتراك معه في ذلك، ليحصلوا على الفَخر مثله فقالوا: إنّها بئر أبينا إسماعيل، وإنّ لنا فيها حقّاً فأشركنا معك، إلاّ أنّ عبد المطلب أصر على أن ينفرد في ذلك، حتى يمكنه بعد ذلك أن يسبّل ماءها فيسقي منها جميع الحجاج دون أن يتاجر بها.

ولما طال النزاع بينهم قرروا التحاكم إلى كاهن من العرب سكن ما بين الحجاز والشام. وفي الطريق أصابهم عطشٌ شديدٌ وأيقنوا بالهلاك، ففكروا في كيفية دفنهم إذا هَلكوا وماتوا، فاقترح عبد المطلب أن يحفر كلّ واحد حفيرته، فإذا مات دفنهُ الآخرون، فلا تبقى أجسادُهم طعمة للوحوش والطيور. فقاموا بذلك وانتظروا الموت. إلاّ أنّ عبد المطلب صاح فجأة يحثهم على البحث عن الماء في الصحراء بصورة جماعية، ممّا كان له الأثر في ظهور عين عذبة أنقذتهم من الموت المحقق، فعادوا من حيث جاءوا وقالوا لعبد المطلب:

«والله قضى لك علينا يا عبد المطلب، والله لا نخاصمك في زمزم أبداً، إنّ الذي سقاك هذا الماء بهذه الفلاة لهو الذي سقاك زمزم، فارجع إلى سقايتك راشداً».

وخلال الحفر عثر على الغزالين والسيوف المرصَّعة، ممّا سبّب نزاعاً آخر بينه و بين قريش، التي اعتبرت نفسها شريكةً في هذا الكنز. فتقرر اللجوءُ إلى القرعة لحلّ المشكلة، فخرجت القرعةُ باسم عبد المطلب، فأصبَحت الأشياء إليه، فصنع من السيوف باباً للكعبة، وعلّق الغزالين فيها.

الوفاء بالعهد والنذر[1]

نذر عبد المطلب إذا رزقه الله عشرة أولاد، أن يقدّم أحدهم قرباناً للكعبة دون أن يخبر أحداً بذلك، وقد حصل ما أراد، فكان لابدّ من الوفاء بالنذر، فشاور أبناءَه بالأمر فوافَقوا على أن يختار أحدَهم للذبح عن طريق القرعة. وتمت القرعة فأصابت عبد الله والد الرسول الأكرم ﷺ فأخذه إلى مكان الذبح. و حينما علمت قريش بذلك، حَزِنوا وبكوا وخاصة الشباب منهم، فاقترحوا أن يفدى عبدالله، وأظهروا استعدادهم لدفع الفدية إذا جاز لك. وبعد أن تحيّر في هذا الموقف الصعب، اقترح عليه أحدُهم: لا تفعل وانطلق إلى أحد كهنة العرب عسى أن يجد لك حلاً. فوافقوا على ذلك. فتوجهوا نحو يثرب لملاقاة الكاهن الذي سألهم: كم ديةُ المرء عندكم؟ قالوا: عشرة من الإبل. فقال: ارجعوا إلى بلادكم وقرّبوا عشراً من الإبلِ واضربوا عليها وعلى صاحبكم ــ أي عبد الله ـ القداح، فإن خرجتِ

---

١. القصة جديرة بالاهتمام، في أنّها تجسد مدى إيمان عبد المطلب وقوة عزمه وصلابة إرادته وإصراره على الوفاء بعهده والالتزام به.

القرعة على صاحبكم فزيدوا عشراً حتى يرضى ربكم، وإن خرجت على الإبل، فانحروها فقد رضى ربّكم ونجا صاحبكم وكانت عنه فداءً.

فأجروا القرعةَ في مكّة في جماعة من الناس،وزادوا عشراً عشراًحتى إذا بَلَغَ عدد الإبل مائة خرجت القِداح على الإبل ونجا عبد الله من الذبح، ففرحوا ونحرت الإبل.[1]

قضايا عجيبة في فترة طفولة النبي ﷺ

أرادت حليمة السعدية أن ترضع النبي ﷺ في حضور أُمّه، ففتحت جيبها وأخرجت ثديها الأيسر، ووضعت الرسول ﷺ في حجرها لترضعه، فترك النبي ﷺ ثديها الأيسر ومال إلى الثدي الأيمن الذي كان جهاماً ـ أي خالياً من اللبن و لم يكن يدرّ به ـ فغيّرت الثدي إلى فمه، خوفاً من ألا يجد فيه النبي ﷺ شيئاً فلا يأخذ بعده الأيسر، ولكن النبي ﷺ أصرّ على مصّ الثدي الأيمن، ولما استلمه امتلأ وانفتح، فأدهش الجميع.

وتذكر حليمة أيضاً تلك البركة التي لحقتها وقومها بسبب النبي ﷺ قائلة: إنّ البوادي أجدبت وحملنا الجهد على دخول البلد، فدخلتُ مكّة مع نساء بني سعد، فأخذتُ رسول الله ﷺ فعرفنا به البركة والزيادة فى معاشنا حتى أثرينا وكثرت مواشينا وأموالنا.

وقد احترمها النبي ﷺ وأجلّها بعد سنوات عندما كبر، وحينما قدمت إليه في سنوات الجدب والقحط تزوره، احترمها وأكرمها وفَرَش رداءه تحت قدميها،

---

١. نقل عن النبي ﷺ قوله:« أنا ابن الذبيحين». الأوّل: إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام، والثاني: أبوه. بحار الأنوار: ١٢/ ١٢٣.

واصغى لها.

ولما شكت حالها وهلاك مواشيها، طلب ﷺ من السيدة خديجة عليها السلام أن تعطيها بعيراً و ٤٠ شاة، فانصرفت مسرورةً.

وقيل، أنّها جاءته مرّة فلما دخلت عليه قال ﷺ: «أُمّي أُمّي».[١]

رأي قريش في القرآن

كان القرآن من أكبر وأقوى أسلحة النبي ﷺ في إخضاع أساتذة الفصاحة والبلاغة أمام حلاوة كلماته وعباراته القوية، فاعترفوا بأنّ حديثه لم يعرفه البشرُ من قبل ولم يعهد له التاريخ الإنساني نظيراً. وربما أدت جاذبيته وتأثير حديثه إلى انهيار قوّة الأعداء. ومن تلك النماذج:

الوليد بن المغيرة، الذي كانت العرب ترجع إليه في حلّ مشكلاتهم، فطلبوا رأيه في حلّ مشكلة قوّة انتشار الإسلام، والقرآن، هل هو سحرٌ أم كهانةٌ أم حديث إنسان؟ فجاء إلى النبي ﷺ وقال: أنشدني شعرك. فقال ﷺ: «ما هو بشعرٍ ولكنّه كلام الله الذي بعث أنبياءه ورسله». وقرأ عليه سورة «الرحمن» فاستهزأ وقال: تدعو إلى رجل باليمامة يسمى الرحمان. قال ﷺ: «لا ولكنّي أدعوا إلى الله وحده الرحمن الرحيم». ثمّ افتتح سورة حم السجدة وبلغ إلى قوله تعالى: ﴿**فَإِنْ أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود**﴾ فاقشعر جلدُه ، وقامت كلّ شعرة في رأسه ولحيته، فمضى إلى بيته ولم يرجع إلى قريش.

فقالت قريش: يا أبا الحكم صبا أبو عبد شمس إلى دين محمّد، أما تراه لم يرجع إلينا و قبل قوله ومضى إلى منزله. فاغتمت قريش وسار إليه أبوجهل قائلاً:

---

١. وتنسب حليمة إلى سعد بن بكر بن هوازن. وهي ابنة أبي ذؤيب،وزوجها الحارث بن عبد العزى.

يا عمّ نكسّت رؤسَنا وفضحتنا، صبوتَ إلى دين محمّد؟ فقال: ما صبوتُ وإنّي على دين قومي وآبائي، ولكنّي سمعت كلاماً صعباً تقشعرّ منه الجلود. فقال أبو جهل: أشعرٌ هو؟

ـ ما هو بشعر.

ـ فخطب هي؟

ـ لا و إن الخُطَب كلام متصل. وهذا الكلام منثورٌ لا يشبه بعضه بعضاً... له حلاوة.

ـ فما هو؟ قال: قولوا، هوسحر فإنّه آخذ بقلوب الناس.

فأنزل الله سبحانه و تعالى فيه: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً...﴾.[1]

كما حاول عتبة بن ربيعة وهو من كبراء قريش وأشرافها أن يثني النبي ﷺ عن الجهر بدينه، فكلّمه وطمّعه في المال و الجاه والشرف، فأسمعه ﷺ آياتٍ من سورة فصّلت: ﴿بِسمِ اللهِ الرَّحمنِ الرّحيم: حٰم* تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ* كِتابٌ فُصِّلَت آياتُهُ قُرآناً عَربيّاً لِقَومٍ يَعْلَمُونَ* بَشيراً وَنَذِيراً فَأَعرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لا يَسْمَعُون* وَقالُوا قُلُوبُنا في أَكِنَّةٍ مِمّا تَدْعُونا إليه﴾[2]. فسمع وبقي صامتاً حتى انتهى النبي ﷺ، فقام إلى أصحابه وقد تغيّرت ملامحه، فقال بعضهم: نحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به.

فقالوا: ما وراءك يا أبا الوليد؟ قال: سمعتُ قولاً والله ما سمعتُ مثله قط. والله ما هو بالشعر ولا بالسحر ولا بالكهانة. يا معشر قريش أطيعوني واجعلوها بي وخلوّا بين هذا الرجل و بين ما هو فيه فاعتزلوه، فوالله ليكوننّ لقوله هذا الذي

---

١. المدثر: ١١ـ٣٠.

٢. فصّلت: ١ـ٥.

سمعت نبأ عظيم. فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم. وإن يَظهر على العرب فملكه ملككم وعزّه عزّكم وكنتم أسعد الناس به.

فانزعجوا وقالوا: سَحَرَكَ والله بلسانه. فقال: هذا رأيي فاصنعوا ما بدا لكم.

لماذا عارضت قريش النبي ﷺ وعاندته؟

١. حسدهم للنبي ﷺ، فقد تمنّوا أن يكونوا هم أصحاب هذا المنصب والمنزلة، إذ جاء في تفسير قوله تعالى: ﴿وقالُوا لَولا نُزِّلَ هذا القُرآنُ علىٰ رَجُلٍ مِنَ القَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾[١] أنّه: الوليد بن المغيرة، الذي قال: أينزلُ على محمّد وأترك وأنا كبير قريش و سيدها، ويترك أبو مسعود عمرو بن عمير الثقفي سيد ثقيف، ونحن عظيما القريتين.

وكذلك أُمّية بن أبي الصلت قال نفس الشيء وتمنّى أن ينال هذا المقام، فلم يتبع النبيّ ﷺ إلى آخر حياته.

٢. انغماسهم وحبّهم للشهوات، حيث كانوا أصحاب لَعْب ولهوٍ وفسق ومُجون، دون أن يقيّدهم في ذلك أيّ أمر، ممّا جعل دعوة النبي ﷺ مخالفة لعاداتهم القديمة.

٣. الخوف من عقوبات اليوم الآخر، إذ كانت تحدث ضجةٌ كبرى في أوساطهم، فيهدم مجالسَ لهوهم وأنسهم، فحاربوه حتى لا يسمعوا تهديده ووعيده، كالآيات:

﴿فَإِذا جاءَتِ الصّاخَّةُ* يوم يَفِرُّ المَرءُ مِنْ أَخِيهِ* وَأُمِّهِ وَأَبِيه* وصاحِبَتِهِ

---

١. الزخرف:٣١.

وَبَنيه* لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَومَئِذٍ شَأْنٌ يُغنِيه﴾ .

٤. الخوف من القبائل المشركة، فقد ذكر «الحارث بن نوفل بن عبد مناف» للرسول ﷺ إنّا لنعلم أنّ قولك حق، ولكن يمنعنا أن نتبع الهدى ونؤمن بك مخافة أن يتخطفنا العرب من أرضنا، إن تركنا الوثنية التي تدين بها، ويعتبروننا سدنة لأوثانها، ولا طاقة لنا بها.

عبس و تولّى

رأى النبي ﷺ أنّ إسلام أحد الزعماء وكبار القوم يحل الكثير من المشاكل، ممّا جعله يصرّ على أن يجر الوليد بن المغيرة والد خالد، إلى الإسلام، إذ كان أكبر سناً في قريش، وأكثرهم نفوذاً وشخصية، حيث دُعي حكيم العرب. فكلّمه النبي ﷺ ذات يوم طامعاً في إسلامه، وفي الأثناء جاء ابنُ أُمّ مكتوم وهو رجل من المسلمين وكان أعمى يكلّم الرسول ﷺ ويستقرئه القرآن، فشقّ ذلك منه على رسول الله ﷺ حتى أضجره، لأنّه شغله عمّا كان فيه من أمر الوليد وما طمع فيه من إسلامه، فلما أكثر عليه انصرف عنه عابساً وتركه، فنزل قوله تعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلّى* أَنْ جاءَهُ الأَعْمى ... ﴾ .

إلاّ أنّ علماء الشيعة فنّدوا هذه الرواية التاريخية واستبعدوا صدور مثل هذا السلوك عن الرسول ﷺ الذي امتدحه الله سبحانه وتعالى في القرآن الكريم، وأنّه ليس فيه ما يدل أنّ الذي عبس و تولّى هو الرسول ﷺ. وقد روى الإمام الصادق عليه السلام أنّ المراد به رجل من بني أُميّة عبس و تولّى، عندما حضر ابن أُمّ

---

١. عبس: ٣٣ـ٣٧.

مكتوم الأعمى، عند النبي ﷺ فنزلت الآيات توبيخاً له.

أُسطورة الغرانيق

قيل إنّ الأسود بن المطلب، والوليد بن المغيرة، وأُميّة بن خلف، والعاص ابن وائل، قالوا للرسول ﷺ: يا محمّد هلمّ فلنعبد ما تعبد وتعبد ما نعبد فنشترك نحن و أنت في الأمر. فأنزل الله تعالى: ﴿لا أَعْبُدُ ما تَعْبُدُونَ * وَلا أَنْتُمْ عابِدُونَ ما أَعْبُدُ﴾.[1]

ومع ذلك فإنّ النبي ﷺ رغب في أن يساوم قريشاً ويجاريهم، فقال في نفسه: ليت نزل في ذلك أمرٌ يقرّبنا من قريش. وبينما كان ﷺ يتلوا القرآن في الكعبة، فبلغ قوله تعالى من سورة النجم: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللاّتَ وَالعُزّى * وَمَناةَ الثّالِثَةَ الأُخرىٰ﴾[2] أجرى الشيطان على لسانه الجملتين الآتيتين: «تلك الغرانيق العُلى منها الشفاعة تُرتَجى». فقرأهما من دون اختيار، ثمّ قرأ بعدها من الآيات. ولما بلغ آية السجدة، سَجَد هو و من حضر من المسلمين و المشركين أمام الأصنام، إلاّ الوليد الذي عاقه كِبَرُ سنّه عن السجود، ففرح المشركون وارتفعت صيحاتهم: لقد ذَكَر محمّد آلهتنا بخير. فانتشر الخبر بالتقارب والمصالحة بين الرسول ﷺ والمشركين، ولكنّهم عرفوا بأنّ الأمر تغيّر ثانية، حيث نزل مَلَكُ الوحي على النبي ﷺ وأمره بمخالفة الأصنام ومجاهدة الكفّار، وأنّ الشيطان هو الذي أجرى تلك الكلمات على لسانه، فهي ليس من الوحي في شيء أبداً. فنزلت الآيات في ذلك من سورة الحجّ ٥٢ـ ٥٤: ﴿وَما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلا نَبِيٍّ إِلاّ إِذا تَمَنّىٰ أَلْقَى الشَّيْطانُ في أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللهُ ما يُلْقِي الشَّيْطانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللهُ آياتِهِ وَاللهُ عَليمٌ حَكيمٌ ... ﴾.

---

١. الكافرون: ٢ ـ ٣.
٢. النجم: ١٩ ـ ٢٠.

هذه الأُسطورة نقلها الطبري في تاريخه، وردّدها المستشرقون، وهي باطلة تماماً، فالعقل يحكم بأنّ المرشدين الذين يبعثهم الله تعالى إلى البشرية، مصونون من أي خطأ وزلل، حتى لا تزول ثقة الناس بهم وبأفكارهم. والقرآن شهد ببطلانها أيضاً فكيف تمكّن الشيطانُ من الانتصار على النبيّ ﷺ وسرّب إلى القرآن شيئاً باطلاً؟ فيصبح القرآن الذي يعادي الوثنيةويحاربها، داعياً إلى عبادتها. والقرآن يؤكّد: ﴿إنّ عِبادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطان﴾[1]، ﴿إِنَّه لَيْسَ لَهُ سُلْطانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾.[2]

ولذا فإنّ الحديث باطل لم ينطق به النبي ﷺ.

لمحات من تضحيات وحبّ أبي طالب للنبيﷺ

اجتمع أسيادُ قريش وأشرافها في بيت أبي طالب للتحدّث عن رسول الله ﷺ الذي كان متواجداً معهم، وعن دينه والمشكلات السائدة في مكة، ومحاولة إبعاد النبي ﷺعن دعوته، ولكنّهم ينسوا في الحصول على أيّة نتيجة مرضية، فتركوا بيت أبي طالب غاضبين مهددين، وقال عقبة بن أبي معيط: لا نعود إليه أبداً، وما خير من أن نغتال محمّداً.

فَغَضِبَ أبو طالب دون أن يرد عليهم بشيء لأنّهم كانوا في بيته. وحدث أنّ النبيﷺخرج من بيته في نفس اليوم ولم يعد، فجمع أبو طالب الفتيان من بني هاشم و بني المطلب، وطلب منهم أن يتبعوه إلى المسجد، ويجلس كلُّ واحد منهم إلى عظيم من عظمائهم. فجاء زيد بن حارثة وسأله أبو طالب: يا زيد

---

١. الحجر:٤٢.
٢. النحل:٩٩.

أحسستَ ابن أخي؟ قال: نعم كنت معه آنفاً. فقال أبو طالب :لا أدخلُ بيتي أبداً حتى أراه. فخرج زيد سريعاً إلى بيت عند الصفا فيه النبي ﷺ مع أصحابه وأخبره، فجاء النبي ﷺ إلى أبي طالب، فقال له: أين كنت؟ أكنتَ في خير؟ قال: «نعم». قال: أدخل بيتك.

وفي الغد خرج أبو طالب ومعه النبي ﷺ إلى أندية قريش و قال: يا معشر قريش هل تدرون ما هممت به؟ قالوا: لا. فقال للفتيان من بني هاشم و بني المطلب: إكشفوا عمّا في أيديكم. فكشفوا فإذا كلُّ رجل منهم معه حديدة صارمة. فقال: والله لو قتلتموه ما بقّيت منكم أحداً حتى نتفانى نحن و أنتم. فانكسر القوم، و كان أبو جهل أشدّهم انكساراً وخيبة.

تخطيط النبي ﷺ العسكري يوم بدر

يُعتبر الحصول على المعلومات حول العدو، ومعرفة أسراره العسكرية ومدى استعدادته، ومبلغ قوته، ودرجة معنويات أفراده، على أمر من الأهمية و القيمة، عسكرياً، منذ القدم وحتى اليوم. ولذا فإنّ الجيش الإسلامي استقر في منطقة لاءمت مبادئ التستر ومنع أي عمل من شأنه كشف أسراره، كما أنّه ﷺ كلف فرقاً مختلفة بتحصيل وجمع المعلومات عن قريش وأفراد جيشها، حتى توفر لدى القيادة الإسلامية من المعلومات، كان أهمها:

ـ معرفة نقطة تواجد قريش ومكان قاعدتهم. فقد سأل النبي ﷺ بنفسه، وأحد قواده، شيخاً من العرب عن قريش و محمّد وأصحابه، فقال: إنّ محمّداً وأصحابه خرجوا يوم كذا، فهم الآن بمكان كذا، وكذلك بالنسبة لقريش.

ـ معلومات عن أعدادهم وعتادهم، فقد أرسل ﷺ الإمام علياً عليه السلام والزبير

ابن العوام و سعد بن أبي وقاص إلى ماء بدر لالتماس الأخبار، فقبضوا على غلامين وأحضروهما إلى النبي ﷺ الذي سألهما عن قريش، فقالا: هم و الله وراء هذا الكثيب الذي ترى بالعدوة القصوى.

فقال النبي ﷺ «كم القوم وعدّتهم؟» فقالا: لا ندري، هم كثير. فقال ﷺ: كم ينحرون كلّ يوم من الإبل؟ قالا: يوماً تسعاً ويوماً عشراً. فقال ﷺ: « القوم فيما بين التسعمائة والألف. فمن فيهم من أشراف قريش؟» قالا: عتبة بن ربيعة، وأبو البختري بن هشام، وحكيم بن حزام، وشيبة بن ربيعة، وأبو جهل بن هشام، وأُميّة بن خلف. فقال ﷺ لأصحابه: «هذه مكّة قد ألقت إليكم أفلاذ كبدها».

ـ معلومات حول القافلة، حيث كلّف ﷺ شخصين بالتوجه إلى قرية بدر لتقصّي الحقائق عن قافلة قريش. فسمعا عند الماء جاريتين تقول إحداهما للأُخرى: إنّما تأتي القافلة غداً أو بعد غد، فأعملُ لهم ثمّ أقضيك الذي لك. فقال لها مجدي بن عمرو الجهني: صدقت. ثمّ خلص بينهما.

فعاد الاثنان إلى النبي ﷺ وأخبراه بما سمعا. فعرف ﷺ بذلك وقت ورود القافلة ومكان تواجدهم، ممّا مكّنه من الإعداد والترتيب لملاقاتهم.

وعندما وصل أبو سفيان إلى بدر وسأل مجدي بن عمرو عن محمد ورجاله، أجابه: ما رأيت أحداً أُنكرُه، إلاّ أنّي قد رأيت راكبين قد أناخا إلى هذا التل ثمّ استقيا ثمّ انطلقا. فأخذ أبو سفيان من أبعار بعيريهما ففتّه فإذا فيه النوى، فقال: هذه والله علائف يثرب، هذه عيون محمّد وأصحابه، ما أرى القوم إلاّ قريباً.

فرجع إلى أصحابه، واتّخذ جهة ساحل البحر الأحمر، مبتعداً عن بدر.

من أحداث معركة أُحد

١. نفقات الحرب

تحمّل أسياد قريش نفقات المعركة، من اقتراح قدمه «صفوان بن أُميّة» و «عكرمة بن أبي جهل» إلى أبي سفيان بأن يدفع كلّ واحد منهم مبلغاً من المال قائلين: يا معشر قريش، إنّ محمّداً قد وَتَرَكم، وقتل خياركم، فأعينونا بهذا المال على حربه، فلعلنا ندرك منه ثأرنا بمن أصاب منّا.

وقد أوضح القرآن الكريم موقفهم هذا بقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ فَسَيُنْفِقونَها ثُمَّ تَكُون عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُون وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُون﴾.[1]

٢. مشاركة النساء في الحرب

فقد شاركت نساء مكّة الوثنيات مع الرجال في هذه المعركة على خلاف عادة العرب، وذلك حتى يحرّضن الرجال على القتال و الصمود، ويمنعن المقاتلين من الفرار و الهروب، لأنّ الفرار يعني أسرهن، ويشعلن الحماس في النفوس بدق الدفوف، وإنشاد الأشعار المثيرة الداعية إلى الثار.

٣. إثارتهم للنبي ﷺ

حاول عدد من أفراد قريش، القيام بنبش قبر أُمّ محمّد ﷺ: آمنة بنت وهب، قائلاً: فإنّ النساء عورة، فإن يصب من نسائكم أحد قلتم هذه رمّة أُمّك، فإن كان

---

١. الأنفال: ٣٦.

براً بـأُمّه كما يزعم فلعمـري ليفادينكم بـرّمة أُمّه، وإن لم يظفـر بأحد من نسـائكم فلعمري فليفدين رمة أُمّه بمال كثير إن كان بها براً.

إلاّ أنّ أهل الـرأي منهم رفض الاقتراح وقـالوا: لـو فَعَلنا ذلك، نبشـت بنو بكر وخزاعة ـ و هم أعداء قريش ـ موتانا.

٤. إطلاق الشعارات

تصبح مسـألة بث الـدعاية السيئـة وزرعها في النفوس واستثمارهـا، سهلة ومؤثرة في الإنسان عند الهزائم و إصابة النكبات، فتصبح أكثر تقبلاً وأيسر تأثيراً.

ولذا فإنّ أبا سفيـان أمر برفع الأصنام والمناداة بأعلى الأصـوات، بعد معركة أُحد: أُعـلُ هبل، أُعل هبل. فـأدرك النبي ﷺ عمق الخطـورة من هـذا الأسلوب المؤثر في النفوس، فـأمر المسلمين بالإجابـة على ذلك بشعار مضاد قـوي، فقال : «قولوا: الله أعلى وأجـل، الله أعلى وأجل». فاستمر أبو سفيان في إطـلاق شعاراته المزيفة: نحن لنا العزى ولا عُزى لكم. فردّ النبي ﷺ عليهم: «الله مولانا ولا مولى لكم». فنادى المشركون: يومٌ بيوم بدر. فأجاب المسلمون: لا سواء، قتلانا في الجنة، وقتلاكم في النار.

٥. عن أُميّة النبي ﷺ

روى العلاّمة المجلسي عـن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قـال: كان ممّـا منّ الله عزّ وجلّ على رسوله ﷺ أنّه كان لا يقرأ ولا يكتب، إلاّ انّه عنـدما توجه أبو سفيان إلى أُحد، كتب العباس بن عبد المطلب إلى النبي ﷺ يخبره بذلك، فوصله الكتاب

وهو في بعض حيطان المدينة، فقرأه ولم يخبر أصحابه، وأمرهم أن يدخلوا المدينة فأخبرهم عندئذ.[١]

٦. التضحية والفداء في سبيل الله

وخير من مثلها في معركة أُحد:

*عمرو بن الجموح: كان شيخاً أعرجاً أصيب في رجله، وله من الأولاد أربعة يشهدون المشاهد مع النبي ﷺ فأراد الاشتراك في أُحد، ولكنّهم منعوه، فأتى الرسول ﷺ وقال له: إنّ بنيّ يريدون أن يحبسوني عن هذا الوجه والخروج معك فيه، فوالله إنيّ لأرجو أن أطأ بعرجتي هذه في الجنة. فقال النبي ﷺ: «أمّا أنت فقد عَذَرك الله ولا جهاد عليك». ثمّ توجّه إلى أبنائه وقومه: «لا عليكم ألا تمنعوه، لعلّ الله يرزقه الشهادة». فخرج وهو يقول: اللّهم ارزقني الشهادة ولا تردّني إلى أهلي. وقد حمل على الأعداء وهو يقول: أنا والله مشتاق إلى الجنّة. فاستشهد في المعركة.

* الشاب حنظلة بن أبي عامر: كان له من العمر ٢٤ عاماً، واشترك أبوه في أُحد إلى جانب قريش، حيث كان عدواً للنبي ﷺ يحرّض على قتاله، ومعاداة الإسلام، فهو السبب لما حدث في مسجد ضرار. فكان على الباطل، إلاّ أنّ ابنه حنظلة اتّخذ جانب الحقّ مع النبي ﷺ. وفي يوم المعركة، كان قد أعدّ للزواج بابنة عبد الله بن أبي سلول و يقيم مراسيم الزفاف والعرس في ليلة الخروج إلى أُحد، ولكنّه سمع نداء الجهاد فاستأذن الرسول ﷺ ليتوقف في المدينة ليلة واحدة حتى يجري مراسيم العرس و يقيم عند عروسته، ثمّ يلتحق بالمعسكر الإسلامي في الصباح. وقد نزل في ذلك قوله: ﴿إِنَّما الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَإِذا

---

١. بحار الأنوار: ٢٠/ ١١١.

كانُوا مَعَهُ عَلىٰ أَمْرٍ جامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتّى يَسْتأذِنُوه إِنَّ الّذينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولٰئِكَ الّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَرَسُولِهِ فَإِذا استَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لمن شِئْت مِنْهُمْ﴾.[1]

وخلال المعارك، استشهد وهو يطارد أبا سفيان، فقال النبي ﷺ: رأيت الملائكة تغسل حنظلة بين السماء والأرض بماء المزن في صحائف من ذهب. فكان يسمّى غسيل الملائكة أو حنظلة الغسيل، ذلك أنّه خرج إلى الحرب وهو جنب.

وكانت الأوس تعتبره من مفاخرها فتقول: ومنّا حنظلة غسيل الملائكة.

أمّا أبو سفيان فقال: حنظلة بحنظلة. ويقصد حنظلة الغسيل بحنظلة ابنه الذي قتل يوم بدر.

والأمر الغريب هنا، إنّ العروسين كانا مؤمنين متفانيين في سبيل الحقّ، في مقابل والدين من أعداء الرسول ﷺ، فعبد الله بن أبي سلول والد العروس كان على رأس المنافقين، وأبو عامر الفاسق والد العريس، سمّي في الجاهلية بالراهب لعدائه الشديد للنبي ﷺ والتحق بالمشركين في مكّة، وحرض هرقل على ضرب الحكومة الإسلامية، وقتل الكثير من المسلمين في أُحد. إلاّ أنّه عندما التقى المعسكران نادى أبو عامر: يا معشر الأوس أنا أبو عامر، فقد تخيل أنّهم سيتركون نصرة النبي ﷺ إذا شاهدوه، ولكنّهم ردّوا عليه: فلا أنعم الله بك عيناً يا فاسق. فتركهم واعتزل الحرب بعد حين.

* أُمّ عمارة

تحدّثت النساء إلى الرسول الكريم ﷺ بشأن اشتراكهن في الجهاد: يا

---

١. النور: ٦٢.

رسول الله نحن نقوم بكلّ ما يحتاج إليه الرجال في حياتهم ليجاهدوا ببال فارغ، فلم حُرِمنا نحن من هذه الفضيلة؟ فأجاب ﷺ: إنّ حُسْنَ التبعّل يعدل ذلك كلّه. مشيراً إلى الأسباب الطبيعية والعضوية للمرأة. إلاّ أنّ بعضهن خرجن من المدينة لمساعدة جنود الإسلام، في السقي وغسل ثيابهم وتضميد الجرحى. واشتهرت منهن في أُحد: أُمّ عمارة نسيبة المازنية: التي قاتلت دفاعاً عن الرسول ﷺ فجرحت، وقالت تشرح موقفها: أقبل ابن قميئة وقد ولّى الناس عن الرسول ﷺ يصيح: دلّوني على محمّد لانجوت إن نجا. فاعترض له مصعب بن عمير وآخرون، وكنت فيهم فضربني هذه الضربة. ولقد ضربته على ذلك عدّة ضربات، ولكنّه احتمى بدرعين كانا عليه. و كان النبي ﷺ ينظر إليّ، فرأى جرحاً على عاتقي، فصاح بأحد أولادي: «أُمّك أُمّك إعصب جرحها»، فعاونني عليه.

وعندما رأت ابنها وقد جرح أقبلت إليه ومعها عصائب أعدّتها للجراح فربطت جرحه، والنبي ﷺ ينظر، فقالت لولدها: انهض يا بني فضارب القوم. ممّا أعجب رسول الله ﷺ باستقامتها وثباتها و إيمانها فقال: «ومن يطيق ما تطيقين يا أُمّ عمارة».

وفي هذه الأثناء أقبل الرجل الذي ضرب ولدها فقال النبي ﷺ هذا ضارب ابنك. فحملت عليه كالأسد وضربت ساقه فبرك. ممّا ازداد من إعجاب النبي ﷺ بشجاعتها وبسالتها فتبسم وقال: «استقدت يا أُمّ عمارة، الحمد لله الذي ظفّرك وأقرّ عينك من عدوك».

وبعد المعركة طلبت الانضمام إلى جيش المسلمين الذي سار إلى حمراء الأسد، ولكن جراحها منعتها من تأدية الغرض، وبعد رجوع النبي ﷺ سأل عنها فسرّ لسلامتها.

من أحداث غزوة تبوك

١. قصّة مالك بن قيس

أبو خيثمة: رجع إلى أهله في يوم حار فوجد أنّ المسلمين قد غادروا مع الرسول ﷺ إلى تبوك، فدخل عريشاً له،وجد أنّ زوجتيه قد جهّزتا كلّ ما يحتاج إليه من طعام وماء، فنظر إليهما وفكّر ما فيه الرسول ﷺ وأصحابه من حال سيّء، في أشدّ الحرارة وهم قاصدون جهاد العدو، فقال: رسول الله ﷺ في الشمس و الحر والريح، و أبو خيثمة في ظلّ بارد وطعام مهيأ وامرأةحسناء في ماله مقيم؟ ما هذا بالنصف. لا أدخل عريش واحدة منكما حتى ألحق بالرسول ﷺ والمجاهدين. فخرج طالباً الرسول ﷺ فأدركه حين نزل تبوك.

٢. تنبؤات الرسول الكريم ﷺ

عندما وصل جيش الإسلام إلى أرض ثمود وهم في الطريق إلى تبوك، غطى النبي ﷺ وجهه بثوبه واستحثّ راحلته، ليسرع في المرور على بيوتهم وأطلالهم، وقال لأصحابه: «لا تدخلوا بيوت الذين ظلموا إلّا وأنتم باكون، خوفاً أن يصيبكم مثل ما أصابهم». كما أنّه نهى عن شرب مائها أو التوضّؤ به للصلاة أو الطبخ. حتى شربوا من البئر التي شربت منها ناقة صالح النبي عليه السلام.

وفي تلك الليلة أمر النبي ﷺ أصحابه بأن يعقلوا آبالهم، ولا يخرج منهم أحد لوحده بل يخرج مع صاحبه، وذلك لمعرفة النبي ﷺ بأسرار الجو في تلك البقاع. ولما خرج أحدهم فريداً فاختنق لشدة الرياح، واحتملت رجلاً آخر فضربت به الجبل، انزعج ﷺ وقال: «ألم أنهكم أن لايخرج منكم أحد إلّا و معه

صاحبه».

وأصبح النـاس دون ماء فعطشـوا حتى كاد أن يقطـع رقابهم، لـدرجة أنّهم شربوا الماء مـن كروش إبلهـم بعد نحـرها. فـأرسل الله سبحـانه وتعـالى سحابـة أمطرت فارتوى الناس.

وحدث أن ضلّت ناقة النبي ﷺ ببعض الطريق، فخرج أصحابه في طلبها، فقال أحد المنـافقين: أليس محمّد يزعـم أنّه نبيّ ويخبركم عـن خبر السماء وهو لا يدري أين ناقتـه؟ فقال الرسول ﷺ: «إنّ رجلاً قـال: هذا محمّـد يخبركم أنّـه نبي ويزعم أنّـه يخبركم بأمر السماء وهو لا يـدري أين ناقته؟ وإنّي والله مـا أعلم إلّا ما علمني الله، وقد دلّني الله عليها،وهي في هـذا الوادي في شعب كذا، وقد حبَستْها شجرة بزمامها فانطلقوا حتى تأتوني بها». فذهب بعض الصحابةوأحضروها.

كما تنبّأ ﷺ بحياة أبي ذر و كيفية موته فقـال: «رحم الله أبا ذر يمشي وحده ويموت وحده ويبعث وحده». وقد تحقّقت نبوءته ﷺ بعد ٢٣ عاماً حينما نفي إلى الربذة في الشام، وتوفي هناك وحيداً إلّا من أهله.

مأساة الدعاة والمبلّغين

كان النبي ﷺ يبعث بمجموعات من المبلغين والدعاة إلى القبائل داعياً لهم إلى التوحيـد و إلى الديـن الإسلامـي، وقد تـألّف هـؤلاء من قـرّاء القرآن الكـريم والعارفين بالأحكام الإسلامية والتعاليم النبوية، أبدوا استعداداً تاماً لأداء مهامهم الصعبة حتى لو كلّفت حياتهم.

ومن القبائل التي تقدمت إلى النبي ﷺ تطلب إرسال عدد من هؤلاء الدعاة

: قبيلتا عضل والقارة: «إنّ فينا إسلاماً فاشياً، فابعث معنا نفراً من أصحابنا يُقْرِئوننا القرآن ويفقهوننا في الإسلام»، فتكونت جماعة منهم بقيادة: مرثد بن أبي مرثد الغَنوي، ساروا حتى وصلوا ماء الرجيع التي تقطن عنده قبيلة هذيل، فكشفوا عن نواياهم الشريرة بقتلهم والغدر بهم، إلاّ أنّ المبلغين استعدوا للقتال، فقال العدو: ما نريد قتالكم وما نريد إلاّ أن نصيب منكم من أهل مكة ثمناً، ولكم عهد الله وميثاقه لا نقتلكم. فردّ عليه أحدهم: إنّي نذرت أن لا أقبل جوار مشرك. أو قالوا: والله لا نقبل من مشرك عهداً ولا عقداً أبداً. ولذا فقد قاتلوا القوم قتال الأبطال فاستشهدوا إلاّ ثلاثة منهم: زيد بن دثنّة، خبيب بن عدي، وعبد الله بن طارق البلوي، إذ أنّهم استسلموا فأوثقوهم،ولكن عبد الله ندم على فعله فقاتلهم ثانية حتى قتل فدفن بمر الظهران. أمّا الآخران فباعوهما في مكّة، حيث اشترى صفوان بن أُميّة، زيد بن دثنّة وقتله ثأراً لأُبيه. فقام أوّل شيء بحبسه في الحديد، وكان يتهجد بالليل و يصوم النهار، ثمّ أخرجه إلى التنعيم ليصلبه على مرأى من الناس، فطلب أن يصلي ركعتين، ثمّ حملوه على الخشبة وقالوا له: يا زيد إرجع عن دينك المحدث واتّبع ديننا ونرسلك، فيقول: والله لا أفارق ديني أبداً.

فقال له أبو سفيان: أنشدك بالله يا زيد أيسرّك أنّ محمّداً في أيدينا مكانك وأنت في بيتك؟ فقال زيد بشجاعة: ما يسرني أنّ محمّداً أُشيك بشوكة وإنّي في بيتي وجالس في أهلي. فأثّرت كلماته في نفس«أبي سفيان» فقال: ما رأينا أصحاب رجل قطّ أشدّ حبّاً في أصحاب محمّد بمحمد. فصلبوه شهيداً دفاعاً عن العقيدة وحياض الدين.

أمّا خبيب فقد حبسوه فترة من الوقت ثمّ قرروا قتله صلباً أيضاً. فخرجوا به إلى التنعيم، وخرجت جماعة من النساء والصبيان و العبيد ومن أهل مكّة، فقال

لهم: إن رأيتم أن تدعوني حتى أركع ركعتين فافعلوا. فسمحوا له، ثمّ قال لهم: أما والله لولا أن تظنّوا أنّي إنّما طولت جزعاً من القتل لاستكثرت من الصلاة. فرفعوه على خشبة و قالوا: إرجع عن الإسلام نخلّ سبيلك. فقال: لا والله ما أحبّ إنّي رجعت عن الإسلام وأنّ لي ما في الأرض جميعاً. فقالوا له: أما واللات والعزى لئن لم تفعل لنقتلنك. فقال: إنّ قتلي في الله لقليل. ثمّ صرفوا وجهه عن القبلة ووجهوه نحو المدينة فقال: أمّا صرفكم وجهي عن القبلة فإنّ الله يقول: ﴿فَأَيْنَما تُوَلّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللهِ﴾ [1] اللّهم إنّي لا أرى إلاّ وجه عدو، اللّهم إنّه ليس هاهنا أحد يبلغ رسولك السلام عنّي فبلغه أنت عنّي السلام. ثمّ دعا على القوم: اللّهم أحصهم عدداً واقتلهم بدداً ولا تغادر منهم أحداً. ثمّ دعوا أبناء من قتل ببدر فكانوا أربعين غلاماً، أعطوا كلّ واحد منهم رمحاً، وقالوا لهم: هذا الذي قتل آباءكم. فطعنوه برماحهم،فتحرك على الخشبة وصار وجهه نحو الكعبة فقال: الحمد لله الذي جعل وجهي نحو قبلته التي رضي لنفسه ولنبيّه وللمؤمنين. فغضب أحد المشركين: عقبة بن الحارث لتمسكه بالإسلام وإخلاصه له، فطعنه طعنة قاتلة وهو يوحّد الله ويشهد أنّ محمّداً رسول الله. وبقي جثمانه فترة على الخشبة بحراسة الكفّار حتى أنزله اثنان من المسلمين الأشدّاء ودفناه كما أمر الرسول ﷺ.

وقد أحزن هذا الحادث الأليم رسول الله ﷺ وجميع المسلمين، وأنشد فيهم حسّان بن ثابت أبياتاً ذكرها «ابن هشام» في سيرته.

إسلام كعب بن زهير بن أبي سلمى

كان زهير بن أبي سلمى من شعراء العرب البارزين في العهد الجاهلي،

١. البقرة: ١١٥.

وصاحب إحدى المعلّقات السبع التي نصبت في الكعبة وتفتخر بها العرب. وتوفي قبل عصر الرسالة. وكان له ولدين: بجير و كعب. أمّا بجير فقد آمن بالإسلام ولازم النبي ﷺ وأحبه، بينما عادى كعب النبي ﷺ فكان يهجوه في قصائده وأشعاره ويؤلّب الناس على الإسلام. أمّا النبي ﷺ فكان قد هدد بالقتل بعض الشعراء الذين كانوا يهجونه ﷺ وأهدر دماءهم. فكتب بجير إلى كعب ينصحه: إن كانت لك في نفسك حاجة فَطِر إلى رسول الله ﷺ فإنّه لا يقتل أحداً جاءه تائباً. فاطمأنّ لكلام أخيه وتوجه إلى المدينة وقابل النبي ﷺ في المسجد وقت صلاة الصبح، فصلّى معه لأوّل مرّة و جلس إليه و وضع يده في يده والنبي ﷺ لا يعرفه، فقال: يا رسول الله انّ كعب بن زهير جاء ليستأمن منك تائباً مسلماً فهل أنت قابل منه إن أنا جئتك به؟ فقال ﷺ: «نعم». فقال: أنا يا رسول الله كعب ابن زهير. ثمّ أخرج قصيدته اللامية التي مدح فيها رسول الله ﷺ وأنشدها بين يديه في المسجد ليتلافى بها ما سبق أن بدر منه من هجاء و طعن في سيد المرسلين ﷺ

وقيل أنّ أحد الأنصار وثب عليه: يا رسول الله دعني وعدو الله أن أضرب عنقه. فقال ﷺ: «دعه عنك فإنّه قد جاء تائباً نازعاً ـ عمّا كان عليه ـ» .

وهذه القصيدة هي من أفضل قصائد كعب، اعتنى المسلمون بحفظها ونشرها منذ ذلك الوقت، كما شرحها علماء الإسلام كثيراً، وهي تضم ٥٨ بيتاً تنتهي قوافيها باللام المضمومة، ويبدأ مطلعها:

بانَتْ سعادٌ فقَلْبي اليومَ متبولُ متيّمٌ إثرها لم يُفدَ مَكْبُولُ

و سعاد هي زوجته وابنة عمّه، بدأ بها كعادة شعراء العهد الجاهلي، إلى أن قال:

أَنَّ الرسول لسيف يستضاء به مهند من سيوف الله مسلول

فأبدله النبي ﷺ: إنّ النبي لنور يستضاء به....

وقيل إنّ النبي ﷺ كساه بردة كانت عليه، طلبها معاوية في زمنه، فقال كعب: ما كنت لأُوثر بثوب رسول الله أحداً. فلمّا مات كعب اشتراها معاوية من أولاده بعشرين ألف درهم. ثمّ تداولها حكّام بني أُميّة والعباس بعد ذلك.

إسلام عدي بن حاتم

بعث النبي ﷺ ١٥٠ فارساً على رأسهم الإمام علي عليه السلام إلى أرض طيء ليحطم صنم طيء و يهدم بيته، فنجح في مهمته، وفرّ عدي بن حاتم الطائي رئيس القبيلة إلى الشام، ويقول هو في ذلك: «فكنت إمرءاً شريفاً، وكنت نصرانياً، وأسير في قومي بالمرباع ـ أخذ الربع من الغنائم لأنّه سيدهم ـ وكنت ملكاً في قومي لما كان يُصنع بي. فلمّا سمعت برسول الله ﷺ كرهته فقلت لغلام راعياً لإبلي: إذا سمعت بجيش محمد قد وطئ هذه البلاد فآذني. ففعل و قال: فإنّي قد رأيت رايات فسألت عنها فقالوا: هذه جيوش محمّد. فاحتملت بأهلي وولدي وقلت: ألحق بأهل ديني من النصارى بالشام،وتركت أُختي في قومي».

وقد ظفر المسلمون بأُخته في سبايا طيء إلى النبي ﷺ الذي أبلغوه عن هروبه إلى الشام. فوضعوها في مكان بباب المسجد، فكانت تقول للنبي ﷺ عندما تراه: يا رسول الله هلك الوالد وغاب الوافد، فامنُن عليّ منّ الله عليك. قال ﷺ:«ومن وافدك؟» قالت: عدي بن حاتم. فقال ﷺ:« الفار من الله ورسوله». وكررت عليه ﷺ قولها ثلاث مرّات، فقال لها الرسول ﷺ: «قد فعلت فلا تعجلي بخروج حتى تجدي من قومك من يكون لك ثقة حتى يبلغك إلى بلادك ثمّ آذنيني». ولمّا قررت السفر مع جماعة من قومها قالت: فكساني

رسول الله ﷺ وحملني وأعطاني نفقة فخرجت معهم حتى قدمت الشام. ولما وصلت عند أخيها، أخذت تلومه: القاطع الظالم، احتملت أهلك وولدك، وتركت بقية والدك، عورتك. فقال لها: لا تقولي إلّا خيراً فوالله مالي من عذر. ثمّ سألها: ماذا ترين عن أمر هذا الرجل ــ أي النبي ﷺ فقالت: أرى والله أن تلحق به سريعاً، فإن يكن الرجل نبياً فللسابق إليه فضله، وإن يكن ملكاً فلن تذلّ في عزّ اليمن وأنت أنت. فقال: والله إنّ هذا هو الرأي.

وعندما قدم إلى المدينة، اصطحبه النبي ﷺ إلى بيته، وأجلسه على وسادة طيّبة، وجلس هو على الأرض. فقلت في نفسي: والله ما هذا بأمر ملك. ثمّ قال ﷺ: «إيه يا عدي بن حاتم، ألم تكن ركوسياً ــ وهو دين بين النصارى و الصابئين ـ؟» قلت: بلى. فقال:« أو لم تكن تسير في قومك بالمرباع؟» قلت: بلى. فعرفت أنّه نبيّ مرسل يعلم ما يجُهل.

فقد تنبأ أمامه بالرخاء وسعة المال للمسلمين،وازدياد عددهم، ومساحة الأرض التي يحصلون عليها، وسيطرتهم على الملك، و العيش بالقصور البيض من أرض بابل. فأسلم عدي بن حاتم. ورأى بعينيه بعد فترة، القصور البيض في بابل و قد فتحت، والمرأة تخرج من القادسية على بعيرها لتحجّ البيت الحرام دون خوف.

و كان عدي يقول: قد مضت اثنتان و بقيت الثالثة... وأيم الله لتكونن الثالثة، ليفيضنّ المال حتى لا يوجد من يأخذه.

المصادر و المراجع

١. ابن أبي الحديد المعتزلي: شرح نهج البلاغة.

٢. ابن الأثير، عزّ الدين أبو الحسن علي بن محمد الجزري: الكامل في التاريخ.

٣. ابن الأثير، عزّ الدين أبو الحسن علي بن محمد الجزري: أُسد الغابة.

٤. الأحمدي، المحقّق الشيخ علي: مكاتيب الرسولﷺ.

٥. أحمد عادل كمال: الطريق إلى المدائن. بيروت دار النفائس ١٩٧٧م.

٦. الإصفهاني، أبو الفرج علي بن الحسين: مقاتل الطالبيين.

٧. الإربلي، علي بن عيسى: كشف الغمّة في معرفة الأئمّة.

٨. الأميني، الشيخ عبد الحسين: الغدير.

٩. ابن حبيب، أبو جعفر محمّد: المحبّر.

١٠. ابن حجر العسقلاني، الحافظ أحمد بن علي بن محمد: الإصابة في تمييز الصحابة.

١١. ابن حجر، أحمد الهيتمي: الصواعق المحرقة.

١٢. ابن حنبل، أبو عبد الله أحمد بن حنبل الشيباني: مسند أحمد.

١٣. ابن خلّكان، شمس الدين أبو العباس أحمد بن أبي بكر: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان.

١٤. ابن سعد، محمد بن سعد: الطبقات الكبرى.

١٥. ابن طاووس، السيد عبد الكريم: إقبال الأعمال.

١٦. ابن عبد البرّ، الحافظ المالكي الأندلسي: الإستيعاب في معرفة الأصحاب.

١٧. ابن كثير، الحافظ عماد الدين: البداية و النهاية.

١٨. ابن هشام، محمد بن عبد الملك: السيرة النبوية.

١٩. ابن القيم، العلاّمة شمس الدين الجوزية: زاد المعاد في هدى خير العباد.

٢٠. ابن معد، السيد شمس الدين فخار: حجّة الذاهب إلى إيمان أبي طالب.

٢١. ابن واضح، أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب: تاريخ اليعقوبي.

٢٢. أبو نعيم، الاصفهاني: حلية الأولياء.

٢٣. البحراني، السيدهاشم: تفسير البرهان.

٢٤. البخاري، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل: الصحيح.

٢٥. البرهان فوري، علاء الدين علي المتقي بن حسام الدين الهندي: كنز العمال.

٢٦. البلاذري، أحمد بن يحيى بن جابر: فتوح البلدان.

٢٧. البيروني، أبو الريحان محمد أحمد الخوارزمي: الآثار الباقية عن القرون الخالية.

٢٨. الثعالبي، أبو منصور عبد الملك: ثمار القلوب.

٢٩. الحاكم النيسابوري، الحافظ أبي عبد الله بن محمد بن عبد الله: المستدرك.

٣٠. الحسيني، السيد علي خان المدني: الدرجات الرفيعة في طبقات الشيعة الإمامية.

٣١. الحرّ العاملي، محمد بن الحسن: وسائل الشيعة.

٣٢. الحلبي، الشيخ علي بن برهان الدين الشافعي: السيرة الحلبية.

٣٣. الحيدر آبادي، محمد حميد الله: مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة.

٣٤. الديار بكري، القاضي حسين بن محمد بن الحسن المالكي: تاريخ الخميس.

٣٥. الرازي، فخر الدين: مفاتيح الغيب.

٣٦. الزمخشري، محمود بن عمر: الكشاف عن حقائق التنزيل.

٣٧. السبحاني، الشيخ جعفر: مفاهيم القرآن.

٣٨. السبحاني، الشيخ جعفر: معالم التوحيد في القرآن الكريم.

٣٩. السيوطي، الحافظ عبد الرحمن بن أبي بكر جلال الدين: الدرّ المنثور.

٤٠. الشهرستاني، أبو الفتح محمد بن عبد الكريم: الملل و النحل.

٤١. الصدوق، محمد بن علي القمي: الخصال.

٤٢. الصدوق، محمد بن علي القمي: علل الشرائع.

٤٣. الطباطبائي، السيد محمّد حسين: تفسير الميزان.

٤٤. الطبرسي، أحمد بن علي : مجمع البيان في تفسير القرآن.

٤٥. الطبرسي، فضل بن الحسن: إعلام الورى بأعلام الهدى.

٤٦. الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير: تاريخ الأُمم والملوك.

٤٧. الطوسي، محمد بن الحسن: الأمالي.

٤٨. القمي، الشيخ عباس: سفينة البحار.

٤٩. كحالة، عمر رضا: أعلام النساء.

٥٠. الكراجكي، أبو الفتح محمد بن علي: كنز الفوائد.

٥١. الكليني، محمد بن يعقوب: فروع الكافي.

٥٢. الكليني، محمد بن يعقوب: روضة الكافي.

٥٣. الكوفي، أبو القاسم: الاستغاثة.

٥٤. المجلسي، محمد باقر: بحار الأنوار.

٥٥. الشريف الرضي: نهج البلاغة، شرح محمد عبده.

٥٦. مسلم، أبو الحسين مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيرى النيسابوري: الصحيح.

٥٧. المفيد، الشيخ محمد بن محمد بن النعمان: الإرشاد.

٥٨. المقريزي، تقي الدين أبو محمّد: إمتاع الأسماع بما للرسول من الأبناء والأحوال والحفدة والمتاع.

٥٩. النسائي، القاضي أحمد بن شعيب بن علي: سنن النسائي.

٦٠. الواقدي، محمد بن عمرو: المغازي.

فهرس محتويات الكتاب

مقدمة المؤلّف ٥
مقدمة الملخّص ٩

القسم الأوّل: مكّة المكرّمة

الفصل الأوّل: العرب قبل الإسلام ١٣
أحوال العرب في شبه الجزيرة العربية ١٥
الأحوال السياسية في المنطقة ٢١
التعريف بأسلاف الرسول ﷺ ٢٣

الفصل الثاني:
الرسول الأكرم محمّد ﷺ ٣١
مولده ٣٣
فترة طفولته ٣٦
كفالة أبي طالب ٣٧

فترة شبابه	٣٩
فترة عمله	٤٠
زواجه	٤٣
أولاد الرسول ﷺ	٤٦
تبنّي النبي ﷺ لزيد بن حارثة	٤٧
الفصل الثالث:	
البعثة النبويّة	٤٩
الحالة الدينية في الجزيرة العربية	٥١
إيمان النبي ﷺ و آبائه و كفلائه قبل الإسلام	٥٢
النبي ﷺ قبل البعثة	٥٧
الوحي في غار حراء	٥٨
المؤمنون بالدين	٦١
دعوة الأقربين	٦٤
الدعوة العامة	٦٨
الأساليب الفاشلة أمام نجاح الدعوة الجديدة	٧١
الفصل الرابع:	
موقف النبي ﷺ من إيذاء الكفّار للمسلمين	٨١
الهجرة إلى الحبشة	٨٣
الإسراء والمعراج	٨٨
السفر إلى الطائف	٩٢

نتائج المرحلة الجديدة من الدعوة ٩٥
بيعة العقبة ٩٥
الهجرة الكبرى ٩٩
الرسول ﷺ في المدينة ١٠٤

القسم الثاني: يثرب ـ المدينة المنورة

الفصل الخامس:
الأحداث في المدينة المنوّرة ١٠٩
حوادث السنة الأُولى من الهجرة ١١١
بناء مسجد في المدينة المنوّرة ١١١
المؤاخاة بين المهاجرين و الأنصار ١١٣
معاهدة التعايش السلمي مع اليهود ١١٣
أحداث السنة الثانية من الهجرة ١١٦
تغيير اتّجاه القبلة ١١٩
معركة بدر ونتائجها ١٢٠
العمليات العسكرية الصغيرة ١٢٧
زواج السيد فاطمة الزهراء عليها السلام ١٢٨

الفصل السادس:
أحداث السنة الثالثة والرابعة من الهجرة ١٣١

معركة أُحد	١٣٣
غزوة حمراء الأسد	١٣٦
غزوة بني النضير	١٤١
غزوة ذات الرقاع	١٤٣
تحريم الخمر	١٤٤
الفصل السابع:	
أحداث السنة الخامسة والسادسة من الهجرة	١٤٥
غزوة دومة الجندل	١٤٧
غزوة الأحزاب	١٤٧
غزوة بني قريظة	١٥٢
زواج النبي ﷺ بزينب بنت جحش	١٥٤
اليهود	١٥٥
قبيلة بني لحيان	١٥٥
بنو غطفان	١٥٦
غزوة بني المصطلق	١٥٦
قصة الإفك	١٥٨
الحديبية	١٦٠
الفصل الثامن:	
أحداث السنة السابعة والثامنة من الهجرة	١٦٩
إعلان النبي ﷺ عن عالمية رسالته	١٧١

أحداث خيبر	١٧٩
قصة فدك	١٨٥
فدك بعد النبي ﷺ	١٨٧
عمرة القضاء	١٨٨
معركة مؤتة	١٩٠
غزوة ذات السلا سل	١٩٢
فتح مكة	١٩٤
هدم بيوت الأصنام	٢٠٥
معركة حنين	٢٠٦
غزوة الطائف	٢٠٨

الفصل التاسع:

أحداث السنة التاسعة والعاشرة والحادية عشرة من الهجرة	٢١٥
عام الوفود	٢١٧
هدم الأصنام	٢١٨
غزوة تبوك	٢١٩
مسجد ضِرار	٢٢٤
وفد ثقيف	٢٢٥
إعلان البراءة	٢٢٦
المباهلة	٢٢٩
وفود القبائل في المدينة	٢٣٣
حجّة الوداع	٢٣٤

الخلافة بعدالنبي ﷺ	٢٣٧
المرتدون من المتنبّئين	٢٤١
الأخطارالخارجية	٢٤١
مرض النبي ﷺ	٢٤٣
وفاة ابنه إبراهيم	٢٤٤
الكتاب الذي لم يكتب	٢٤٥
اللحظات الأخيرة	٢٤٦

الفصل العاشر:

حكايات وروايات وردت في الكتاب

	٢٤٩
وأدالبنات	٢٥١
الخرافات	٢٥١
الحالة الاجتماعية في إيران أيّام العهد الساساني	٢٥٢
حفر زمزم	٢٥٤
الوفاء بالنذر والعهد	٢٥٥
قضايا عجيبة في طفولة النبي ﷺ	٢٥٦
رأي قريش في القرآن	٢٥٧
أسباب معارضة قريش للدعوة	٢٥٩
عبس و تولى	٢٦٠
أُسطورة الغرانيق	٢٦١
لمحات من تضحيات أبي طالب	٢٦٢
التخطيط العسكري يوم بدر	٢٦٣

من أحداث معركة أُحد	٢٦٥
من أحداث غزوة تبوك	٢٧٠
مأساة الدعاة والمبلّغين	٢٧١
إسلام كعب بن زهير	٢٧٣
إسلام عدي بن حاتم الطائي	٢٧٥
فهرس المصادر	٢٧٧
فهرس المحتويات	٢٨١

%٦١ ١:٥١

المرحلة الجديدة في الدعوة
و نتائجها المؤثرة

٤. بيعة العقبة

سكنت يثرب قبيلتا الأوس والخزرج في القرن الرابع الميلادي بعد هجرتهم من اليمن، وهم من القحطانيين . كما سكن بجانبهم اليهود القادمين من شمال الجزيرة العربية. وكثيراً ما كان يحضر منهم جماعة إلى مكّة، فكان النبي ﷺ يلتقي بهم ويتصل معهم عارضاً عليهم دينه، وقد كان لهذه اللقاءات والاتّصالات أثرها فيما بعد ودافعاً لهجرة الرسول ﷺ إلى يثرب، فقد كان حجاجهم ينقلون أخباره ﷺ إلى أهاليهم، ممّا مكنهم التعرف عليه وعلى أهدافه. وقد تمّت تلك الاتّصالات فيما بين سنوات ١١، ١٢، ١٣ من البعثة.

ومن أشهر من تشرّف بمقابلة الرسول ﷺ «سويد بن الصامت» الذي أسلم ونشر الإسلام بين قومه، إلاّ أنّ الخزرج قتلته قبل يوم بعاث.[١] و «إياس بن معاذ» الذي رأى في إسلام أهله تخلّصاً من النزاع والتناحر بينهم، ليصبحوا بفضل الدين الجديد إخوة تزول بينهم أسباب العداء والقتال.

وكذلك تمّت مبايعة ستة أفراد من الخزرج والإيمان به وبالإسلام: إنّا قد تركنا

---

١. بعاث، موضع جرت فيه حرب بين الأوس والخزرج.

قومنا ولا قوم بينهم من العداوة والشرّ مثل ما بينهم، فعسى أن يجمعهم الله بك، فسنقدم عليهم فندعوهم إلى أمرك،ونعرض عليهم الذي أجبناك إليه من هذا الدين، فإن يجمعهم الله عليه، فلا رجل أعزّ منك.[١]

وكان لهؤلاء تأثيرهم الإيجابي في أهل يثرب، حيث أسلم عددٌ منهم، وقدم في السنة التالية ١٢ من البعثة، اثنا عشر رجلاً منهم، عقدوا مع النبي ﷺ بيعة العقبة، وهي أوّل بيعة في الإسلام، وكان أبرزهم: أسعد بن زرارة، وعبادة الصامت.

وكان نصّ البيعة، بعد الاعتراف بالإسلام والإيمان بالله وبرسوله: «بايعنا رسول الله ﷺ على ألاّ نشرك بالله شيئاً، ولا نسرق ولا نزني،ولا نقتل أولادنا، ولا نأتي ببهتان نفتريه من بين أيدينا وأرجلنا ولا نعصيه في معروف» ويرد عليهم الرسول

%٦١ ١:٥١

الصامت.

وكان نصّ البيعة، بعد الاعتراف بالإسلام والإيمان بالله وبرسوله: «بايعنا رسول الله ﷺ على ألاّ نشرك بالله شيئاً، ولا نسرق ولا نزني،ولا نقتل أولادنا، ولا نأتي ببهتان نفتريه من بين أيدينا وأرجلنا ولا نعصيه في معروف» ويرد عليهم الرسول ﷺ: «إن وفيتم فلكم الجنة، وإن غشيتم من ذلك شيئاً فأمركم إلى الله عزّوجلّ، إن شاء عذّب وإن شاء غفر».

وطلبوا من النبي ﷺ أن يرسل إليهم من يعلّمهم القرآن والدين، إذ أنّهم نشطوا في نشر الإسلام بعد عودتهم إلى يثرب، فبعث إليهم: «مصعب بن عمير» الداعية النشط الذي تمكن من أن يجمع المسلمين في غياب الرسول ﷺ ويؤمهم ويصلّي بهم.[٢]

وهكذا فقد أحدث تقدُّم الإسلام في يثرب، هيجاناً كبيراً، وشوقاً عجيباً في نفوس المسلمين من أهلها، فانتظروا حلول موسم الحجّ للإلتقاء بالرسول ﷺ فخرجت قافلة كبيرة منهم ضمت ٥٠٠ نفر، فيهم ٧٣ مسلماً بينهم امرأتان،

١. تاريخ الطبري:٢/ ٨٦؛ السيرة النبوية: ١/ ٤٢٧؛ بحار الأنوار: ١٩/ ٢٥.
٢. السيرة النبوية:١/ ٤٣٤؛ بحار الأنوار: ١٩/ ٢٥.

فالتقوا بالرسول ﷺ الذي واعدهم بالعقبة:«موعدكم العقبة في الليلة الوسطى من ليالي التشريق»، وهي الليلة ١٣ من شهر ذي الحجّة، فاجتمع بهم مع عمّه «العباس بن عبد المطلب» بعد أن مضى ثلث الليل ونام الناس، حتى لا يشعروا بخروجهم.

فتكلّم فيهم العباس قائلاً: إنّ محمّداً منّا حيث قد علمتم، وقد منعناه من قومنا، فهو في عزّ من قومه ومنعة في بلده، وإنّه قد أبى إلاّ الانحياز إليكم واللحوق بكم، فإن كنتم ترون أنّكم وافون له بما دعوتموه إليه، ومانعوه ممّن خالفه، فأنتم وما تحملتم من ذلك، وإن كنتم ترون أنّكم مسلّموه وخاذلوه بعد الخروج إليكم، فمن الآن فدعوه، فإنّه في عزّ ومنعة من قومه وبلده.

ثمّ تكلّم الرسول ﷺ فتلا القرآن ودعا إلى الله ورغّب في الإسلام ثمّ قال: «أبايعكم على أن تمنعوني ممّا تمنعون منه نساءكم وأبناءكم». فبايعوه على ذلك وهم في حماس وسرور عظيم.

٩٧ من ٢٨٨

كما أنّ النبي ﷺ عاهدهم على أن يبقى معهم، ويكون بجانبهم في سلمهم

%٦١ ١:٥١

ربيع الاوّل من السنة ١٣ من البعثه النبويه المباركه.

٥. الهجرة الكبرى

اجتمع رؤساء قريش في دار النـدوة، للتشاور فيما حدث أخيراً، مـن تجمع

١. السيرة النبوية:١/ ٤٤٩.
٢. إعلام الورى :٥٩؛ بحار الأنوار:١٩/ ١٠.
٣.طبقات ابن سعد:١/ ٢٢٦.

القـوى والعناصر الإسـلامية وتمركـزها في المدينـة، فـاتّخذوا قراراً قـاطعاً وحـاسماً وخطيراً، وهو القضـاء على النبي ﷺ والتخلص منه بقتله، بـواسطة اشتراك جميع القبائل في هذا العمل الإجـرامي حيث قال المقترح: فتختاروا من كـلّ قبيلة رجلاً قوياً ثمّ تسلحوه حساماً عضباً،وليهجمـوا عليه بالليل ويقطّعوه إرباً إرباً، فيتفرّق دمه في قبائل قريش جميعها، فلا يستطيع بنـو هاشم و بنو المطلب مناهضة قبائل قريش كلّهـا في صاحبهم، فيرضون حينئذٍ بـالدية منهم. فاستحسـن الجميع هذا الرأي واتّفقوا عليه، ثمّ اختاروا القَتَلَة، على أن يؤدّوا مهمتهم بالليل أثناء الظلام.[١]

إلاّ أن جبرائيل عليه السلام نزل على الرسول ﷺ وأبلغه بمؤامرة المشركين فقرأ عليه قول الله تعـالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُـرُ بِكَ الَّـذِيـنَ كَفَرُوا لِيثبِتُـوكَ أَوْ يَقْتُلُـوكَ أَوْ يخرجُـوكَ وَيمكرونَ وَيَمْكرُ اللهُ واللهُ خيْر الماكِرين﴾.[٢]

ثمّ إنّ النبي ﷺ قرر أن ينـام شخص في فـراشه ليتصـوّر المشركون أنّـه ﷺ موجود في منـزله لم يبرحه، فيرتكز عملهم على محاصرة البيـت دون الاهتمام بمراقبة الطرقات في نواحي مكة. فنام الإمام علي عليه السلام في فراش النبي ﷺ وحاصر المنزل أربعون فرداً من قريش، وخرج النبي ﷺ من الباب دون أن يشعر بـه أفراد قريش المكلّفون بقتله، حينما قرأ ﷺ سورة «يس» إلى قوله: ﴿فَهُمْ لاَ يُبْصِرُون﴾ . وخروج النبي ﷺ بهذه الصورة والكيفيـة، فسرّه البعض بأنّ القوم المحـاصرين كانوا نيـاماً لحظة خروجه، إلاّ أنّ آخرين يرون إنّه خرج من البيت عن طريق الإعجاز والكرامة دون أن يروه ويحسّنوا به.

وقبيل طلوع الفجر عند ساعة الصفـر، هجم المتآمرون على فراش النبي ﷺ

١. طبقات ابن سعد: ١/ ٢٢٧؛ السيرة النبوية:١/ ٤٨٠.
٢. الأنفال:٣٠. ليثبتوك: ليسجنوك.

%٦١ ١:٥٢

ففوجئوا بوجود الإمام علي عليه السلام يكشف عن نفسه، فغضبوا وندموا على انتظارهم الطويل حتّى الفجر، ولاموا أبا جهل الذي منعهم من دخول البيت فحمّلوه مسؤولية فشل الخطة، ولكنّهم أسرعوا في وضع خطه جديدة لترتيب أمر ملاحقته والقبض عليه.

وكان النبي صلى الله عليه وآله وأبو بكر قد أمضيا ليلة الهجرة وليلتين أُخريين في غار ثور الواقع في جنوب مكة، وذلك ليعمّي على قريش فلا يتبعوا أثره، إذ أنّ الطريق إلى المدينة يقع في شمال مكّة.

وبالنسبة إلى مصاحبة أبي بكر للنبي صلى الله عليه وآله فهي مسألة تاريخية غامضة، فيعتقد البعض أنّها كانت بالصدفة، أي أنّه تقابل معه في الطريق فاصطحبه معه إلى غار ثور، بينما يرى آخرون أنّ النبي صلى الله عليه وآله ذهب في نفس الليلة إلى منزل أبي بكر فخرجا في منتصف الليل إلى الغار.[1] في حين أنّ فريقاً ثالثاً يذهب إلى أنّ أبا بكر جاء إلى النبي صلى الله عليه وآله فأرشده الإمام علي عليه السلام إلى مخبأ النبي صلى الله عليه وآله.

أمّا قريش فقد بادرت إلى بثِّ العيون والجواسيس في طرقات مكّة، ومراقبة مداخلها ومخارجها، وبعثت القافلة تقتص أثره صلى الله عليه وآله في كلّ مكان وخاصة طريق مكة ـ المدينة، كما عيّنت مائة من الإبل جائزة لمن يقبض عليه صلى الله عليه وآله ويردّه إليهم، أو لمن يأتي عنه بخبر صحيح.

وقد تمكّن المتتبعون لأثر قدم الرسول صلى الله عليه وآله من الوصول إليه عند باب الغار، إلاّ أنّهم استبعدوا وجودهما فيه، نظراً لنسج العنكبوت وبيض الحمام. فاستمرّت محاولات البحث ثلاثة أيّام بلياليها دون جدوى.

---

١ . تاريخ الطبري:٢/١٠٠.

وقد تردّد على النبي صلى الله عليه وآله خلال تواجده في الغار: علي عليه السلام وهند بن أبي هالة (ابن خديجة) حسب رواية الشيخ الطوسي في أماليه، وعبد الله بن أبي بكر وعامر ابن فهيرة راعي أغنام أبي بكر، حسب رواية كثير من المؤرّخين.

والنقطة الهامة في هذه القضية هي مفاداة الإمام علي عليه السلام النبيّ بنفسه. وتعريض حياته لخطر الموت في سبيل الدين والإسلام وحياة النبي صلى الله عليه وآله، فهو

وقد تردّد على النبي ﷺ خلال تواجده في الغار: علي عليه السلام وهند بن أبي هالة (ابن خديجة) حسب رواية الشيخ الطوسي في أماليه، وعبد الله بن أبي بكر وعامر ابن فهيرة راعي أغنام أبي بكر، حسب رواية كثير من المؤرّخين.

والنقطة الهامة في هذه القضية هي مفاداة الإمام علي عليه السلام النبيّ بنفسه. وتعريض حياته لخطر الموت في سبيل الدين والإسلام وحياة النبي ﷺ، فهو نموذج رائع من الحبّ الحقيقي للحقّ، وقد مدحه الله تعالى في كتابه العظيم قائلاً: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغاء مَرْضاتِ اللهِ وَاللهُ رءُوفٌ بِالْعِباد﴾.[١]

وقد دفعت هذه العملية التضحوية الكبرى كبار علماء الإسلام إلى اعتبارها واحدة من أبرز وأكبر فضائل الإمام عليه السلام وإلى وصفه بالفداء والبذل والإيثار، واعتبار الآية المذكورة في شأنه من المسلمات قلّما بلغ الحديث في التفسير والتاريخ إليها.[٢]

وقد طلب النبي ﷺ من الإمام علي عليه السلام أن يبتاع بعيرين له ولصاحبه، فقال أبو بكر: قد كنت أعددتُ لي ولك يا نبي الله راحلتين نرتحلهما إلى يثرب، فدفع إليه الرسول ﷺ ثمنهما.[٣]

كما أوصى النبي ﷺ علياً عليه السلام بأن يؤدّي أمانته على أعين الناس، وأمره بترتيب رحلة الفواطم: فاطمة الزهراء عليها السلام، وفاطمة بنت أسد أُمّ الإمام علي عليه السلام وفاطمة بنت الزبير، ومن يريد الهجرة معه من بني هاشم إلى يثرب، وما يحتاجون له من زاد وراحلة.

١. البقرة:٢٠٧.
٢. مسند أحمد:١/ ٨٧؛ كنز العمال:٦/ ٤٠٧؛ الغدير:٢/ ٤٧.
٣. الكامل:٢/ ٧٣؛ السيرة الحلبية:٢/ ٥٣.

وقد هيّأ الإمام عليه السلام أوّلاً ثلاث رواحل ودليلاً أميناً يدعى «أريقط» للترحال إلى المدينة، فخرج النبي ﷺ مع صاحبه متوجهَين إلى يثرب سالكَين الخط الساحلي.

ومن هذه الليلة يبدأ تاريخ المسلمين، حيث بدأوا يقيسون كلّ ما يقع من الحوادث بذلك العام فيحددون تاريخه وزمان حدوثه.

١٠٣ من ٢٨٨

ففي العام الأوّل للهجرة، حقق المسلمون انتصاراً عظيماً وباهراً، وتأسّست لهم فيه حكومة مستقلة، وتخلّصوا من التشرذم والتبعثر، وتمركزت قواهم وعناصرهم

%٢٠ ١١:٠٠

مقبوحين.

٢. الإسراء والمعراج

بدأ النبي ﷺ رحلته الفضائية من بيت «أُمّ هانئ» أُخت الإمام علي عليه السلام[١] إلى بيت المقدس في فلسطين، والّذي يسمّى المسجد الأقصى، وتفقّد بيت لحم مسقط رأس السيّد المسيح عليه السلام ومنازل الأنبياء وآثارهم، وصلّى عند كلّ محراب ركعتين. ثمّ بدأ في القسم الثاني من رحلته، المعراج إلى السماوات العلى، فشاهد النجوم والكواكب، واطّلع على نظام العالم العلوي، وتحدّث مع أرواح الأنبياء والملائكة، واطلع على مراكز الرحمة والعذاب ـ الجنّة والنار ـ ورأى درجات أهل الجنّة، و تعرّف على أسرار الوجود و رموز الطبيعة، ووقف على سعة الكون وآثار القدرة الإلهية المطلقة، ثمّ واصل رحلته حتى بلغ سدرة المنتهى، فوجدها مسربلة بالعظمة المتناهية والجلال العظيم. وهنا كان قد انتهى برنامج الرحلة، فأُمر بالعودة من حيث أتى، فمرّ في طريق عودته، على بيت المقدس ثانية، ثمّ توجه نحو مكّة، مارّاً على قافلةٍ تجاريةٍ خاصّة بقريش، وبعيرٌ لهم قد ضلّ في البيداء يبحثون عنه، وشرب من مائهم، ثمّ ترجّل عن مركبته الفضائية ـ البراق ـ في بيت أُمّ هانئ، قبل طلوع الفجر. فأخبرها بما حدث، كما كشف عنه في أندية قريش صباح نفس تلك الليلة. إلاّ أنّ قريشاً كعادتها كذّبته وأنكرته، على أساس عدم استطاعة النبي ﷺ القيام بذلك في ليلة واحدة، وطلبوا منه أن يصف بيت المقدس، فوصفه النبي ﷺ وصفاً شاملاً، مع ما شاهده في الطريق، وخاصة عير

---

١. مجمع البيان:٦/ ٣٩٥؛السيرة النبوية:١/ ٣٩٦.

قريش، التي أكد لهم بأنها الآن في موقع التنعيم، فلم تمض لحظات حتى طلعت

حفظ في OneDrive

%٢٠ ١١:٠٠

قريش، التي أكد لهم بأنّها الآن في موقع التنعيم، فلم تمض لحظات حتى طلعت عليهم العير، فحدّثهم أبو سفيان بكلّ ما أخبرهم به الرسول من ضياع بعيرهم في الطريق والبحث عنه.[1]

وقد اختلفت الأقوال عن وقت حدوث الإسراء والمعراج، فادّعى «ابن هشام و ابن إسحاق» انّه وقع في السنة العاشرة من البعثة الشريفة، وذهب المؤرّخ «البيهقي» انّه حدث في السنة الثانية عشرة منها، بينما قال آخرون إنّه وقع في أوائل البعثة، في حين أنّ فريقاً رابعاً أكد وقوعه في أواسطها. وربما يقال في الجمع بين هذه الأقوال انّه كان لرسول الله ﷺ معارج متعدّدة.

وهناك اعتقاد أنّ المعراج الذي فرضت فيه الصلاة وقع بعد وفاة أبي طالب عليه السلام في السنة ١٠ من البعثة. والذين تصوّروا أنّ المعراج وقع قبل هذه السنة مخطئون، لأنّ النبي ﷺ كان محصوراً في شعب أبي طالب منذ عام ٨ وحتى ١٠، فلم يكن المسلمون مستعدّين لوضع التكاليف عليهم. و أمّا سنوات ما قبل الحصار، فعلاوة على ضغوط قريش على المسلمين، والتي كانت مانعاً من فرض الصلاة عليهم، فإنّ المسلمين كانوا قلّة، ولم يكن نور الإيمان وأُصول الإسلام قد ترسخت بعد في قلوب ذلك العدد القليل، ولذا يستبعد أن يكونوا قد كلّفوا بأمرٍ زائدٍ مثل الصلاة في مثل تلك الظروف.

أمّا ما ورد في بعض الأخبار والروايات، بأنّ الإمام عليّاً عليه السلام صلّى مع الرسول ﷺ قبل البعثة بثلاث سنوات، فليس المراد منها الصلاة المكتوبة، بل كانت عبارة عن عبادةٍ خاصةٍ غير محدّدة، أو كان المراد منها الصلوات المندوبة

١. بحار الأنوار: ١٨/ ٢٨٣ و ٤١٠.

حفظ في OneDrive

%٢٠ ١١:٠٠

والعبادات غير الواجبة.[١]

وأمّا بالنسبة لما قيل وذكر عن معراج النبي ﷺ جسمانياً أو روحانياً، فقد قيل فيه الكثير، بالرغم من أنّ القرآن الكريم والأحاديث النبوية تؤكّد أنّ ذلك حدث جسمانياً، إلاّ أنّ بعض الآراء ترى أنّ ذلك وقع روحانياً، أي أنّ روح النبي ﷺ طافت في تلك العوالم ثمّ عادت إلى جسده ﷺ مرّة أُخرى، وذهب آخرون إلى أنّ كلّ ذلك حدث في عالم الرؤيا، ورؤيا الأنبياء صادقة.[٢] وربما دلّ تكذيب قريش وانزعاجها واستنكارها لحديث الرسول ﷺ على أنّ ذلك حدث جسمانياً. وإذا كان المراد من المعراج الروحاني هو التفكير في عظمة الحقّ وسعة الخلق والتدبير في مخلوقات الله ومصنوعاته ومشاهدة جماله وجلاله، فلا شكّ أنّ ذلك ليس من خصائص رسولنا الأكرم ﷺ بل إنّ كثيراً من الأنبياء والأولياء امتلكوا هذه المرتبة، بينما أعتبره القرآن الكريمُ من خصائصه ﷺ ونوع من الامتياز الخاصّ به ﷺ. كما أنّ حالة التفكير في عظمة الخالق والاستغراق في التوجه إليه، كانت تتكرر للرسول ﷺ في كلّ لليلة، وليس ليلة بعينها كما جرى وحدث في المعراج.

أمّا في العلم الحديث، فإنّ القوانين الطبيعية والعلمية الحالية لا تتلاءم مع معراج النبي ﷺ وذلك للأسباب التالية:

١. إنّ الابتعاد عن الأرض يتطلب التخلّص من جاذبيتها، أي إبطال مفعولها، والنبي ﷺ كان قد خرج عن محيط الجاذبية وأصبح في حالة انعدام الوزن، فكيف تمكن أن يطوى هذه المسافات بدون الوسائل والأدوات اللازمة، وعدم

---

١. يراجع في ذلك الكافي:٣/ ٤٨٢.

٢. نقل العلاّمة الطبرسي في تفسير مجمع البيان إجماع علماء الشيعة على جسمانية المعراج:٦/ ٣٩٥.

توافر الغطاء الواقي، الذي يصون الجسم من التبعثر والذوبان بفعل السرعة

حفظ في OneDrive

%٢٠ ١١:٠٠

توافر الغطاء الواقي، الذي يصون الجسم من التبعثر والذوبان بفعل السرعة الهائلة؟

٢. و كيف تمكن من العيش و الحياة في أعالي الجو بدون وجود أوكسجين؟

٣. و كيف تمكن أن يصون نفسه من الأشعة الفضائية والأحجار السماوية؟

٤. و إذا كان الإنسان يعيش تحت ضغط معين من الهواء لا يوجد في الطبقات العليا من الجو، فكيف حافظ على حياته هناك؟

٥. لا يستطيع أيّ جسم أن يتحرّك بسرعة تفوق سرعة النور، التي هي ٣٠ ألف كم في الثانية، فكيف استطاع النبي ﷺ السير بتلك السرعة الهائلة ويرجع إلى الأرض سالمَ الجسم؟!

و الجواب على ذلك سهل ويسير، فإنّ البشر استطاع بأدواته وآلاته العلمية والتكنولوجية أن يعالج مشكلات عديدة في مجال ارتياد الفضاء، مثل مشكلة الأشعة الفضائية وانعدام الغاز اللازم للتنفس، كما أنّ العلماء يخطّطون للعيش على سطح الكواكب كالقمر والمريخ، وبذا فإنّ العلم يؤكّد سهولة ارتياد الفضاء وعدم استحالته، فإذا كان البشر في إمكانه أن يقوم بذلك عن طريق الأدوات والآلات العلمية، فإنّ الأنبياء يمكنهم فعلَها بواسطة قدرة الله سبحانه و تعالى وفعله. فالنبي ﷺ عرج بعناية وقدرة الله الذي خلق الوجود كلّه، وأقام هذا النظام البديع. فجميع العلل الطبيعية والموانع الخارجية مسخَّرة لله تعالى وخاضعة لإرادته، ومطيعة لأمره. وكأنّ النبي ﷺ يخبر البشرية وحتى الّذين يعيشون في هذا القرن: إنّني فعلت هذا بدون أيّة وسيلة، و إنّ ربّي قد منّ عليّ وعرّفني على نظام السماوات والأرض، وأطلعني بقدرته وعنايته على أسرار الوجود و رموز الكون.

حفظ في OneDrive

والشريعة الإسلامية عبارة عن مجموعة من الأحكام والأنظمة والقواعد الشرعية التي شرّعها الله عزّ وجل وارتضاها لعباده، والتي بُلّغت بواسطة خاتم الأنبياء محمد بن عبد الله ﷺ.

الفرق بين التشريع والشريعة:

إن التشريع: هو سن تلك الأحكام والقوانين والأنظمة.

١. سورة يوسف، من الآيتين ٣٧، ٣٨.
٢. تفسير الميزان، الطباطبائي، ج٥، ص٣٥١.

والشريعة: هي القوانين والأنظمة والأحكام نفسها المقصودة. بقوله تعالى: ﴿عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ﴾[١].

الفرق بين الشريعة الإسلامية والدين والفقه:

١- الشريعة في اللغة: تطلق على الطريقة المستقيمة. وعند الفقهاء (الأحكام التي شرعها الله لعباده على لسان رسول من الرسل). وسميت الأحكام شريعة لاستقامتها وعدم انحرافها [٢].

٢- الإسلامية نسبة إلى الإسلام، والإسلام لغة مصدر أسلم وهو يستعمل في الاصطلاح الشرعي، بمعنى الخضوع والانقياد لأمر الله والتسليم لقضائه وأحكامه والرضى بها [٣].

دعا الله إلى أمة مسلمة، وإن الأنبياء السابقين كانوا مسلمين ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾[٤]، والإسلام والدين والشريعة قد تكون مترادفة مثل قوله: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾[٥]، ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾[٦].

١. سورة الجاثية، من الآية ١٨.
٢. لينظر: المدخل في الفقه الإسلامي، شلبي، ص٢٧.
٣. المصدر نفسه، ص٢٨.
٤. سورة آل عمران، الآية ٦٧.
٥. سورة المائدة، من الآية ٣.
٦. سورة آل عمران، من الآية ١٩.

٣- الدين في اللغة: يطلق على عدة معانٍ منها ما يتدين به الشخص من الإسلام، والطاعة والخضوع، والجزاء، والمكافأة، والحساب، والسلطان،

النظام والعقيدة ولابد أن تكون أحكامها قطعية، أما الأحكام الظنية التي هي موضع الخلاف فيطلق عليها الفقه.

الفرق بين التشريع والاجتهاد والتفقه:

إن التشريع: هو سن الأحكام والقوانين وإيجادها.

والاجتهاد: وهو استنباط الأحكام والقوانين من أدلتها ومصادرها.

والتفقّه: هو معرفة القوانين والأحكام والأنظمة من أدلتها. وعليه فليس الفقيه والمجتهد بمشرّع.

المقارنة بين الفقه والشريعة:

١- الشريعة هي الأحكام التي تتعلق بالأحكام الاعتقادية والأخلاقية وبقصص الأمم الماضية مع الأحكام الفقهية بينما الفقه هو الأحكام التكليفية فقط فكل فقه شريعة ولا عكس.

٢- الشريعة كاملة والتي هي عبارة عن القواعد والأصول العامة تتناول أسس شؤون الحياة كافة. أما الفقه فهو آراء الفقهاء تتطور وتتغير بحسب المكان والزمان وبعبارة أخرى تتجدد آراء الفقهاء حسب الوقائع المستحدثة.

٣- الشريعة عامة بخلاف الفقه ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾[1] وهذا العموم ملموس من واقع الشريعة ومقاصدها ونصوصها التي تخاطب البشرية كافة ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ﴾[2].

١. سورة الأنبياء، الآية ١٠٧.
٢. سورة سبأ، من الآية ٢٨.

٤- الشريعة الإسلامية ملزمة للبشرية كافة، فكل إنسان إذا توافرت فيه شروط التكليف ملزم بكل ما جاءت به من عقيدة وعبادة وخلق وسلوك، بخلاف الفقه الناتج من آراء المجتهدين فرأي أي مجتهد لا يلزم مجتهداً آخر بل يلزم مقلده.

٥- الشريعة شاملة لكل زمان ومكان بينما الرأي الفقهي قد يتغير بحسب المكان والزمان لأنه اجتهاد المجتهد قد يعالج المجتمع في زمن أو مكان بعلاج يمكن أن لا يصلح لمشكلات زمان أو مكان آخر.

الفرق بين الشريعة والقانون:

١- الشرع الإسلامي ينظم علاقة الإنسان بخالقه دون القانون.

٢- الشرع الإسلامي ينظم علاقة الإنسان بنفسه دون القانون.

٣- قواعد الشرع الإسلامي أخلاقية بخلاف القانون فهي تحاسب الإنسان على تخلفه عن معاونة الغير وعن سد حاجة الفقير، فاختلاف القانون الوضعي عن أحكام الشريعة الإسلامية بأن صفة القانون العلمانية بوجه عام وباستقلاله عن الدين والأخلاق، ولكن رجال القانون بحثوا في المبادئ الدينية والأخلاقية،

المكان والزمان لأنه اجتهاد المجتهد قد يعالج المجتمع في زمن أو مكان بعلاج يمكن أن لا يصلح لمشكلات زمان أو مكان آخر.

الفرق بين الشريعة والقانون:

١- الشرع الإسلامي ينظم علاقة الإنسان بخالقه دون القانون.

٢- الشرع الإسلامي ينظم علاقة الإنسان بنفسه دون القانون.

٣- قواعد الشرع الإسلامي أخلاقية بخلاف القانون فهي تحاسب الإنسان على تخلفه عن معاونة الغير وعن سد حاجة الفقير، فاختلاف القانون الوضعي عن أحكام الشريعة الإسلامية بأن صفة القانون العلمانية بوجه عام وباستقلاله عن الدين والأخلاق، ولكن رجال القانون بحثوا في المبادئ الدينية والأخلاقية، وفي تأثيرها في الأحكام القانونية وذلك عن طريق نظرية القانون الطبيعي، وأما فقهاء الشريعة الإسلامية فقد درسوا أحكام المعاملات مع أحكام العبادات والأخلاق في علم واحد، وبنوا الأحكام الأولى على الثانية، وانطلقوا بهذا النهج منذ البداية، فتوصلوا في بحوثهم إلى نظريات إنسانية واضحة تقارب من حيث النتيجة معظم النظريات العصرية.

ولقد انتبه علماء القانون الحديث في الشرق والغرب إلى مسألة تأثير

الأدبيات في الأحكام القانونية. ونوّهوا بوجه خاص بما جاء في الشرع الإسلامي من هذا القبيل.

٤- الشرع الإسلامي إيجابي يأمر بالمعروف عن طريق الوعد بالثواب وسلبي ينهى عن المنكر عن طريق الوعيد بالعقاب بينما القانون سلبي فقط.

٥- الشريعة كاملة من قواعد وأصول عامة بينما القانون الوضعي لا يتسم بالشمول لأنه مهما قارب من الدقة والشمول والصياغة الفنية درجة الكمال فإن ظاهره القصور فيه أمر حتمي لقصور مدارك المشرّع الوضعي.

٦-إن الشريعة الإسلامية والفقه الإسلامي بدأ بالوقائع الجزئية ليتعرف على أحكام كل مسألة من المسائل ثم عالج مجموعة من مجاميع المسائل تحت عقد من العقود أو باب من الأبواب ثم تدرج ووضع نظريات، بينما القانون الوضعي بحث في النظريات العامة وانتهى بالعقود ومسلكه خلاف مسلك الفقه الإسلامي.

٧- الشريعة الإسلامية دائرة التخيير الاجتماعي تُقسّم إلى مستحب ومكروه ومباح، وإتيان المستحبات واجتناب المكروهات يؤثر بشكل بارز في بناء شخصية الفرد وكيان المجتمع المادي والمعنوي بما يُسهل عليه تنظيم السلوك الاجتماعي مع أهداف المشرع الإسلامي، بينما في القانون الوضعي منطقة التخيير الاجتماعي منطقة واحدة هي منطقة عدم الاهتمام الاجتماعي من ناحية المشرّع.

٨- الشريعة الإسلامية توظف جميع قواعدها بجميع أبعادها الفردية والاجتماعية لبناء المجتمع الإسلامي والعمران المادي والمعنوي فيما لا نجده في

المبحث الثاني

تعريف الفقه

أولاً: تعريف الفقه لغة:

١- صيغة لفظ الفقه:

(الفِقْه) بكسر الأول وسكون الثاني مصدر وفعله الماضي (فَقِه) بفتح الأول وكسر الثاني مُتَعَدٍ لمفعول واحد يقال فَقِه زيدُ الشيء بفتح أوله وكسر ثانيه ومضارعهُ (يَفقَه) بفتح القاف فيكون من باب فَعِل يَفعَل مثل عَلِمَ يَعلَم[١].

٢- الفقيه بحسب الاشتقاق:

إن لفظ (الفقيه) صفة مشبهة أو من أمثلة المبالغة أو اسْمُ فاعِلٍ بمعنى فاعل كجليس ولذا لا يستوي فيه المذكر والمؤنث. وَيُسْتَعْمَلُ لفظ الفقيه لمن كان شديد الفهم، وقد يُستَعمل بمعنى اسْم الفاعل مُجَرَّداً عن المبالغة[٢].

٣- المعنى اللغوي للفقه:

الفقه في اللغة: الفهم كما في كتب اللغة[٣]، ففي حديث سلمان المحمدي إنه

١. باب مدينة علم الفقه، كاشف الغطاء، ص١١.
٢. المصدر نفسه، ص١٥.
٣. لِيُنظر: الصحاح، الجوهري، ج٦، ص٢٢٤٣، النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير، ج٣، ص٢١١.

نزل على نبطية بالعراق، فقال هل هنا مكان نظيف أصلي فيه، فقالت له طهّر قلبك وَصَلِّ حيث شئت، فقال سلمان (فقهتُ) أي فهمت[١]. وروي (لعن الله النائحة والمستفقهة) وهي صاحبة النائحة في نَوْحِها. وأطلق عليها ذلك لأنها تتلقف نوح النائحة وتفهمه فتجيبها عنه. واللغويون متفقون على هذا المعنى[٢].

ثانياً: تعريف علم الفقه اصطلاحاً:

عرّف الفقهاء علم الفقه بأنه: (العلم بالأحكام الشرعية الفرعية عن أدلتها التفصيلية)[٣].

شرح التعريف:

المراد بالعلم هو الاطلاع والمعرفة على وجه الجزم الثابت المطابق للواقع، وأما (الأحكام) جمع حكم فهو (خطاب الله المتعلق بأفعال المكلفين).

وأما قيد (الشرعية) فهي نسبة للشرع، والشريعة في اللغة هي الطريقة، والمراد (بالشرعية) في التعريف هو الشرع المحمدي والدين الإسلامي الحنيف.

وأما قيد (الفرعية) نسبة إلى الفرع فهو ما أثنى على غيره في مقابل الأصل، والمراد بالأحكام الفرعية ليست الأصولية الاعتقادية.

وأما (الأدلة) جمع دليل فهو لغة المرشد والهادي، والأدلة المذكورة في

أجمل، والتاء الحقت به لكونه وصفاً للجمع وهو (الأدلة) فيكون المراد بها الأدلة المبينة للأحكام والموضحة لها.

ثالثاً: موضوع علم الفقه:

إن موضوع علم الفقه هو فعل المكلف من حيث الاقتضاء والتخيير[1]. والمراد بالاقتضاء هو الوجوب والحرمة والاستحباب والكراهة، والمراد بالتخيير هو الإباحة.

رابعاً: الغرض من علم الفقه:

ذكر الفقهاء أن الغرض من علم الفقه وتدوينه وتعليمه وتعلّمه هو تحصيل السعادتين والفوز بالدارين الدنيوية والأخروية وذلك من خلال امتثال أحكامه والعمل بها[2].

خامساً: مراتب الفقيه:

للفقيه من حيث نفوذ حكمه ورأيه مراتِبُ أرْبَعٌ، وكل مرتبة لاحقة منها تستلزم السابقة عليها وهي:

المرتبة الأولى: مرتبة الاجتهاد: وهي ملكة استنباط الأحكام الشرعية عن أدلتها التفصيلية، وبهذه المرتبة يترقى من التقليد إلى درجة الاجتهاد ويسمى

١. لُينظر: منتهى المطلب، العلامة الحلي، ج١، ص٧.
٢. لُينظر: باب مدينة علم الفقه، كاشف الغطاء، ص١٣٠.

بهذه المرتبة مجتهداً[1]، وهو باعتبار الاجتهاد نافذ الرأي على نفسه مطلقاً وإن لم يكن عدلاً ووجد من هو أعلم منه وأعدل، ويشترط في المجتهد البلوغ، والعقل، والإيمان، والعدالة، والحرية، والرجولة، والحياة، والأعلمية، وطهارة المولد.

المرتبة الثانية: مرتبة الفتيا: وهي إخبار الفقيه عن أحكام الله الشرعية بما يجده في أدلتها التفصيلية، مثل قوله: الصلاة واجبة والغيبة حرام، وكتب الفقه مشحونة بالفتاوى والأحكام، ويسمى من بهذه المرتبة المُفْتِي[2]، وباعتبار هذه المرتبة فهو نافذ الرأي على نفسه وعلى مقلده ولا ينفذ على المجتهد الآخر.

المرتبة الثالثة: مرتبة القضاء: وهي إنشاء وإلزام بما تقتضيه الأسباب الشرعية، مثل الإلزام بأداء الدين أو ثبوت الملك ونحو ذلك، ويسمى من يقوم بهذه المهام قاضياً[3]، وباعتبار كونه قاضياً فهو نافذ الرأي على نفسه وعلى مقلده وعلى المجتهد الآخر في المنازعات والخصومات.

المرتبة الرابعة: مرتبة الخلافة أو المرجعية أو الزعامة: وهي مرتبة تدبير شؤون الرعية الدنيوية والأخروية، وتفويض السياسة العامة لمن تبوأها، ورعاية المصالح، ودفع المفاسد، وقمع الجناة، وقتل الطغاة، وحفظ الثغور، ويسمى مَن بهذه المرتبة الحاكم الشرعي أو الخليفة الشرعي أو المرجع الديني، وباعتبار كونه مرجعاً فهو نافذ الرأي في الخصومات والمنازعات والنفوس والأعراض والأموال بما فيه الصالح العام لتدبير شؤون المسلمين، فله الولاية العامة[4].

١. باب مدينة علم الفقه، كاشف الغطاء، ص٨١.